الفشل

أسْبابه ونتائجه

مِن زاوية التحليل النفسي

تعريب:

د. طلال حرْب

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الفشل

أسبابه ونتائجه

من زاوية التحليل النفسي

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م

تمهيد

الفشل هزيمة مرّة تتربص بالإنسان في ميادين الحياة كافة: العاطفية والاجتماعية والمهنية والفكرية، فيسقط الإنسان هناك حيث النجاح ممكن ومتوقع وتتلاشى الآمال والأحلام على صخرة الواقع الصلبة، يتحول المرء صرخة في هوة لا ترحم. ويحاول كثير من الناس تفهُّم أو تعليل فشلهم أو فشل قريبهم أو صديقهم أو أحد معارفهم، فيردّون هذا الفشل إلى عوامل خارجية كالظروف المهنية أو الاجتماعية أو السياسية، أو إلى نقص في المؤهلات أو عدم مرونة تجاه العوائق والمعطيات. والواقع أن الفشل حالة تختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يمر به فيصبح أكثر قوة، ومنهم من يتعرض له فيحطم الفشل أجنحته، ومنهم من لا يستطيع تحمُّل مراراته فيهلك فيها؛ ومنهم، وهذا هو الأخطر، من يسير مباشرة إلى الفشل بقدميه، فيسعى إليه سعياً نتيجة رواسب قديمة وظروف نفسية وعائلية صعبة مرّ بها في طفولته، وهو ما يتوقف عنده هذا الكتاب بشكل عميق.

فالفشل أحياناً لا يكون مجرد عارض طرأ على الإنسان كما يخيل إليه أو إلى البعض، بل يكون نتيجة حتمية لصراعات داخلية عنيفة ولجروح نفسية تركت أثرها في الإنسان وحملته على الفشل حملاً، لذلك يجب الاستعانة بالتحليل النفسي لدراسته واكتشاف أسبابه وتوضيح حقيقة نتائجه، وهو ما يجهد هذا الكتاب للقيام به.

ولعل من أكثر الأمور إمتاعاً أن هذا الكتاب لا يقتصر على الأبحاث النظرية

في دراسة الفشل كعارض من أعراض الأمراض النفسية، بل نراه يركز على الأمثلة المقتطفة من حياة الأشخاص العاديين. فهذا موظف ناجح حصل على ترقية وصار رئيساً مسؤولاً، فتوقع الجميع له مستقبلاً باسماً فإذا هو يفشل فشلاً ذريعاً أودى بعلاقته برفاقه وبحياته العائلية وصحته النفسية. وهذا شاب أحب فتاة جميلة وغنية ومن عائلة محترمة، فحسده أكثر من شخص على ما أصاب من نجاح لكن حياته صارت جحيماً. وهذا رجل ناجح ويعيش حياة مترفة ويحظى باحترام الجميع وتقديرهم، ولكن الجميع يعلمون أنه يخفي بهذه المظاهر البرّاقة فشلاً عائلياً رهيباً حطّم حياته الزوجية والعائلية، ثم تسبب بضياع ولده. وهذا رجل يحب زوجته لكنه يعاني في حياته الزوجية من اضطرابات جنسية شديدة. فلماذا وصل إلى الفشل كل هؤلاء الذين تألقوا ووصلوا إلى مكانة حسدهم عليها الكثيرون؟

ولا يقتصر هذا الفشل البارد المدمر على الأشخاص العاديين، بل يعاني منه أيضاً المشاهير، ونجد في هذا الكتاب عرضاً لمحطات هامة في حياة ثلاثة من الأعلام المشهورين في فرنسا، هم جان ـ جاك روسو وروبسپيير ونابوليون. ونلمس بوضوح كيف ساروا بخطى ثابتة، من تلقاء أنفسهم، إلى الفشل الذريع الذي أودى بهم بعد أن كانوا في قمة المجد، ونتبين كم عانوا أحداثاً أليمة رافقت ولادتهم وطفولتهم الأولى، وتركت أثراً لا يمحى في شخصياتهم، ظل يفعل فعله حتى قادهم إلى الفشل الذريع. فروسو صار أديباً مشهوراً، ومع ذلك عاش حياة عاطفية بائسة نتيجة شعوره المتلاحق بالذنب لأن أمه قضت في أثناء ولادته.

ووصل روبسپيير إلى قمة السلطة، لكنه لم يستطع البقاء طويلاً فيها إذ انقلب عليه رفاقه واعتقلوه، غير أن أصدقاءه وأعوانه أنقذوه وتجمعوا حوله ينتظرون منه إشارة صغيرة للانقضاض على أعدائه، فأمضى الليل حائراً متردداً، فتفرّق أعوانه معتبرين أن شيئاً لن يحدث، عند ذلك اغتنم أعداؤه الفرصة السانحة وانقضّوا عليه مجدداً وقادوه إلى المقصلة!

لماذا وقف دون أي تحرك عندما بدا أن الموقف قد انقلب كلياً لصالحه؟

لماذا أضاع كل هذا الـوقت الثمين، وهو العـارف بحـرج المواقف وشـراسة الرجال إبان الثورة الفرنسية؟

ووصل نابوليون إلى قمة السلطة، خاض الحروب الكثيرة وانتصر فيها بجرأة نادرة وغدا أمبـراطوراً. وبـدلاً من تعزيـز امبراطـوريته مـا فتىء يثير الحـروب ويناوىء الدول حتى أطاحت به؟

هذه المواقف، بجذورها النفسية، هي التي يهتم بها هـذا الكتاب الـرائع متوسلاً التحليل النفسي. ولعلنا نكون بترجمته قد سددنا ثغرة في مكتبتنا العربية والنفسية والعائلية. وتوخياً للفائدة ذيلناه بما توجب من الحواشي والتعليقـات.

أعراض الفشل

إن أعراض الفشل تظهر لنا بطريقة متنوعة للغاية حسبما تنقل بتحديد، كلي أو جزئي، دائم أو عرضي، نشاط فردٍ ما وتطوره الاجتماعي. ونواجه كذلك درجات مختلفة من السوء، تبدأ من المظاهر الأكثر خطورة، التي تحدث منذ الطفولة، إلى الأعراض البسيطة غير الخطرة. وهذه الأعراض قابلة للإدراك بصعوبة، حتى للعين المدرّبة، عندما يبقى الاضطراب العاطفي الذي هو سببها، كامناً على أثر بعض الظروف، أو أيضاً عندما ينجح الفرد في التكيف مع ما يسوؤه ويصحّح نتائجه بنشاط تعويضي.

وفي الحالات الخطيرة، لا يتوصل المرء إلى التكامل مع شخصيته في نطاق النشاط الجماعي لبيئته. ويعاني تطوره الاجتماعي منذ بداياته. في طفولته، يخفق في دراسته، لا يتفاهم مع محيطه، ينعزل ويُوجد لنفسه العديد من الصعوبات التي تمنعه من متابعة طريقه، وهذا رغم ذكائه وقدراته المؤكدة. والصعوبات قد لا تظهر إلا بدءاً من لحظة ما من تطوره، بوساطة المراهقة، مثلاً، أو عندما يتعلق الأمر بالتقدم إلى امتحان والنجاح بعد جهد طويل وشاق. والحالات الأكثر نموذجية تقدم إلينا من قِبَل الأفراد الذين يبدو أن تطورهم يتم بشكل طبيعي والذين، فجأة وعلى أثر بعض الظروف المجهولة، عادة من قبل الشخص نفسه ومحيطه، يحيدون عن الطريق ويجدون أنفسهم، بدءاً من هذه اللحظة، تقريباً فاقدي التوازن، دون أن يكون ممكناً تصحيح السوء بالإرادة أو بالتفكير العقلي.

وفرويد، بعد أن لاحظ هذه الاضطرابات، وصف الشخص النموذجي من **«أولئك الذين يفشلون في النجاح»**، لأنه، في عدد ما من الحالات، النجاح هو الذي يبدو غير محتمل، وخاصة عندما يكون هذا النجاح علنياً ويترجم بتغير، بتحسن جوهري أخلاقي أو مادي في الحياة. وإلى مثال **«أولئك الذين يفشلون في النجاح»**، نستطيع أن نضيف اليوم مثال **«أولئك الذين يفشلون بعد النجاح»**. وحينئذ نواجه كائنات استثنائية ناجحة بشكل لامع، ولكنهم، ما إن يكتسبوا هذا النجاح، حتى يبدو أنهم مرغمون على إلغائه، كما لو أنهم محكومون بتدمير نتاجهم. وأوالية الإلغاء هذه عندما تعمل عند بعض رجال الدولة، كنابوليون، مثلاً، تمتلك نتائج لا حصر لها، كما سنرى لاحقاً، ويستحق في نطاق هذا العمل، التفاتاً خاصاً، لأنه يقدم شكلاً خاصاً من أعراض الفشل الذي يحول دون نجاح الفرد، في مثل هذه الحالات، لكن، هذا النجاح عندما يُبلغ، يحدد آثاره ويدمر نتائجه.

لنضع يدنا الآن على بعض الحالات الواقعية للتوصل إلى فهم كيفية ظهورها، في الممارسة، هذه الأوليات النفسانية التي تفسح في المجال لأعراض الفشل.

هذه حالة موظف عمره خمس وثلاثون سنة، وهو معروف بانتظامه في العمل والدقة الشديدة التي يضطلع بوظائفه وفقها، في محل تجاري كبير. وهو دقيق، يقوم بكل مستلزمات خدمته. ورب العمل ورفاقه متفقون على اعتباره رجلاً لا عيب فيه. وقد تزوج من موظفة في المحل ولهما ولد عمره سنتان، الزوج والزوجة يبدوان متفاهمين جداً. لكن مدير الدائرة التي يعمل فيها هذا الموظف مات منذ فترة وجيزة ودُعي لخلافته. وبدءاً من هذه اللحظة لوحظ تغيّر في سلوكه. سابقاً كان دائماً منتظماً في العمل، وهو الآن يصل متأخراً. وبدأ يتناقش مع مرؤوسيه، ويوجّه إليهم تأنيبات لقاء أمور تافهة. وجرى الأمر نفسه مع زوجته. وأخذ يشكو من كونه قلقاً ولا ينام. وأخيراً اعتقد أنه مريض، وخشي من أن يكون مصاباً بالسرطان، فانتهى إلى استشارة الأطباء. وتبين أن

لديه توتراً شريانياً خفيفاً، في خفقان القلب. فخضع لعلاج في رويا (Royat)[1] ولآخر في فيشي[2] (Vichy) وهو إذ اقتنع بأنه مصاب بمرض قلبي، ترك عمله للاعتناء بنفسه. فنصحه طبيب نفساني بمدينة ديفون[3] (Divonne) وحمّاماتها. ولكن لا الحمّامات، ولا أنظمة الحمية، ولا الأدوية استطاعت تخليصه من قلقه وحصره. كان يشعر لبعض الوقت أنه في صحة جيدة، ثم يعاود السقوط من جديد. فأصبحت حياة الأسرة صعبة. والعلاقات الجنسية تباعدت أكثر فأكثر، وانتهت إلى التوقف كلياً. وأدت هذه العنة إلى تدخل طبيب متخصص بالأمراض العصبية أوصى بالخضوع لعلاج تحلفسي[4]، أتاح حينئذ اكتشاف أعراض الفشل التي بدأت بالظهور منذ موت المدير الذي خلفه الموظف. إنه لم يحتمل نجاحه المادي، وهذا النجاح هو الذي أطلق عنده على ما يبدو، كل الظاهرات المرضية التي يشكو منها.

إن حالات من هذا النوع على جانب من الانتشار بحيث نستطيع اعتبارها نموذجية، ويتعلق الأمر عادة بالموظفين الذين لا يستطيعون النجاح في منصب مدير سابق أو رئيس، مات أو ترك العمل. فكل شيء يبدو طبيعياً طالما أنهم موجودون في منصب مرؤوس. وتظهر اضطراباتهم عندما يتوجب عليهم أن يكونوا على رأس المؤسسة. وتطالعنا هذه القضية مع الأولاد أو الأصهار الذين يكتشفون أنهم غير قادرين على الإطلاق على خلافة والدهم أو حميِّهم الذي كانوا موظفين ممتازين عنده.

ولا يسود الحصر والقلق بالضرورة الجدول العيادي لأعراض الفشل. فالموظف، والابن اللذان صارا ربّي عمل يستطيعان، بالتضامن مع شخص ما، أن يضما إليهما مسؤولاً يتركان له إدارة الأعمال. إنهما يسعيان بهذه الطريقة إلى

---

(١) مدينة فرنسية فيها حمّامات مياه معدنية.

(٢) مدينة فرنسية شهيرة بمياهها المعدنية.

(٣) ديفون مدينة فرنسية فيها حمّامات مياه معدنية.

(٤) تحليلي نفسي (Psychanalytique).

التهرب من الصعوبات التي تقتضيها مهمتهما. ولكنهما، غالباً، يختاران معاوناً سيئاً، عمداً أو عن غير عمد، يصل إلى تعريض الأعمال للخطر. ولأنه غير مؤهل لإدارتها، يجازف هذا المساعد بتخريبها. وفي بعض الحالات، يسعى الشريك المختار في مثل هذه الظروف إلى الاستئثار بالأمر وطرد المالك. وهكذا يتنظم الفشل على المستوى الاجتماعي.

وقد يرد بعض الأفراد على نجاحهم بنزوات إجرامية. فالموظف أو الابن أو الصهر المدعوون، بسبب موت رب العمل، إلى رأس المؤسسة يندفعون في مضاربات تعيسة. وإذ هم مأخوذون في الدوامة، يراكمون الديون، ويبدأون بعدم دفع كمبيالاتهم، يزوّرون ميزانيتهم، يوقّعون شيكات بلا رصيد، ويرتكبون أعمال نصب واحتيال، وينتهون حينئذ الى الفشل على مقعد المتهمين.

في هذه الحالات نواجه مبحثاً خاصاً لأعراض الفشل، وهو يعمل على المستوى الأخلاقي، والاجتماعي في الآن نفسه، وينهض من علم الإجرام. ومن غير المجدي القول إننا نجد أنفسنا أمام مرضى حالاتهم هي عموماً مفهومة بشكل سيىء من المحيط وممثلي العدالة. إن تحقيقاً تحلفسياً يظهر لنا، عند هؤلاء الرجال، ترابطاً نفسانياً بين الأسباب والنتائج، ونزاعاً نفسياً كافياً ملزماً بشكل إجباري بالظهور بوساطة علامات مرضية قابلة لقيادة المنتفعين الى السجن، وفي حالات أكثر خطورة، إلى الأشغال الشاقة أو حتى إلى المشنقة، تبعاً للجرائم المرتكبة.

ولا ننسى التذكير بأعراض الفشل المنطلقة عند بعض رابحي الجائزة الكبرى في اليانصيب الوطني. فالمرء يظن أنه قد حقق حلمه. فيتخلى عن العمل الصغير الذي أتاح له العيش بنزاهة حتى ذلك الحين. فيشتري دارة فيلّا، ولكن بدلاً من القدرة على التمتع براحة بال بتوفيقه، يشعر أنه مضطهد، فينعزل ثم يفر من المجتمع. إنه يصبح نزقاً سريع الغضب مع أفراد عائلته وأكثر فأكثر غير اجتماعي وتجرّ هذه الصعوبات صعوبات أخرى تجعل منه شخصاً مختل التوازن.

في كل هذه الحالات، نتحقق من أن أعراض الفشل تظهر فقط بدءاً من اللحظة التي غيرت فيها ظروف خارجية (تقدم في المهنة، خلافة أب أو رئيس في العمل، جائزة كبرى، . . . الخ) وضع الأفراد. لكن هذا التغيير في الوضع ليس بحاجة إلى الحدوث بطريقة مرئية جداً لإثارة العلامة المرضية نفسها. فالدور البسيط للترقية بالأقدمية في مهنة، والنجاح البسيط العادي في قضية ما، أو إرث، أو النجاح في الحب ـ كل هذه الأمور قادرة على إطلاق هذه العلامات المرضية.

لنأخذ مثالاً: السيد أ. . . إنه يعيش سعيداً مع زوجته وأولاده. الزوجان يديران مرآباً يشغل قسماً كبيراً من وقتهما. ومع تطور صناعة السيارات ازدهر عملهما وأصبح شيئاً فشيئاً ذا أهمية كبيرة. وتحوّل المرآب الى مصنع. فغيّرت العائلة عملها. اشترت سيارات، وبدءاً من هذه اللحظة بدأت أعراض الفشل بالظهور. وأصبح الزوج غريب الأطوار مع زوجته، فأخذ يرسلها للتنزه مساءً مع بعض أصدقاء ويطرح عليها بعد ذلك كل أنواع الأسئلة عن المخاطر التي يعرّضها لها. فاستسلمت المرأة أولاً لهذه اللعبة الصغيرة بشيء من اللهو والتسلية، ولكن، بمناسبة أمسية في السينما مع رجل آخر بشكل خاص، ذهبت أبعد من ذلك، وروت المغامرة لزوجها، مقتنعة بأنها تستطيع أخيراً الإجابة عن رغباته السرية. فأظهر هذا الأخير الغيرة، ثم أمضى الليل خارجاً مع بائعات الهوى. وانفجرت نقاشات عديدة، وخلالها سيطر على الزوج غضب شديدٌ فلاحق زوجته بالسكاكين والمسدسات. وهدّد إما بقتلها أو بالانتحار. فتعرضت المرأة، المثقلة بتأنيب الضمير والمعتقدة أنها تدفع بزوجها إلى الانتحار، لانهيار عصبي أجبرها على استشارة طبيب مختص.

نجد في هذه الحالة أن انطلاق العلامات المرضية التي كانت العائلة ضحيتها، مشروط بالنجاح المادي في الأعمال. وترجمت أعراض الفشل، عند الاثنين معاً، بانهيار حياتهما العاطفية، في حين أن تطور الأعمال يؤمن لصاحبي العلاقة نجاحاً مادياً لم يكن يستطيع أي تبذير للزوج المجازفة به.

وهذا هو الآن مثال رجل شاب نجح في زواج باهر. لقد تزوج، رغم جميع التوقعات فتاة شابة جميلة وغنية ومن عائلة محترمة. وبدا أنها تحبه. فأعلن الزواج أولاً كنجاح، وبدا أنه يرضي أمنيات الرجل الشاب ويزيد. ولكن سريعاً جداً تأكد هذا الشاب من أن امرأته، التي اعتقد أنه يحبها بشغف قبل الزواج، لم تعد تهمه. وقد بذل جهوداً كثيرة لإخفاء اضطرابه، ولكن عبثاً: إنه عاجز وعنّين. ولأنه مغتاظ، أخذ يبحث عن أعذار لحالته باتهام زوجته. ولكي يشعر بالرغبة الجنسية قادها إلى بيوت خاصة حيث أجبرها على الاستسلام لبائعات الهوى. إنه يريد مراقبة المشهد والقيام بدور «المتلصص».

وبعد جلسات من هذا النوع، توصل أحياناً إلى النجاح في علاقاته مع زوجته، وهي علاقات حدثت في المنازل المشار إليها، لقد عامل زوجته كبائعة هوى وقد ولد لهما طفل في هذه الظروف، ولكنه كان ضعيف البنية وعليلاً فمات بعد مرض قصير بعد أن قارب عمره السنة. وعلى أثر هذا الموت، اختل توازن الأم كلياً. وصار منزل العائلة بشكل نهائي مخرباً من جراء هذه الأحداث التي لم يسمح أي شيء، قبل الزواج، بالتنبؤ بها؛ لقد كان هذا الرجل الشاب عازباً رصيناً وميّالاً قليلاً إلى المخاطر.

وفي حالات أخرى، يترتب الفشل بالطريقة التالية: الرجل الشاب أو الفتاة الشابة، بدلاً من الزواج من الشخص الذي يُحلم به، يقرر (أو تقرر) فجأة الزواج من شخص آخر، القادم الأول (أو القادمة الأولى). ولكنهما يتبينان سريعاً أنهما أخطآ الطريق. فالعائلة لا تنجح، شريكهما يثير الاشمئزاز ويكتشفان لاحقاً، أنهما تزوجا في ظروف مستحيلة ويظهر لنا التحليل النفسي أن الأمر يتعلق هنا بشكل خاص بنوع من الهرب أمام الحب. وهذا الهرب، في حالة نعرفها، قاد فتاة شابة إلى السجن. وهي إذ أغرمت بشدة برجل شاب من عائلة محترمة كان يغازلها، ارتكبت جنحة فأمضت في السجن ثلاثة أشهر. وقد خرجت منه مكتئبة جداً، إلا أنها نسيت الشاب. إن علاجاً بدا ضرورياً برهن لها أن السجن كان الوسيلة التي بوساطتها، دون أن تدري، قتلت حبها لتلبس ثياب الحداد عليه.

إن تجربتنا تعلمنا إلى أي حد يكون بعض الأشخاص المتناقضين مع أنفسهم قادرين على القيام تماماً بنقيض ما يكونون عادة مدفوعين إلى القيام به. وسنوضح في الفصل القادم كيف أن هذا الميل في الذهاب إلى النقيض من الإدراك الشخصي يمكنه أن يتطور عند الأفراد. في الوقت الحاضر، لنسجل ببساطة أن شخصاً، بمقتضى ضرورة داخلية غامضة، يمكن أن يختار كزوج شخصاً هو نقيضه وهو، بتأثير بعض الأشياء، سيصبح عدوه. فإحدى الأمهات إذ تحس بميل مماثل، يمكن أن تصبح خصماً لأولادها بالذهاب إلى نقيض مشاعرها الطبيعية. ويستطيع رجل كذلك أن يقوم بكل شيء لتفتيت أسرته أو لإفشال مشاريعه.

وهناك حالات يتدخل فيها الفشل بشراسة، ليس بشكل مضاعفات نفسية أو اجتماعية، بل بشكل حوادث. ففي ظروف الحياة، يكفي رد فعل خاطىء بمقود سيارة أو طائرة للتسبّب بحادث ما. وهذه هي، على الأرجح، حالة هذا الطيّار الشاب الذي حطم طائرته على إثر ليلة أمضاها مع زوجة أحد أصدقائه. وهذه ستكون أيضاً حالة الزوجين اللذين، بعد أن حضرا دفن عم غني جداً ورثاه، تعرضا لحادث سيارة خطير. فالطريق كانت مستقيمة، ودون أي عائق، ومع ذلك ارتطمت السيارة بشجرة. ومن غير المجدي القول إن حادثاً مثل هذا يمكن أيضاً أن يحدث لرجل حقق نجاحات خاصة في الأعمال أو في القمار.

ولنميّز الآن الحالات التي نجد الفشل فيها، بدلاً من الظهور بوساطة اضطرابات نفسية، أو صعوبات اجتماعية أو حادث ما، يظهر بواسطة مرض عضوي. وهناك أمراض لا تظهر مصادفة، بل تكون مطلوبة ومقصودة ومزروعة. وهذا المفهوم معروف منذ زمن طويل، ولكن ربما لم يتحقق أبداً إلى أي حد كان بإمكان الرجل مقاومة بعض الأمراض التي هو ضحيتها. وقد احتجنا إلى كل خبرة التحليل النفسي لكي نفهم كيف كانت النزاعات النفسية تستطيع الظهور بشكل أمراض عضوية وكيف كان الفشل يستطيع بشكل خاص التحقق بوساطة مرض مستخدم في هذا الاتجاه، مثل التعقيبة، أو السفلس،

أو السل الرئوي. وسنوضح في الفصل القادم ما هي طبيعة القوى التي تدفع المرء إلى أن يكون ضحية، إلى أن يكون صانع تعاسته الخاصة والآلام التي تجعل من حياته جحيماً. وفي كتاب د. لافورغ فشل بودلير، ولفتة لانتباه القارىء إلى هذا المظهر للمشكلة واستشهاد بالأبيات المميّزة للشاعر في ديوان أزهار الشر:

فليكن ممجداً، يا إلهي، ذاك الذي يعطي الألم كعلاج رباني لقذارتنا.

ولنأخذ مثالاً آخر: رجل شاب عاش بعفة حتى عمر العشرين، وأخيراً لكي يفعل مثل رفاقه وبعد ألف تردد، اندفع في مغامرة. وكان سيّىء الحظ إذ التقط مرض التعقيبة. ودون التفكير كثيراً وبعيداً، وضع هذه الحادثة في زاوية المصادفة. فعالج نفسه وبعد بعض الوقت، جرب التجربة نفسها، محتاطاً هذه المرة جيداً باختيار شريكته. لكنه أيضاً اختار اختياراً سيئاً، فوجد نفسه من جديد ملتقطاً العدوى فانتهت هذه المرة بانهيار عصبي. وقد كشف لنا التحليل ميلاً إلى الفشل، مستخدماً بشكل منهجي المرض الزهري كحائل بين هذا الشاب والمرأة.

وتنتهي مثل هذه التجارب حتماً بفصل الرجل عن المرأة. وقد عرفنا كذلك حالة امرأة شابة من عائلة محترمة جداً، وجدت، بعد عدة تجارب غرامية، وسيلة للحصول على ما كانت تدعوه «ثالوثها»، وسيلة للتعرض للأمراض الثلاثة الزهرية مجتمعة: القرحة الرخوة والسفلس والتعقيبة، متموضعة في الأعضاء الجنسية. وعندما نلاحظ عدداً ما من الحالات المماثلة، من المستحيل نسبتها إلى المصادفة أو الحظ السيّىء. إذ تُظهر لنا التجربة التحلفسية، من جهة أخرى، وجود مجموعة من الأمراض العضوية قادرة على الانعقاد والتكون للأسباب نفسها التي تتكون فيها الأمراض الزهرية التي تكلمنا عليها للتو.
ولسوء الحظ، في أيامنا هذه، نجد الكثير من الأطباء قليلي الاطلاع على هذه المشاكل التي تخرج عن نطاق المفاهيم الكلاسيكية. ونجد أحياناً، في

أبحاثنا، الآراء المسبقة نفسها التي جعلت في ما مضى مهمة باستور[1] صعبة جداً.

إن بعض الأمراض يحل محل المخدرات، هذا واقع. إذ هناك مدمنون على المرض كما هناك مدمنون على المخدرات. فالمخدّر والمساوىء التي ينطوي عليها بالنسبة إلى بعض العصابيين وسيلة موضوعة قيد العمل ببراعة للتألم ولرعاية حالة مرضية. إذ قد تنفع عصية كوخ[2] (Koch) كمخدر يحرر، كالألم والمعاناة. ففي واحدة من حالاتنا، فتاة شابة، عاشت وكبرت في ظروف عائلية غير ملائمة بشكل ملفت للنظر وقد وجدت حلاً لتعاستها بفضل السل الرئوي الذي أتاح لها العيش بسلام في مصح، بعيداً عن أهلها، منعزلة كما في دير. وكان كل تحسن يعرضها لخطر الرجوع إلى بيئتها، وكل محاولة لاستعادة الحياة الطبيعية كانت تفضي حتماً إلى انتكاسة.

وقد يصبح المرض كذلك هدفاً لبعض الأشخاص. فالسوء الذي يحملون في ذاتهم برغمه يمثل إشباعاً مؤلماً لتطلعات مكتومة. والطبيب نفسه قد يصبح السلاح الذي بوساطته يتحقق الفشل وحتى الانتحار بلذة وشهوة. وهذه هي حال الرجل الذي كانت لنا فرصة معاينته فهو، بعد أن عمل كل حياته بشكل مضنٍ، تقاعد حوالى الستين لكي يعتزل في مكان يملكه. كان الحلم بالنسبة إليه ختام حياته الشاقة. فترك أعماله، وأعدّ انتقاله إلى ذلك المكان الذي كان يقع بعيداً عن باريس. ولكنه، في يوم الرحيل وفيما كل شيء معدٌ ومهيأ للانتقال، سقط مريضاً بروماتيزم عادي وحقوي. فالتجأ إلى طبيب وصف له حقناً، فانتظر أن يشفى لكي يسافر. ولذلك ضاعف عدد هذه الحقن، المكلفة جداً من جهة أخرى، وسريعاً اشتكى من خرّاج في الفخذ، نتيجة لحقنة أُسيءَ إعطاؤها.

---

(1) باستور، لويس (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) كيميائي وعالم بالجراثيم، فرنسي. أدت دراساته وأبحاثه على التخمرات والجراثيم إلى تطور الطب والجراحة. وتركزت أبحاثه على داء الكَلَب (السعار) والأمراض المعدية بشكل عام.

(2) روبرت كوخ (١٨٤٣ ـ ١٩١٠) طبيب وعالم جراثيم ألماني، تخصص في السل.

فازداد السوء. وارتفعت الحرارة وظهر التسمم الدموي. ثم مات المريض بعد بضعة أشهر رغم كل الجهود المبذولة لإنقاذه. إنه لم يستطع أبداً الذهاب، والانعزال في المكان الذي يملكه، كما كان يحلم، وللتمتع بثروته. فهل يجب اتهام الطبيب بعدم الكفاءة أو بالإهمال؟ ليس بالضرورة، في مثل هذه الحالة. إذ كان الأمر يتعلق على الأرجح بأوالية فشل نموذجي، منعت هذا المريض من النجاح. فهذا النموذج من المرضى ينتهي بشكل عام إلى التغلب على الطبيب الذي لم يفهم حاجته الى الفشل.

ونعرف أيضاً حالة امرأة أجريت لها عملية جراحية في ظروف مثالية والتهبت جراحها عند كل معالجة، رغم الاحتياطات المأخوذة. مرة، اثنتين، ثلاث، وأربع، والجرّاح يعيد العملية الجراحية. وأخيراً، أقلع عن ذلك. وقد سمح لنا علاج تحلفسي بأن نكتشف عند هذه المرأة حاجة ملحة إلى إفشال جرّاحها، والتألم في جسدها بكل الوسائل التي تملكها. ومن غير المجدي الإضافة أن طبيباً مهملاً أو مهتماً يستطيع بسهولة أن يضع نفسه في خدمة أعراض مماثلة وبشكل نهائي.

في الواقع، إن جميع الحالات التي أتينا على وصفها في خطوطها الكبرى تظهر وبأبعاد كثيرة للغاية. وسيكون من الأسهل علينا الدخول في التفاصيل بعد مؤالفة القارىء مع أسباب السوء وبعد عرض تكوّنه. وإن الموضوع الذي نعالجه سيبدو حينئذ بشكل أقل مفارقة وأكثر مناسبة لفهمنا. إذاً سنمحّص هذه المسألة في الفصول القادمة، بقدر ما تسمح دراستنا بتطويرها الآن وقد استطعنا بشكل عام، تحديد المشكلة.

الذات الخارقة الفردية والاجتماعية

قد يتوقف المرء عند تقاطع الطرق لاختيار الطريق الذي سيسلكه، فما هو تقاطع الطرق هذا؟ ما هو هذا الخطأ الذي يرغمه على اتّباع سبيل مضاد لسيرورة اتجاهه الطبيعي؟ للإجابة عن هذه الأسئلة يجب العودة إلى تعاليم التحليل النفسي التي تظهر لنا كيفية حدوث تطور المرء في كنف عائلته وتآلفنا مع مفهوم «عقدة أوديب»، كما أنها تساعدنا على أن نفهم كيف يجري تأثير جميع التيارات المعتمدة في الوسط العائلي، في الطفل للوصول إلى تكوين مفهوم أخلاقي يمارس فعله في الحياة النفسية بعيداً عن الوعي المباشر، ويتدخل في تحديد هوية جميع الأفعال والأعمال. وهذا المفهوم المهيمن على الفرد هو هذه «الذات الخارقة» وليس ما اتفق على تسميته بـ «الأنا العالي» وخاصة عند بعض علماء النفس الفرنسيين. ولعل بالمستطاع إيجاد اسم أفضل لها.

ولإدراك معنى هذا المفهوم للأنا الخارقة، يتوجب علينا أولاً الكلام على «الأنا» أو الذات ودورها في مواجهة الغرائز التي تحرك اللاشعور والشعور في الأشخاص. وقد تم في كتاب نسبية الحقيقة اللاشعور تحديد الذات على الشكل التالي: «إننا ندعو ذاتاً هذا النشاط الذي يقوم به الجهاز النفسي، والتي عبرها يتم تكوين إدراكاتنا، الداخلية والخارجية، وهو تكوين يتيح لنا التموضع في الزمان والمكان ونحن نشعر بوعينا بهذا التموضع وبمعرفة التصرف إرادياً تجاههما ووفق حاجاتنا»؛ ثم ذُكر لاحقاً أن الوعي هو وظيفة الذات التي تعمل

بطريقة تتغير بحسب تغيّر الأفراد والعائلات والبيئات والطبقات والجماعات والجنسيات والحضارات التي ينتمي إليها هؤلاء الأفراد [. . .] ولدينا كل الأسباب التي تدفعنا إلى الإيمان بأن هذا النشاط النفسي الذي بوساطته تحقق الذات حالة الوعي هو نشاط معقد جداً، ويتطلب كمية محترمة من العمل رغم الإحساس بالسهولة والمباشرة اللتين يمكن أن نشعر بهما. ولا يشتمل هذا العمل كما نعلم على بلورة الانطباعات الحاضرة فقط، فانطباعات الماضي تشارك فيها أيضاً بشكل تجارب ومعارف وذكريات. لقد تم تكوين هذا الماضي وتحويله إلى رأسمال على يد الفرد والعائلة والجماعة وكل الأجيال التي أبدعت الحضارة. وتشكّل هذه الحضارة مجموعة من الذكريات والتجارب المتراكمة بوساطة الأفراد والجماعات خلال ماضٍ مديد نسبياً، كما أنها تتدخل بشكل عريض بوساطة الأواليات النفسانية التي تتحكم بتأثير الجماعة في الفرد لتحدد موقفه تجاه معطيات الحياة. لذلك لن تكون الذات نتاجاً للفرد فقط، بل ستكون في الوقت نفسه نتاجاً للجماعة أيضاً، بقدر ما تعكس عقليتها وتعبر عنها. فهي تتألف إذن، بشكل إجمالي، من ذات جماعية الأصل ومن ذات فردية.

إن هذه الذات الجماعية الأصل، التي تتبلور أولاً تحت تأثير الأهل خلال الطفولة، ليست بالضرورة ذاتاً واعية. إنها تتصرف أوتوماتيكياً بقدر ما تصبح التجربة التي تحددها منسية أولاشعورية، إلا أن فعلها ليس أقل واقعية منها، ويمثل حكماً أخلاقياً مستقلاً يتدخل في إعداد الأحاسيس والأفعال العائدة إلى الفرد، كما أنه يوجهه في هذا الاتجاه أو ذاك، ويرغمه على رفض أو قبول وجهة النظر هذه أو تلك، وطريقة الشعور أو التصرف. ولهذا الحكم بالذات أعطى الكتّاب الألمان اسم الذات الخارقة، لأنها تستطيع مقاومة الذات، والتحكم بها وإخضاعها واستعبادها كأنها مميزة عنها وتقع فوقها.

ويحدث غالباً أن تخالف هذه الذات الخارقة مستلزمات تطور الفرد وضرورياته. إذ إن تأثير الأهل الذين أسهموا في بنائها وتكوينها لا يمارس دائماً في الاتجاه الصحيح والجيد. فقد يكون هؤلاء الأهل أسرى عُصاب يعيق

نشاطهم الشخصي وسيشل في ما بعد نشاط أطفالهم. كما أنهم يكونون أحياناً ضحايا عقلية جماعية تتصرف كعصاب باسم معتقدات دينية أو مفاهيم اجتماعية، فتمنع كل تفتح. وفي نهاية المطاف، قد يتخذ الفرد نفسه، إثر صدمة ما، نقيض تطوره الطبيعي، كأن هذا التطور الطبيعي يمكن أن يقوده إلى طريق مسدود ويشكّل خطراً بالنسبة إليه. وفي جميع الحالات، من الممكن أن يستخدم الفرد ذكاءه وطاقته لملاحقة ما هو مناقض له. ومن الممكن ألا يصبح هذا العمل عادة فقط، بل يصبح واجباً أخلاقياً أو مثالاً مقدساً. ولكي نفهم جيداً هذه الطريقة في مخالفة مستلزمات الحياة وضرورياتها يتوجب علينا الدخول في التفاصيل والتآلف مع مفهوم العصاب العائلي.

إن «العُصاب العائلي» مصطلح يُطلق على مجموعة من الظاهرات النفسية التي يتحكم بها العصاب، والتي تميّز حياة الأفراد الذين يشكلون عائلة. ويبدو أن بعض أنواع العصاب يرغم الإنسان على اختيار زوج لديه عصاب مكمّل له، كما ألمحنا إلى ذلك في الفصل الأول. ففي الواقع، نجد أن الرجل المخنث والسلبي والصبياني يختار عادة امرأة أنثى مسترجلة[1]، متسلطة وحيوية، قادرة على أن تأخذ على عاتقها المسؤوليات التي كان من الواجب تحميلها للرجل. وهكذا يبدو الزوجان متكاملين، إلا أن اضطرابات حياتهما العاطفية تترجم بشكل عام بالعديد من الأعراض والعلامات الشاذة.

إن الأنوثة عند الرجل والذكورة عند المرأة هما بشكل عام ميزتا توقُّف في تطور الحساسية وسرعة التأثر، كما أن من الممكن أن تحدثا من جراء تأثير الذات الخارقة. وصحيح أن هذه الصبيانية الجنسية يمكن أن تعوَّض، بحسب الحالات والأشخاص، بنشاطات أخرى للفرد، وتظهر من جراء ذلك بطريقة متنوعة جداً. إلّا أنها عادة تفسح في المجال للعديد من التعقيدات المشابهة للتعقيدات التي تحدثنا عنها للتو.

---

(١) نقترح هنا مصطلح (الرنثى) للمرأة المسترجلة.

إن معظم النساء المسترجلات يكرهن الرجل الطبيعي؛ والرجل المخنث كذلك يكره المرأة الطبيعية، فكلا الاثنين يتصرف، الواحد منهما تجاه الآخر، بطريقة عدوانية، ومهما كانت مكبوتة فإنها لا تعبّر عن نفسها عادة بلا معرفتهما. فالرجل المخنث يميل الى تعذيب المرأة، ولكن ليس بالضرورة بشراسة ظاهرة، بل يقوم بذلك غالباً بألف وسيلة ووسيلة بارعة، وهذه الوسائل تفعل فعلها في مشاعر الذنب عند الأشخاص. وعلى النقيض من ذلك، تثقل الرنثى الرجل بعنف وبرودة عاطفية قاسية، ساعية إلى إصابته بجروح أخلاقية ومعنوية بقدر ما هي جروح مادية حسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي: كيف سينمو ويكبر الأطفال في البيئة التي يكوّنها مثل هؤلاء الأهل؟ لنعرف ذلك سنقدم حالة هذا الصبي.

إن تأثير الأم سيمارس ضد الصبي بعنف يكبر بقدر ما يكون هذا الصبي قوياً وحازماً ورجولياً، إذ إن كره الرجل عند مثل هذه المرأة لا يتوقف أمام الولد. إلا أن هؤلاء الأمهات يتحملن بشكل أفضل الفتيات وكذلك، غالباً، الأولاد الضعفاء، أو المرضى أو المستضعفين الذين يثيرون شفقتهن. إذ إن صورة الولد المعذب تلبي حاجات حياتهن الجنسية، وشعورهن بالذنب يدفعهن إلى إصلاح السوء الذي بإمكانهن القيام به. ويكبر الصبي، لكن والده الضعيف جداً سيكون عاجزاً عن إعطائه نموذجاً عن التمردات الصحية الشافية، وعند الحاجة، سيدع هذا الأبُ الأم تحركه وتديره لتدمِّر جذرياً رجولته هذه الرجولة التي كانت ستتيح له استئناف السلالة، وسيسعى هذا الأب كذلك إلى توجيهه نحو نشاطات هي في الحقيقة نشاطات تأملية. وإذا سمحت الظروف، سيجعل منه رجلاً مثقفاً، فالنشاط الفكري أو الفني يتلاءم بشكل أفضل مع سلبية الرجل.

وفي المستقبل، سيتعلق الابن بوالده أكثر مما يتعلق بأمه، وسيعاني نموه العاطفي عاقبة ذلك. كما أن حياته الجنسية، بدلاً من التوجه نحو المرأة، ستتحول نحو الرجل بطريقة خفية تقريباً، غير قابلة للإدراك من قبل الشخص

غير المعدّ لهذه المسائل وغير المتمرن عليها. ولا تضر هذه الأحوال دائماً بتطور الذكاء، لكنها تعرقل نمو الحياة الجنسية وتطورها. فكل صبي، خلال تطوره الجنسي يجب أن ينافس الرجال الآخرين، ويبدأ ذلك بمنافسة والده. إن هذه العدوانية تجاه الأشخاص المنتمين إلى الجنس نفسه أمر طبيعي، وتثور في مرحلة ما من مراحل التطور العاطفي. إلا أنها تبقى عند الصبي الذي يربّى في المحيط العائلي الذي وصفناه للتو، كامنة في المهد، فهو يتفاعل في هذا الوسط بمشاعر كبيرة من الذنب، ويميل الى معاقبة نفسه بحدة أكبر من حدة معارضته لنموه الجنسي الطبيعي، إنه يعظّم حبه لوالده على حساب حبه لأمه، أما الميول التي ستتيح له أن يصبح هو نفسه أباً، فإنها ستفشل إلى هذا الحد أو ذاك، كأنه يخشى حذف والده بحلوله محله أو باستقلاله عنه. إذاً نتبين في هذه الحالات أن الرجل يصبح، أكثر من المرأة، موضوع حب الصبي، ويمكن أن نفهم الآن فوراً كيف ستكون نتائج هذا التعلق. ولا شك في أن إحدى هذه النتائج ستجذب انتباهنا بشكل خاص، وتعرف هذه النتيجة بعقدة الخصاء[1].

في الحقيقة، ليس من السهل أن نشرح للقارىء ما تمثله عقدة الخصاء. فهناك أطباء نفسانيون دقيقون ومبدعون توصلوا إلى فهم عقدة أوديب بدراسة «أعراض الخصاء». إن هذا الأمر ناتج بشكل خاص من أن ثقافتنا، إذ ترغب في أن تتجاهل بشكل منهجي الصعوبات النفسية لدى الولد، قد أرغمتنا على تزييفها، معتقدين أننا بذلك نزيلها. إلا أن هذا الفعل للأسف يحرمنا بكل بساطة من السلاح الحقيقي الوحيد لمجابهتها والتصدي لها: وهو المعرفة! إن المجاملات قد عوّدتنا على ألّا نأخذ بعين الاعتبار بعض مظاهر الحياة الجنسية، وعلى إهمال محاولة فهم الدور الهام الذي تقوم به، عند الصبي والرجل، القدرة على امتلاك الفحولة. ولا تتطور هذه القدرة إلا ببطء؛ وخلال تكوّنها،

---

(١) عقدة الخصاء هي خوف بلا مبرر من خسارة اكتمال الجسد وتمامه. وهي تتعلق في الواقع بنظام من الانفعالات ذي علاقة بالقيمة الرمزية لعضو الرجل أكثر مما تتعلق بمشاعر متعلقة بالجسد البشري المبتذل.

تعاني تغيّرات هامة. وينبغي للوقوف على أهميتها الكبيرة، أن ندرك أنها لا تعبّر عن نفسها فقط بالصلابة التي تجعل العضو الرجولي قادراً على اتمام وظيفته الجنسية الطبيعية، بل كذلك بمجموعة كاملة من العناصر النفسية التي هي، على مستوى الحساسية، النتيجة الطبيعية للقدرة على الفحولة. إنني أود الكلام على قدرة قتالية، على قوة عضلية، على سخاء ما، وهذه كلها أمور تميّز بدرجة بارزة إلى حد ما مزاج الشاب البالغ وشخصيته. إذ ليس مصادفة أن الذهن المبدع، مثله مثل الذهن القتالي، يبدو أكثر تطوراً عند الشاب البالغ منه عند المرأة. إذ عندما يعتاد الصبي أو الرجل على معارضة نموه الطبيعي خوفاً من أن يقوده هذا النمو إلى معارك خطرة، لا يعبّر هذا الأمر عن نفسه فقط بضعف ووهن في رجولته النفسية، بل كذلك بوهن في كفاءته كرجل في العلاقات الجنسية. ففي هذه الحالات، وخوفاً من أن يتوجب عليه المخاطرة بنفسه في الصراع، ينطوي الذكر على وضعيات انطلاقه؛ فيبقى طفلاً ومخنثاً ليكون سليماً محافظاً على نفسه. إنه يقتطع جزءاً من رجولته ويضحي به خوفاً من أن تعرّضه هذه الرجولة نفسها لخسائر جسيمة. إنه يخصي نفسه خوفاً من أن يُخصى. وهذا التصرف هو ما ندعوه «عقدة الخصاء». إنها النتيجة المباشرة لقلق الخصاء الذي يقوم في التطور الجنسي لدى الصبي الصغير بدور أكبر بكثير مما اعتقد دائماً حتى الآن المربّون والأطباء.

ويزداد هذا القلق بتأثير غيرة الأم من رجولة ولدها. فتصبح جميع الوسائل جيدة ومشروعة لعرقلة شغبه وشيطنته، لإخافته من المبادرات التي يقوم بها، وباختصار يمكن القول إنها تسعى إلى تحويله إلى فتاة. أما عند الصبي المخنث، فإن قلق الخصاء يأخذ أحياناً أبعاداً هائلة أمام الأب وحتى الأب الأكثر لطفاً لأن صفاته الرجولية ترعبه. فنراه حينئذ يرد على أقل المظاهر الحيوية للرجل البالغ بالخوف من أن يعامل بقسوة أو أن يُخصى. إن مشاعر القلق هذه، لا يتم الاعتراف بها في العادة أبداً. بل هي بالأحرى مخبأة ومكتومة بعناية، بحيث إن الصبي المخنث، غير القادر على مواجهة الواقع، يميل إلى تحويلها إلى مثال أعلى وإلى عدم رؤية الأشياء كما هي في الحقيقة، فهو أكثر

ميلاً إلى اعتبار نقاط ضعفه فضائل، وخاصة عندما يتفق هذا الأمر مع مثال زمن ما ويشتمل على العديد من الحسنات.

إن المرء المعتاد على تزوير مشاعره باستمرار، يصبح منافقاً حتى دون أن يدرك ذلك. وينتهي في نهاية المطاف إلى السقوط ضحية لعبته الخاصة، والاعتقاد حقاً أنه نقيض ما هو عليه. فيتوصل بأوالية النفي والإنكار إلى تجاهل المشاعر التي هي على علاقة بقلق الخصاء الذي يشعر به، وبما أن هذا القلق يقوم في حضارتنا المعاصرة بدور مهم إلى حد ما في نمو كل رجل، يصبح من المستحيل تقريباً، بالنسبة إليه، أن يجابه ضروب القلق التي تخالجه والتي اعتاد على تجاهلها. لهذا يكون من الصعب عليه أن يعيها ويدركها ويعقلنها. وعندما تتطور عقدة الخصاء إلى حد بعيد، يحمله نشاط الذات الخارقة على الشعور بأن كل ميل عاطفي أو جنسي يصب في الاتجاه الطبيعي للنمو هو ميل متهم وأثيم. وهذه الطريقة في التصرف ضد تطوره ونموه والشعور بالذنب هي غالباً طريقة مولِّدة لعدد كبير من الاضطرابات في الحياة العاطفية.

إن بعض الناس الموهوبين، رغماً عن تأثير الذات الخارقة ومشاعر الذنب التي يشعرون بها، يسعون تحت ضغط كل القوى المقهورة في شخصيتهم، إلى الارتفاع إلى الحياة الطبيعية. وفي مثل هذه الحالات، قد يصل الشعور بالذنب إلى حدة لا تطاق. فالفرد الذي اعتاد على الدفاع عن نفسه ضد قلق الخصاء بسلوك خاص، متجنباً كل ما بإمكانه أن يثيره، يميل أيضاً إلى إبعاد كل ما بإمكانه إيقاظ هذا الشعور بالذنب. ووسائل الدفاع التي يعتمدها كثيرة ومتعددة. وقد تكلمنا على إحداها في الفصل الأول، عندما ذكرنا ابتهال بودلير الذي يصور المعاناة «كدواء إلهي لقذاراتنا». فالمعاناة بكل أشكالها، المقدّرة بحكمة، مستخدمة لإزالة مفعول الشعور بالذنب ولدفع ثمن الخطإ، لإعادة الانسجام والتفاهم مع الذات الخارقة المضطهدة. وندرك بسهولة أن الحاجة إلى معاقبة الذات قادرة على أن تضع في خدمتها كل الأواليات القابلة للإيصال إلى الفشل والمشاركة من جراء ذلك بعلم الأعراض المرضية الذي ندرسه. ويتخذ هذا الفشل مظاهر مختلفة، بحسب الميادين التي يظهر فيها والطريقة

التي بوساطتها يكون الشخص قادراً على تعويضه أو حتى على إصلاح الوضع.

والآن، لنر كيف يمكن أن يكون نمو الفتاة.

إنه على وجه العموم مهدد مثل نمو الصبي تماماً. وقد سبق لنا القول إلى أي حد تعبّر الطفولية الجنسية عندها عن نفسها بالميل إلى الاسترجال واكتساب صفات الذكور. وقد تبيّنا أيضاً أن الأم تحتمل البنت بشكل أيسر بكثير من الصبي، بشرط أن تصبح موضوع حبها وأن تستطيع، فضلاً عن ذلك، تحميلها ميولها غير المشبعة. ويجر هذا التعلق من الأم بالبنت إلى نوع من الخسارة. بالنسبة إلى أنوثة الطفلة التي تسترجل لتكسب حب الأم. وهذه السيرورة المقوّاة أيضاً بتصرف الأب المخنث الذي يعيق، عند فتاته، تطور كل ما من شأنه أن يمثل الأمومة. فعضو الحمل عند المرأة هو الرحم وتطورها، المشابه تماماً لتطور القدرة على الفحولة عند الرجل، يشتمل في الميدان النفسي على مجموعة من الكفاءات والقابليات المميّزة للحياة الجنسية الأنثوية. فالطبيعة الأنثوية تظهر برقة خاصة تجعلها قابلة للتسلم والاستئثار، أي صالحة للاستلام والحبل، في حين أن الرجل مؤهل للاختراق، والقذف والإخصاب. وفي الواقع، لقد تبيّنا أن الفتاة التي تربت في بيئة عائلية مثل هذه يتم عندها ظهور نوع من الخصاء، من خسارة الإمكانات التي تجعلها امرأة. ولا يهدد هذا الخصاء عضو الرجل بل الرحم التي تحمل صدمة الوضع وتعاني في نموها.

إن الفتاة الشابة المسترجلة تبقى غالباً نحيلة وجافة مثل «هراوة». فالاستدارة اللطيفة وهي ميزة تطور الفتاة الجسدي ونضجها تغيب عنها لأنها لن تثير كره الأم فقط، بل بشكل خاص كره الأب. إننا نعرف حالات قام فيها الآباء المخنثون بكل شيء ليرغموا فتياتهم على النحول منذ أن دفعتهن الطبيعة البشرية إلى اكتساب أشكال أنثوية. إنهم يفتتنون فقط بميولهن الذكورية، بقدرتهن على التفكير، أو بقوة ضربتهن المباشرة في لعبة التنس... الخ. والفتاة، من جراء هذا، وتحت تأثير ذاتها الخارقة العائلية، تتوصل إلى الرد على نموها الشخصي بقلق خصاء وخوف حقيقي، من الفعل الجنسي سامحة

بذلك بولادة اضطرابات سنتوقف عندها متمعنين في الفصل القادم. كما نلاحظ عندها أيضاً مشاعر الذنب التي تشل كل مبادرة إلى السير في الاتجاه الصحيح.

إن المظاهر العضوية التالية لهذه الحالة كثيرة ومتعددة. فالرحم يبقى غالباً ركيكة ولا تنمو بشكل طبيعي، كما أنها تميل إلى التحجر وإلى اتخاذ وضع فاسد. وعملية الهضم سيئة، فالأمعاء المحرومة من حيوية طبيعية، تعاني الاسترخاء. وتهبط المعدة في الحوض، وتصبح الكلية بسهولة طافحة. الإمساك مستمر ومصحوب غالباً بالبواسير. والعادة الشهرية مؤلمة، وقد تصل فعلاً إلى الاختفاء والزوال. وفي حالات أكثر خطورة، يظهر كره التغذية ويتجلى برفض الأكل المغذي خشية السمنة. وهكذا قد تتطور حالات على جانب من الخطورة وأحياناً معقدة جداً. وقد رأينا فتيات شابات تركن أنفسهن يذبلن وصحتهن تسوء، بسبب تغذية سيئة، إلا إذا سببن لأنفسهن مرضاً يصيبهن بفقر الدم ويدمرهن كالسل الرئوي مثلاً. ولا ننسى الإشارة بإلحاح إلى مظهر خاص لهذه المشاكل. فالفتاة، إذ تبقى صبياً، لا تحل بشكل عام مشكلتها، ويحدث أنها بهربها بهذا الشكل أمام خطر الخصاء الرحمي وبالتالي الأمومي، تجد نفسها في خضم قلق الخصاء المميّز للحياة الجنسية الذكرية وتعاني من أعراض مرضية مماثلة.

لقد رأينا كيف يمكن أن تتكون قوة دعوناها الذات الخارقة التي تستطيع إجبار المرء على التصرف بشكل مخالف لميوله الطبيعية. ويفسر لنا فهم طريقة تكوّن هذه الذات الخارقة بعض مظاهر القدر التي تستلهمها مثلاً المأساة اليونانية. ففوق إرادة الناس، وعبر الأجيال غير المحددة بزمن قوةما، فإنّ الذات الخارقة لا تثير فقط المرء ضد نفسه، والمرأة ضد الرجل، بل تثير أيضاً الأم ضد الولد. ولهذا السبب نتكلم على عقدة أوديب التي إذ تديرها وتتحكم بها قوانين شرسة، تذكّر بالمفهوم القديم للقدر. ولكن ليس تأثير الذات الخارقة فقط هو الذي لا نفهمه، إذ إن مظاهر أخرى للقدر، مثل ضرورة إعادة انتاج الأوضاع نفسها دائماً، تشق طريقها رغماً عن التعاسة التي قد يشتمل عليها ذلك. وقد سمّى الكتّاب الألمان هذه الحاجة «إكراه التكرار». ولهذا الإكراه ميزة القدر،

الذي يحكم بالفشل على كل الجهود التي يبذلها الفرد الذي يقرر التصدي له. إنه يجعله مسجوناً أبداً في التعقيدات نفسها، ويرغمه على أن يقترف دائماً الأخطاء نفسها. وهكذا يجد الوحي الإلهي الذي قال به القدماء معناه ودلالته. فأحداث القدر ليست من عمل المصادفة ولا من عمل إرادة بعض الأشخاص. بل هي إلى هذا الحد أو ذاك محددة بوساطة هذه القوة التي تتجسد على يد الذات الخارقة وإكراه التكرار.

ويتوجب علينا على الأثر السعي إلى معرفة إلى أي حد تستطيع هذه القوى، القادرة على السيطرة على الأفراد، التأثير في الحياة الجماعية، وكيف نتصرف لمجابهتها ومحاربتها ولتغيير مسيرة القدر عندما تبدو متجهة حتماً نحو الكارثة. وقد سبق أن تكلمنا على تأثير العقلية الجماعية في تكوين الذات الخارقة التي تستطيع ميولها أن تناوىء نمو الأفراد أو نمو أقلية ما، ويلاحظ مثل هذا أحياناً بالنسبة إلى بعض المعتقدات الدينية. فالعقلية البدائية لدى كثير من القبائل الافريقية، مثلاً، تشكل عائقاً أمام التفتح الطبيعي للشخصية وللحياة الجنسية. ففي ما يخص الحياة الجنسية، يظهر هذا الأمر في جميع الحالات التي يرغم فيها الهربُ من ارتكاب المحارم أفراد قبيلة ما على اختيار قرينهم من بين أعضاء قبيلة أخرى، فقبيلتهم محرمة عليهم بشكل مقدس. ومن الطبيعي أن ينتج من ذلك مشاكل مهمة، كما أن بعض الأطعمة تعتبر محظورة بشكل مقدس. وبالنسبة إلى العقليات الدينية البدائية التي نتحدث عنها، يأخذ هذا الأمر أحياناً أبعاداً مهمة ويعبَّر عنه بتشكيل ذات خارقة جماعية لا تسمح للفرد بالوجود إلا تبعاً لها.

وفي ما يتعلق بالذات الخارقة الجماعية، يقدم إلينا تاريخ اليهود مثالاً نموذجياً. إننا نعرف كم كان تطورهم معاقاً من قبل مفاهيمهم الدينية والعرقية ومن قبل مفاهيم العصر الوسيط الذي حرّم عليهم زراعة الأرض والعيش في موضع آخر غير الغيتو[1] الذي كانت أبوابه مثل أبواب السجن تنغلق كل مساء

(١) الغيتو مكان تقيم فيه أقلية منبوذة.

على ساكنيه. كما كانوا مرغمين على ارتداء ملابس خاصة، وعلى إطالة شعرهم بطريقة خاصة لكي يكونوا دائماً معروفين مثل البُرْص أو المجذومين. باختصار، لقد كان اليهود مضطهدين. وقد أثرت هذه الظروف طبعاً في تكوين ذات خارقة للأفراد المنتمين إلى الجماعة اليهودية إلى درجة أن عدداً كبيراً منهم اليوم أيضاً يسعون إما إلى زرع الاضطهاد، وإما إلى تكريس أفضل قواهم لتحرير الأشخاص الذين يعتبرونهم، عن خطإ أو عن صواب، أشخاصاً مضطهدين. لقد حافظوا على وسواس الاضطهاد وهم ينقلونه غالباً إلى بيئة لا تبرره. فالكثير من اليهود، بوساطة ذاتهم الخارقة والحاجة إلى إعادة إبراز الأوضاع العاطفية القديمة، ظلوا عقلياً أسرى الغيتو وقوانينه ولذلك يميلون بشكل لاشعوري إلى إعادة تكوينه في كل مكان، حتى في المكان الذي يستطيعون العيش فيه بسلام في الجماعة التي يشكلون جزءاً منها. ومن المستحيل أن نفهم المشاكل التي تولّدها النزعة المعادية للساميّة، إذا لم نحسب حساب تأثير الذات الخارقة الجماعية في اليهود . وتساعد هذه الذات الخارقة على الاضطهاد وتحدثه عند الحاجة. ولنتذكر كيف يمكن استخدام مشاكل خارجية لإيقاف وإعاقة التطور الموزون للأفراد، وكيف أن معارضته قادرة على التسبب بنزعة طفولية معلنة إلى حد ما وبميل جنسي إلى الأفراد المماثلين، كميل الذكر إلى الذكر والأنثى إلى الأنثى، وهو ميل خفي وقوي إلى حد ما. ويتوجب علينا الدخول في تفاصيل المشكلة لإدراك كل نتائج هذه الظروف، وبشكل خاص تلك النتائج ذات العلاقة بالذات الخارقة اليهودية.

لقد رأينا في الفصل الأول كيف أن فرداً كان قادراً على الارتباط بمن كان نقيضاً له وعلى اختيار عدوه قريناً له، وبعض الأشياء المماثلة قد تحدث عندما يسعى امرؤ إلى الاضطهاد. إذ يصبح المضطهد موضوع حب لاشعوري، بدلاً من أن يكون بالنسبة إليه موضوع كره كما هو طبيعي ومنتظر. فالجنسية المثلية[1]

---

(١) الجنسية المثلية هي ميل الرجل إلى الرجل أي اللواط وميل المرأة إلى المرأة أي السحاق، أي ميل الإنسان إلى من يماثله في الجنس. (المترجم)

الكامنة عند الرجل تعبّر عن نفسها بميل قوي تقريباً إلى أن يكون ضحية بدلاً من منتصر. لقد احتجنا إلى الخبرة التحلفسية[1] لفهم كل دلالة هذه الأوضاع ولتوضيح كيف أن المعاناة تصبح متعة جنسية بشكل خالص. فهذا الحب للألم، الذي يترجم بالاضطهاد أو بهموم المال، هو أحد المظاهر المميّزة للنفسية اليهودية، كما تطورت في الغيتو. وسنعود لاحقاً الى هذا التعلق العاطفي الذي دعاه المتخصصون في هذه المسألة «النزعة السادية ـ الماسوشية»[2].

وسيتوجب علينا أيضاً التنقيب عن علاقات الذات الخارقة الجماعية، مثل ذات اليهود الخارقة، بالذات الخارقة الدينية والذات الخارقة الطبقية. فتاريخ اليهود يعلمنا أنهم لم ينتظروا الغيتو ليصبحوا مضطهدين. فربما كان مضطهدهم الأول هو يهوه، أو على الأصح الفكرة التي كوّنوها عنه. لقد كان يهوه[3] سيداً مرعباً، يلاحق شعبه المختار بأنواع متعددة من العقاب والانتقام، ويريد منعه من الاختلاط بالآخرين. وأعتقد أن من غير الممكن فهم كيفية تكون الذات الخارقة اليهودية من دون أن نحسب حساب هذه المعتقدات التي أدخلوها في ديانتهم.

ولنتصدَّ الآن للمسألة من زاوية أخرى، زاوية الذات الخارقة للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الإنسان. إذ هناك ذات طبقية خارقة تذكر في العديد من وجهات النظر بالذات الخارقة لليهود في الغيتو: إنها ذات الطبقات البروليتارية. فحتى الآن استطعنا التعلل بالوهم القائل إنه يكفي القيام بدراسات أو ربح الكثير من المال لتغيير العقلية والطبقة الاجتماعية بشكل كلي. إن

---

(١) أي التحليلية النفسية. (المترجم)

(٢) النزعة السادية هي الشعور باللذة من جراء تعذيب الآخرين، والنزعة الماسوشية هي الشعور باللذة من جراء تعذيب النفس.

(٣) يهوه، إله اليهود في التوراة.

الإيمـان بالقـدرة الكلية للعقـل والعلم، والجهل الـذي يسيـطر على الإنسـان بخصوص القوى الخفيـة للاشعـور، القادرة على إفشـال العقل والعلم، كـانا يفضيان إلى نوع من الإيمان بالقـدرة الكلية لـلإرادة البشريـة. وإلى بنية هـذا الإيمان يتوجب علينا اليوم العودة للبحث والتنقيب. ولن نستطيع التخلص كما نتمنى من العقلية الطبقية، وعقلية الـطبقة الشعبيـة، وعقلية العـائلة أو الدين. فـالمعرفـة الأكثر انـطلاقاً، مهمـا كـان الـوهم المكـوّن عن القـدرة الكلّيـة أو الإشباعات الحسية التي يقدمها، بدلاً من أن تحرر المرء لا تفيد غالبـاً إلا في تفاقم النزاعات بين شخصيته وذاته الخارقة.

وهذا النزاع هو من الخطورة بحيث إن المرء يستخدم غالباً إيمـانه بسحـر علمه لتجاهل الوضع الذي يمكن أن يوجد فيه في مواجهـة ذاته الخـارقة. إن تجربة علم نفس اللاشعور أفهمتنا هذا الوضع بإظهارها لنا حدود القوى البشرية في مواجهة القدر.

ولنحاول في سبيل إدراك كيفية تكوّن الـذات الخارقـة الطبقيـة أن نعرض ونحلل بنيـة الذات الخـارقة البـروليتـاريـة. ففي الـواقـع ومنـذ قـرون انقسم الأورويبـون إلى طبقات اجتمـاعية تؤلف معـاً الجسم الجماعي. وفي العصـر الوسيط، كان يتم تمييز النبلاء والإكليـروس أو رجال الـدين، والبرجـوازيين، والفلاحين الأحرار والرقيق أو العبيد، فـالبرجـوازية كـانت قد أعلنت ظهـورها المتـأخر نسبيـاً، شيئاً فشيئـاً مـع تـطور المـدن ونمـوهـا، ولم تكن المفـاهيم الاجتماعية في ذلك العهد، والبؤس الذي كانت تعيش فيه أغلبية البروليتاريين الذين نستطيع أن نصنف معهم العبيد ومعـظم برجـوازيي المدن، تتيـح للفرد التحـرر بسهولـة من بيئتـه وتغييـر طبقتـه. إذ لم يكن ذلـك ممكنـاً إلا لأفـراد الإكليروس (رجال الدين) في بداية العصر الوسيط، وهو العصر الذي لـم يكن تنظيم الطبقات الاجتماعية بعد قد بلغ الحدة التي سيعرفها لاحقاً. ففي القرن الثالث عشر فقط أصبح لقب فارس وراثياً ولـم يعد مكتسباً في أرض المعركة. لقد أسهمت المفاهيم الاجتماعية والبؤس المادي في تكوين طبقـة العامـة من الشعب أو الأرذال. وربما لـم تكن هذه الـطبقة مضـطهدة مثـل طبقة اليهـود،

ولكن، مع ذلك، كانت أسيرة وضعها الاجتماعي ومستغلة، ومغرّمة بضرائب عالية وتحظى بمعاملة سيئة في أغلب الأحيان. ومن هنا كان تكوّن ذات خارقة جماعية يحرِّم على الأفراد تغيير وضعهم والتحرر والتفتح، وامتلاك الحق بالحرية لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة أي أنه سهل جداً، ومع نمو الحضارة البورجوازية، قبل العام ١٧٩٢ م وبعده، لم تتغير هذه الظروف والأحوال التي ادعت الثورة الفرنسية تغييرها وقلبها رأساً على عقب، إلا في الظاهر. فقد كان البروليتاريون ممثلين بأغلبية من الفلاحين والعمال المسلّمين دون مقاومة، من جراء فقرهم والنقص في تنظيمهم النقابي، إلى أولئك الذين كانوا يستغِلونهم، رغماً عن الحرية السياسية وحق الاقتراح اللذين انتزعوهما. ووحدهم بعض برجوازيي المدن وكبار الملاّكين، بفضل تطور الصناعة والتجارة، استطاعوا تحصيل الثروات والحلول ببطء في المحل الذي كانت طبقة النبلاء تشغله سابقاً. إن الوضع الحقيقي للطبقات في المجتمع لم يتغير إذاً كما كان يُعتقد، رغم تحوّل الوضع السياسي، بسبب عادات مكتسبة وتأثير الذات الخارقة للأشخاص. إذ لا يكفي الحصول على حقوق اجتماعية ولا أن يكون المرء موهوباً لكي يستطيع تغيير وضعه، إذ يلزمه أيضاً أن يحسن استخدام حقوقه واستعمال مواهبه. وهذا هو ما يحدد الثورة الحقيقية، وهذه هي ميزة تغيير الأشخاص والطبقات خلال تحررهم الاجتماعي.

إن هذه الثورة محكومة بشكل خاص بمستلزمات التطور الصناعي والجماعي، إثر الاكتشافات العديدة التي تمت في كل ميادين النشاط البشري. ففي المصانع نحتاج إلى المهندسين ورؤساء العمال المعدّين والمدرّبين لتحقيق صناعة أجهزة معقدة أكثر فأكثر. وفي المختبرات، يُبحث عن كيميائيين قادرين على اكتشاف مصادر جديدة للذهب. وفي المدارس، يتزايد سعي الأساتذة لإعداد التلاميذ القادرين على إشباع متطلبات الصناعة. وهكذا يتم بالنسبة إلى عدد كبير من البروليتاريين تغيير الطبقة الاجتماعية. وفي كل مكان تخصص منح للطلاب الأكثر موهبة. وفي كل مكان يسعى إلى وضع مصير الجماعات بين أيدي أشخاص مدربين بشكل خاص ومتحلين بالذكاء والعلم

اللذين ننتظر منهما معجزات وخوارق. ولكي تثار حماستهم يكافأون بشكل مادي؛ ويولد من جرّاء ذلك إيمان جديد يميزه الاعتقاد بحسنات التعلم والتثقيف والمال. وفي كل طبقات المجتمع يسعى الأفراد إلى اكتساب هذا التعلم وإلى جني المال، مقتنعين بوصولهم هكذا إلى السعادة. إن عدد الأشخاص الذين يسعون إلى التحرر والانعتاق من طبقتهم الاجتماعية وإلى الفوز بهذه الغبطة المادية والفكرية كبير جداً. ولنضف إلى ذلك أثر التحرر الديني الذي يحدث عند البورجوازيين باسم العلم، وعند البروليتاريين باسم أخوّة إنسانية جديدة تدعى اشتراكية. لكن هذه الثورة تصبح بالنسبة إلى الناس مصدراً للعديد من أنواع الفشل من جراء كونها تتم بشكل مخالف للذات الخارقة البروليتارية التي تكلمنا للتو عليها.

إننا نعرف أن الذات الخارقة للطبقة الاجتماعية متأثرة بقوة بالمعتقدات التي تفعل فعلها في نمو الأشخاص. فبرغم النضالات العنيفة التي خاضتها الثورة الفرنسية، فإن تأثير المعتقدات بقي مسيطراً في الحضارة الغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً. وليس إلا الإيمان بالقدرة الكلية للعقل الخالص ولإرادة البشر هو الذي أرغم الناس تحت ضغط التطور العلمي، وبشكل خاص النخبة من جماعاتنا، على التخلي عن معتقداتهم القديمة. صحيح أنهم في معظم الحالات قد استبدلوا المعتقدات القديمة بمعتقدات جديدة، دون التوصل دائماً إلى التخلص من الحاجة إلى الإيمان بمعتقدها ودون تطوير عقلية علمية حقيقية. وتمثل هذه العقلية في أيامنا الحاضرة أيضاً استثناء، ولا تدرك جيداً دون معرفة علم نفس اللاشعور الضروري للإنسان لكي يتيح له التغلب على النزاعات مع ذاته الخارقة، وهي النزاعات الناجمة عن تحرره من التقاليد.

ولكي نفهم المسألة المطروحة بهذا الشكل جيداً، نوردُ مثلاً يوضح كيف يمكن أن يظهر تدخّل الذات الخارقة للطبقة ويحتّم الفشل. فهذا رجل أتم دراساته بفضل كاهن القرية. وقد كان والده عاملاً في مصنع، وأمه حاجبة في بناء، وإخوته وأخواته ظلوا عمالاً بؤساء إلى أن استطاع تحسين وضعهم. وعندما أنهى دراسته انطلق إلى باريس حيث عمل في متجر كبير كموظف

تجـاري. وقد جعله انضبـاطه في العمـل وكفاءتـه محط الأنظار، فعُهـد إليـه بمسؤوليات أكبر فأكبر. وسُمح له بـالتردد على منـزل رئيسه حيث التقى ابنتـه الوحيدة التي أُغرم بها. وقد رفض والداها في بدايـة الأمر فكـرة زواجهما، ثم أخيراً قبلا به. وبوساطة هذا الـزواج انضم إلى عائلة تمتلك مؤسسـة تجاريـة مهمة. فبدأ بالاحتفاظ بوظائفه القديمة مع حصوله في الوقت عينه على مكافآت أكثر بكثير مما في السابق. وخـلال بعض الوقت لم يبدُ أن الزواج الـذي تم بسعادة وفرح قد أثر كثيراً في طباعه. ثم ولد لـه صبي، وبهذه المنـاسبة عُهـد بإدارة الأعمال إلى الأب الشاب، الأمر الذي أمَّن له إيراداً مهماً، وبدءاً من هذه المرحلة تغير كل شيء، مع أن أي شيء في الظاهر لم يبدُ أنه قـد تغير. لكن الأطباء المشاركين في الحياة الحميمة للعائلة وحدهم يستطيعون معرفة الـواقع وتقديره.

أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن هذا الرجل قد أصبح محسناً إلى الإنسانية. إذ شارك في عدد كبير من أعمال الإحسان ذات الطابـع الديني، وأعـان ماليـاً مستـوصفات ودوراً لـلأيتام وأديـرة وكنـائس قـرويـة، وأنشـأ مؤسسـة للتـأمين الاجتماعي لموظفي شركته، واستمر يكسب المال أكثر فأكثر. ولكن، في حياته العائلية، نجد الفشل العاطفي مسيطراً بشكل لا يرحم. فسلوكه تجاه زوجته، التي كانت واحدة من الذين يعرفون طباعه الحقيقية، صار احتمالـه مستحيلاً. إنه يرفض منحها المال الذي تحتاج إليه في حياتها الخاصة، وفي الوقت نفسه يقدم إليها مجوهرات تعادل ثروة. وتباعدت علاقاتهما الجنسية، وتحـولت إلى علاقات صعبة من جراء عجز كان يمنعه، في هذا الميدان أيضاً، من أن يحقق لها أقل سعادة. ولتمويه هذه الأحوال، وإخفائها وإلقاء المسؤولية على زوجته، اتخذ عشيقة كان يدّعي أنـه يحظى معهـا بحياة جنسيـة طبيعية. فيمـا كان في الحقيقة يتعهدها ويرعاها ببذخ وإسراف دون أن يحصل لقاء ذلك على علاقات جنسية معها. وكانت زوجته، التي هي على علم بكل ما يجري تغضّ الطرف عن ذلك آملة أن يتغير يوماً ما. إلا أنها اكتشفت ذات يوم عند زوجها كتباً جنسية منحرفة تصور أعمال جلد وتعذيب ففهمت أن هذه الأمـور ضروريـة لإثارتـه.

وزيادة على ذلك اعترف لها أنه غير مؤمن في الحقيقة بل يتظاهر بالإيمان تجاه الجماهير، وأن المخدرات وحدها هي التي تتوصل إلى تهدئة القلق الرهيب الذي يلاحقه في كل مكان، وهو يتعاطاها سراً، بصحبة عشيقاته اللواتي يزددن عدداً. فانفجرت الأمور بين الزوجين واندلعت المشاجرات العنيفة التي كانت دلالتها مفهومة وواضحة لأي شخص يعرف ميل بعض الرجال إلى وضع زوجاتهم في خدمة الحاجة إلى العقاب والتعذيب.

وكبر طفلهما في هذه البيئة، ونقلت الأم كل مشاعرها إليه. لكنه نما بشكل سيىء فتعرّض على الدوام للضرب والمعاقبة. ولم ينجح في متابعة دراسته، وفشل في امتحاناته، وعندما وصل إلى سن البلوغ، بدا مختلاً. فكان يختفي ويغيب عن المنزل، ويعاشر أوساطاً مشبوهة ما لبث أن التقى فيها ممثلة شابة عوّدته على تعاطي المخدرات. ثم تزوجها رغم رفض والديه وخاصمهما. وهكذا كان وحيداً تجاه العالم، ومع عدم حصوله إلا على مبالغ شهرية ضئيلة، أخذ يرتكب أعمالاً مشينة، وفي نهاية المطاف، تركته عائلته يواجه قدره معتبرة إياه مفقوداً أو ميتاً. وقد قام الزوج بكل الوسائل التي يملكها بمنع زوجته من الطلاق، وضحى بمبالغ كبيرة لرشوة رجال الأعمال الذين كانت زوجته تعهد إليهم بأموالها. فدفعها ذلك، وخاصة بعد خسارة ولدها، إلى انهيار عصبي خطر، كما خالجتها أفكار بالانتحار، وما لبثت أن فرت من المنزل الذي اعتبرته مرعباً. إننا لن نلح ونتوقف أكثر من هذا على تفاصيل أخرى من هذا الفشل العاطفي الذي يظهر لنا التواطؤ الحاصل، عند هذا الرجل، بين الحاجة إلى التطور وتغيير طبقته الاجتماعية وتأثير ذاته الخارقة.

ومن جهة أخرى، فإن حالات من هذا النوع أكثر تواتراً مما نعتقد، إذ ليس من المصادفة أن يكون ذوق المحدثي النعمة قد أصبح شيئاً مميزاً جداً لعقلية كاملة، لطائفة كبيرة من الأشخاص.

وهناك ذوات طبقية أخرى مثل الذات الخارقة الأرستقراطية التي لن نتطرق إلى الكلام عليها الآن. أما الأمر الواضح والحتمي فهو أن إجلال تقاليد ما، عبر عدة أجيال، يتجسم في ذات خارقة خاصة، تضع الأفراد في خدمتها بقوة

تقريباً. إلا أن تأثير الأنا الخارق الأرستقراطي يبدو لي معقداً جداً بحيث أنه تقتضي دراسة أكثر عمقاً. إلا أن نطاق هذا الكتاب وحدوده لا تسمح بها.

إننا لن نفهم بشكل كافٍ كل ما يشارك، في بعض الحالات، في صنع وتكوين هذه الذات الخارقة وما يجعل منها مصدراً للانحطاط والانحلال، إذا لم نحسب حساب تأثير القانون البيولوجي، قانون الإشباع والرضى الذي ربما أهملناه كثيراً في أبحاثنا. ألا نرى الثمار الأكثر نضجاً التي احتاجت إلى أشهر لتكوين طعمها اللذيذ وعطرها، تقع في الوحل وتسلّم كنوزها للانحلال والتعفن، والبذرة التي تحتوي عليها إلى المجهول الخطر؟. إن الأشخاص أنفسهم إذ يصلون إلى قمة إمكاناتهم، ألا يكونون معرضين للضياع وعاجزين عن المحافظة على أنفسهم في قمة نضجهم؟ إنهم لن يتجددوا إلا إذا بدأوا من جديد دورة الأحداث التي سمحت لأجدادهم بالوصول إلى درجة رضاهم الاجتماعي. وهذا القانون قادر على أن يجعل من بعض أشكال الفشل شرطاً لازماً لانحلال عائلة أو جماعة لا تستطيع النجاة والصمود إلا بالعودة إلى نقطة انطلاقها وبتكرار نموها المتصاعد، بعد أن تكون قد مرت بمرحلة من السقوط. وسيكون هذا مظهراً مهماً من القدر البشري الذي يلاحق بيسر وعسر أهدافاً خارج الإرادة الفردية للأشخاص.

الحياة الجنسية والليبيدو[1]

إن ميدان الحياة الجنسية عند الإنسان ميدان من تلك الميادين التي ظلت مدة طويلة محرمة أمام الأبحاث العلمية. فقبل التحليل النفسي كان حدس بعض كبار الكتّاب أو الفلاسفة قد سمح بتحسس أهميتها وإدراك أبعادها. فبالنسبة إلى أفلاطون، تمتزج الطاقة النفسية مع الإيروس[2] كما أنشد العديد من الشعراء. وقد ذهب غوته[3] إلى أن العديد من مساوىء المرأة وأضرارها يمكن أن يشفيها الحب. وشدد شوبنهاور[4] ونيتشه[5] على أهمية الحياة الجنسية في تطور الشخصية الإنسانية. ولكن، حتى هذه السنوات الأخيرة، وتحت تأثير المفاهيم الدينية والاجتماعية، ظلت مسائل الحياة الجنسية متعذرة الإدراك بالنسبة إلى معظم الناس، فحتى في أيامنا الحاضرة، يجهل الكثير من الأطباء مسألة عجز الرجل وبرودة المرأة، الأمر الذي يمنعهم من امتلاك أفكار جازمة في هذا الموضوع. فيحمّلون العادة السرية كل الجرائم عندما لا يكون الذي يتهمونه هو داء السفلس.

---

(١) الليبيدو طاقة حيوية شبقية في جوهرها تتمثل فيها غريزة الحياة.

(٢) الإيروس غريزة الحب.

(٣) غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) أشهر الكتّاب والشعراء الألمان مؤلف مأساة «فاوست».

(٤) شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) فيلسوف ألماني ذو ميول تشاؤمية.

(٥) فريديريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف ألماني نادى بالقوة وأثّر في العنصرية الهتلرية.

إن أسباب هذا الجهل متعددة. وفي عصرنا المسمّى العصر العلمي، نجد أن سطوة بعض المعتقدات ما تزال كبيرة في روح الجماعات، ويتم هذا بوساطة الذات الخارقة الجماعية، كما رأينا في الفصل السابق. ومن الجدير بالذكر أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان من المستحيل على الطبيب في الأرياف الاهتمام بأمراض النساء أو بالولادة. فهذه الأمور هي، لأسباب أخلاقية، من اختصاص الدايات. ولم يتم إلا في القرن التاسع عشر قبول الطبيب في المخدع العائلي وتوصله إلى اختراق أسراره. ومع ذلك ظلت مفاهيمه مضللة بالأفكار المسبقة لذلك العهد. ورغم الأفكار الجريئة التي طلع بها بعض الأدباء أمثال موسيه[1]، أو جورج صاند[2] أو بلزاك[3]، فقد ظلت مفاهيمه عند سطح المسألة وظل غير قادر على التصدي لها في العمق. فالجنسانية المثلية في عمل لأوسكار وايلد[4] كانت جريمة. وفي فرنسا، تعامل القضاة مع ديوان أزهار الشر لبودلير[5] ككتاب خلاعي. ولكن بتأثير من عمل لبودلير وعمل لفرلين[6]، ولاحقاً عمل لبروست[7]، ولجيد[8] ولكوكتو[9] وللعديد من الكتّاب الآخرين

---

(١) ألفرد دو موسيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) شاعر فرنسي وكاتب رومنطيقي له دواوين كثيرة.

(٢) هي أورور دوبن، بارونة دودفان المعروفة بجورج (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) كاتبة فرنسية عاطفية واجتماعية وريفية.

(٣) أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠) كاتب غزير الإنتاج صوَّر واقع الحياة الفرنسية.

(٤) أوسكار وايلد (١٨٤٥ ـ ١٩٠٠) كاتب وشاعر انكليزي.

(٥) شارل بودلير (١٨٢١ ـ ١٨٦٧) شاعر فرنسي ترك أكثر من ديوان وترجم قصص إدغار ألن بو.

(٦) بول فرلين (١٨٤٤ ـ ١٨٩٦) شاعر فرنسي، كان تأثيره كبيراً في المدرسة الرمزية. له عدد من دواوين الشعر.

(٧) مارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) روائي فرنسي مؤلف الرواية الشهيرة «بحثاً عن الزمن المفقود».

(٨) أندريه جيد (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) كاتب فرنسي أثر كثيراً في الأدب المعاصر.

(٩) جان كوكتو (١٨٨٩ ـ ١٩٦٣) كاتب ومخرج أفلام فرنسي.

أيضاً، الذين، على غرار روسو[1]، وضعوا مسائلهم الشخصية في مركز النشاط الأدبي لعصرهم، باتت المسألة الجنسية أقل فأقل غموضاً.

وبموازاة هذا التطور في الأدب، سعى العلم إلى الدخول إلى الجوهر الحميم للأشياء. فقد اعتاد الإنسان على غض النظر عن المفهوم التقليدي للمادة ليتبنى مفهوم القوى الديناميكية. فالمادة، بأشكالها المختلفة ومظاهرها المتنوعة، تعتبر التركيب الموقت والعابر تقريباً لهذه القوى. إذ إن الاكتشافات الأخيرة للكيمياء والفيزياء قد أفضت إلى المفهوم الدينامي للقوى غير المحسوسة وغير المرئية التي تشكل المادة والتي لا يمكن قياسها إلا بوساطة تأثيراتها ونتائجها التي عبرها تكشفت لنا القوانين التي تحكمها وتحددها. وقد تشكلت كذلك مفاهيم كونية جديدة ينبغي أن تدفع الإنسان إلى البحث، في ما وراء التجسيدات الحية للأجسام، في نشاط القوى المماثلة لتلك التي ستكون المادة المسماة «ميتة» تجسيداً لها. وهذه المفاهيم، سبق أن وجدناها في الأعمال الأولى التي ظهرت في علم نفس اللاشعور، كما في كتاب المؤلف الألماني شوبيرت عن صراعات الروح، الذي ظهر في العام ١٨١٥، وفي كتاب شرنر عن الأحلام، الذي ظهر في العام ١٨٦٤.

لقد كانت التربة مهيّأة إذاً للمفهوم الفرويدي عن «الليبيدو». وجميع الأفكار التي كوّنها القرن التاسع عشر عن الإنسان تمَّ التخلي عنها تقريباً. فاعتبر الطفل البريء والطاهر لأجدادنا كائناً تحركه الغرائز المتعددة الأشكال وغير المنظمة التي تجعل منه كائناً منحرفاً، مثله مثل الأفراد الذين يمتلكون حياة جنسية عنيفة ومضطربة. إن دراسة النفس الإنسانية تقع اليوم في مركز الاهتمام العام، تحت ضغط الأبحاث التحلفسية[2] التي تقود إلى مفاهيم جديدة للحياة

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كاتب فرنسي شهير أثر في الثورة الفرنسية والحركة الرومنطيقية.

(٢) أي التحليلية النفسية.

الجنسية. ولا نستطيع، اليوم، قياس مداها ولا نتائجها، لكننا نعتقد أننا نستطيع القول إن هذه المفاهيم هي في عمق توجه جديد للحضارة المعاصرة ومعرفة الحياة.

ومن المستحيل علينا أن نصف بالتفصيل كيف تكوّنت هذه المفاهيم الجديدة. ونتمنى على المهتمين بشكل خاص بهذه المسائل العودة إلى أعمال مدرسة فرويد ويونغ[1]، ثم إلى أعمال جونس الذي يلخّص في كتابه **أوراق في التحليل النفسي** تطور هذه الأفكار. وفي كتاب **نسبية الحقيقة** إسهام في توسيع المسألة، وخاصة في ما يختص بنظرية المعرفة.

لقد حاولنا في الفصل السابق أن نوضح الدور الذي تقوم به العائلة في تطور الحياة الجنسية لفرد ما ونموها عنده. فلنتصدَّ الآن لمفهوم الليبيدو كما يبدو لنا اليوم.

إن الليبيدو هو الطاقة النفسية التي يمتلكها الإنسان لبناء جسمه، وبالموازاة مع هذا التطور، للقيام بتكوين شخصيته. وبعبارة أخرى، ومن وجهة نظر علم نفس اللاشعور الجديد، إن الكائن البشري كما يظهر في ظروف حضارتنا وأحوالها، سيكون نتاج تركيب رحمي يستلزم استهلاك طاقة كبيرة. وسيتم هذا التركيب في نطاق إمكانات تطورنا، ومع عدد ما من البدائل والمتغيرات، ولن يستطيع حتى الآن، وفي أي حال من الأحوال، تجاوز بعض الحدود. إنه يمتلك كنقطة انطلاق الفعل الجنسي للأهل الذي يحدد تكوّن الثمرة البشرية التي يمثلها الطفل. فالولادة لا تحطم الروابط التي تصل هذه الثمرة بالأم. إذ يتواصل نموها متوازياً مع نمو الإدراك. وللحواس نصيبها في ذلك حتى لو كانت تجلياتها ليس لها طابع جنسي بالتحديد. إذاً، هناك منذ بداية هذا التطور تبادل بالانفعالات والإدراك بين الطفل والأهل. وبوساطة هذا الإدراك

---

(1) كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) عالم نفساني سويسري وأحد مؤسسي علم التحليل النفسي.

يؤثر هؤلاء الأهل فيه لتكوين شخصيته. حتى نخال أن هناك تبادلاً لليبيدو بين الأهل والطفل، فالرباط النفسي الذي يجمعهم يمثل رباطاً ليبيدياً.

فالكلمة ليبيدي هي التي استبعدت لفظة «ليبيدو»عند الكثير من الفرنسيين، لأن الكلمة المشابهة ليبيداوي تستخدم للتعبير عن معنى آخر اكتسب دلالة محقِّرة. وقد اقترح بيشون لفظة «جاذبية» للحلول محل لفظة «ليبيدو»، لكنها لم تحظ بالكثير من المؤيدين، فيما دخلت لفظة «ليبيدو» في اللغة والتعابير المتداولة.

فالروابط التي يتوجب على الفرد إقامتها مع محيطه متعددة ويتم إيجادها بوساطة قطاعات جنسية مختلفة تتطور بمستوى الإدراك. فيتعلم الفرد أن يستهلك طاقته الليبيدية أو يبادلها بطريقة متنوعة لكي يؤمن وجوده أولاً، ووجود النوع بعد ذلك. ويتم هذا التبادل للطاقة الليبيدية عند الرضيع بشكل أساسي بوساطة القطاع الفمي في كل مرة يرضع فيها. فنقول إن الليبيدو في المرحلة الفمية من تطوره، وبعد عمر ستة أشهر تقريباً، يظهر قطاع جنسي آخر، دون أن يستبعد القطاع الفمي كوساطة للتبادلات الليبيدية. إذ يبدأ الطفل بالاهتمام بما يفعله، وبتعليمه النظافة، يصبح القطاع الشرجي وساطة مهمة للتبادلات العاطفية بين الأم والطفل. ويضاف إلى هذين القطاعين على الأثر قطاع ثالث، قطاع تناسلي يثير اهتمام أجزاء مختلفة من الجسم أولاً ليتموضع على الأثر في مكان الأعضاء التناسلية. ومع نمو الطفل يكتسب القطاع الجنسي أكثر فأكثر شيئاً من الأهمية، ثم نصل إلى المرحلة القضيبية لليبيدو، وتقوم هذه المرحلة بدور مهم عند الجنسين، إذ تبدأ الفتاة الصغيرة بنمو مشابه لنمو الصبي قبل أن تنخرط في اتجاه خاص بها. وتمثل كل مرحلة من مراحل هذا النمو نمطاً من التبادل الليبيدي يقوم به الفرد مع محيطه. ولهذا السبب نتكلم على ليبيدو فمي وشرجي وتناسلي بحسب طريقة استهلاك الليبيدو.

لقد وُجِّه الكثير من النقد إلى لفظة «شرجي» بسبب طابعها المباغت، على الأقل لأولئك الذين لم يتآلفوا مع هذه المسائل. وقد تم التساؤل أحياناً عما إذا لم يكن من الأفضل اختيار لفظة «استثاري» التي اقترحها بيشون ولافورغ، أو

لفظة «هضمي» أيضاً. لكن التجربة العيادية أظهرت، في الواقع، أن في المرحلة الشرجية من نمو الليبيدو، مصالح ذات طابع شرجي ونمائطي تسود في البحث عن إشباعات ليبيدية. وسنصل إليها بعد قليل. أما الآن فسنحاول وصف ما يميز، على المستوى النفسي، كل مرحلة ليبيدية.

أما في ما يتعلق بالمرحلة الفمية، فإن سلسلة الإمكانات للتبادلات العاطفية محدودة بالضرورة. فالرضيع يتعلق بأمه أو ببديلها. وهو عاجز، بمبادرته الخاصة، عن الدفاع عن نفسه. فيخلق هذا الارتباط عدوانية مهمة كلما كان الشخص الذي يحتاج إليه غير حاضر. ولكن إذ لا يعرف ماذا يفعل بها، ينخرط في البكاء مستهلكاً إياها، ويثور ويهاجم نفسه في أكثر الأحوال، فهو لا يملك أي مخرج آخر. ويبدو أن هذا الأمر يتغير مع ظهور المرحلة الشرجية. فبدءاً من هذه اللحظة، تختار العدوانية أهدافاً، ومع بداية ظهور الأسنان تستطيع الانصباب على أشياء خارجية. فلذة التجميع والعجن وتحويل كل شيء إلى جسم مهروس لا شكل له وقابل للتمثل والهضم، مميزة لهذه المرحلة. وتقوم الاهتمامات البرازية بدور هام، فكل رائحة برازية، بدلاً من إثارة النفور والاشمئزاز، تشكل جاذبية. ويظهر إصرار على هذا الاهتمام لاحقاً، عند بعض المنحرفين، على شكل ميل لكل ما هو نتن ومشوه وعفن.

وفي المرحلة الشرجية، تصبح سلسلة الإمكانيات العاطفية أكثر كبراً. إذ يمتلك الفرد طاقة عدوانية تتيح له مهاجمة الأشياء الخارجية، مع الحاجة إلى أن يجلب لنفسه كل ما هو أهل للاستسلام له. ومع الوقت تتوطد معرفة ما بالأشياء التي تنقسم إلى فئتين: الأشياء التي تستسلم وتلك التي تعصي. ومن بين تلك التي تستسلم وتطيع نزوة طفل، أطراف الجسم. وتجر لذة إظهار العدوانية إلى الحاجة إلى ممارسة قوته لغاية وحيدة هي التعبير عن نفسه. وتظهر هذه الحاجة ويعبَّر عنها بوساطة المظاهر الأولى للإرادة عندما يثابر المرء في اتجاه خاص. وبفضل إرادته يستطيع امتلاك أطرافه وتعلّم استخدامها، الأمر الذي يتطلب تناسق حركات الجسم، وهو تناسق ضروري لبلوغ هدف ما والبقاء عنده. إلا أن إمكانات التبادل في هذه المرحلة محدودة أيضاً. إذ لا يهتم الفرد إلا بما

يستطيع جلبه لنفسه. فيضع نفسه في مركز الكون، فهو استئثاري ولا يستطيع إدراك شيء إلا نفسه أو ما يشبهه.

فلدى الطفل في المرحلة الشرجية ميل إلى الإمساك. وتظهر هذه الطريقة في الحفظ أيضاً، بشكل متناقض ظاهرياً على المستوى النفسي عبر ملكة التعلم بحفظ المادة النفسية التي تمّ تمثلها. وهكذا تتطور الذاكرة بوساطة ملكة تشكيل ذكريات مع انطباعات محفوظة ومتمثلة بوساطة الحياة النفسية. فلن تكون الذكرى إذاً شيئاً آخر يختلف عن تأليف من الأحاسيس التي تتحقق مع شيء من الليبيدو خلال تجربة سيبقى المرء مرتبطاً بها. وهذا التأليف يمكن أن يستحضر، ويعالج في موضوعه ومادته فيما يستطيع الليبيدو دائماً أن يكون من جديد على اتصال بهذا التأليف عندما يتم الشعور بالحاجة إلى تذكير الأحاسيس المعاناة لجمعها وضمها إلى أحاسيس أخرى، ومقارنتها في ما بينها، وتكوين فكرة منها. فالرابطة التي ستربط هذه التداعيات ستكون بدورها رابطة ليبيدية. ويستلزم أن تكوّن مثل هذه التآليف، وبشكل مقبول: طاقة نفسية. وانطلاقاً من تدخل الإرادة والذاكرة تتكون بهذه الطريقة العناصر الأولى للشخصية. وهذه الشخصية، في المرحلة الشرجية، لا تبلغ تماماً المفهوم الواضح للذات.

إن الذات تمايز للأنا، كما أن هذا ينبثق من الجملة «أرى نفسي». فالأنا يمثل الشخص، نفسياً كما جسدياً. ويبدو أن مفهوم الشخص، وبالتالي مفهوم الأنا، يتكوّن أولاً، أي مفهوم ما يشكل أو لا يشكل جزءاً منّا. فممارسة الرغبات الليبيدية في المرحلة الشرجية اختيارية بشكل قوي، وكما سنرى لاحقاً، مخربة جداً وجنسية شبقية. فما يميّزها بشكل واضح هو القساوة التي تعبّر بها عن نفسها عدوانية الفرد. وقد تطلق رؤية الآلام والتعذيب عنده متعاً حقيقية، وتفسح في المجال لحاجة تُشبع أيضاً عبر تدخل المخيلة أو الحلم. فالقساوة التي تظهر في القصص التي يرويها الأطفال معروفة أيضاً من الجميع.

وفي المرحلة الشرجية من الشخصية لا تستطيع المعرفة، بالبُعد الذي نعطيه لهذه اللفظة، التحقق أيضاً بشكل طبيعي. غير أن الإنسان يحتاج إلى المعرفة، وليس ذلك إلا ليقي نفسه من القلق الذي يوحيه له التحقق من وجود

قوى مناقضة له ولا تخضع لإرادته. وهو إذ لا يستطيع أن يدرك شيئاً غير ذاته، ينسب إلى القوى والأشياء التي تحيط به، والتي تفلت منه معرفتها العقلية، طريقته الشخصية في الشعور والإدراك. باختصار، إنه يمنح الأشياء شخصيته وحاجاته ورغباته، ويعتقد أنها تماماً كما يحس ويشعر. ونخال أنه يُسْقِط مفاهيمه، وأن طريقة معرفته هي طريقة الإسقاط. ويلاحظ هذا الإسقاط أيضاً عند البدائيين في مرحلة الفكر الإحيائية(١).

وتفيدنا الأثنولوجيا(٢) أن المرء في هذه المرحلة يؤمن بالسحر. فماذا يمثل السحر في رأينا؟ إنه وسيلة لمكافحة القلق الذي يثيره فينا خطر ما، ليس بالإلغاء العقلي للخطر، بل بالتأثير فقط في التصور الذي نكوِّنه عنه. فإذا ما شعر أحدنا مثلاً بأنه مهدد من قبل قوة سحرية، فإنه يدافع عن نفسه باستخدام مضاد للسحر يؤمن بقوته وفعاليته، حتى حين يستمر الخطر الذي يهدده بالوجود فعلياً. فبالإيمان بمضاد السحر يلغي ببساطة المفهوم أو التصور الذي يكوِّنه عن الخطر، فضلاً عن القلق الذي يتصاعد منه. إنه يضع، كما يُرى ذلك أحياناً، بعض البراز على جرح لمكافحة خطر سوء يعزوه إلى تأثير قدرة سحرية. ويعتقد أن هذا الخطر يزول بممارسات هي في الواقع لا تستطيع إلا زيادته ومفاقمته.

لماذا يوجد هذا الإيمان بالسحر؟ إن الفرد يعوّض شعوره بالدونية، ويقصي القلق الذي يسببه عبر شعوره بقدرة كلية. وبإسقاطه يعزو هذه القدرة الكلية إلى أشياء، الأمر الذي يجر إلى الخوف من هذه القدرة الكلية في نطاق ما تستطيع التأثير فيه. فالإيمان بقدرته الكلية سيظهر كذلك بالخشية من قوى سحرية تحرك الكون كما هو مدرك في هذه المرحلة من الفكر.

وبحسب الأفراد والحضارات التي تشكلهم والتي يشكلونها، يتجسد حول هذه المحاور للشخصية النشاط الأساسي النفسي للأشخاص في جميع

---

(١) الإحيائية نزعة ترى أن للموجودات الطبيعية أرواحاً تحركها.

(٢) الأثنولوجيا علم يبحث في أصول السلالات البشرية.

الحالات التي لا تسمح لهم ظروفها في الخروج إلى نمط آخر من الفكر. ويُترجم هذا باعتقادات سحرية أو بتنظيم اجتماعي مميّز للقبيلة البدائية. وبالمقابل يستطيع فرد مكبوت، منتسب إلى حضارتنا أن يتعلم على الوجه الأكمل التصرف ظاهرياً مثل كل الآخرين. ولكنه في الواقع، ولاشعورياً، يبقى في مرحلة من تطوره ومن فكره، ترغمه على البقاء، من غير علمه، أسير معتقدات ومفاهيم بدائية. وينبغي لكي نفهمه أن نتآلف أكثر مع التطور اللاحق للشخصية. ذاك التطور التالي للمرحلة الشرجية والمشروط بظهور التدرج التناسلي لليبيدو. وسنتطرق إلى ذلك لاحقاً، أما الآن فلنكتف بتوضيح أن تنافرات من هذا النوع تستطيع إرغام الإنسان على تعليم وثقافة متقدمين جداً ظاهرياً، وعلى الاستسلام إلى ممارسات يعرف هو نفسه أنها خرقاء كما نلاحظها غالباً في الوساوس وعُصابات الفشل.

ففي الوسواس مثلاً، قد يمتنع إنسان ما، أثناء تسلُّقة سلماً، عن تخطي أقل من ثلاث درجات في كل خطوة خشية أن ينهار المنزل. إن الممارسات الوسواسية تنكشف عند التحليل كأنها محددة من قبل الإيمان بالسحر. ومهما كانت المفاهيم الدينية أو العلمية لدى فرد موسوس، فإنه لا يستطيع الرد على الواقع بشكل مغاير للفكر السحري. إذ يُظهر التأثير المسيطر للذاتية الشرجية على شكل حب ذاتي مفرط، أهمية مبَالغ فيها منسوبة إلى الشخص، وحاجة إلى الحذر وحماية النفس من كل إصابة وكل خطر بوساطة ممارسات سحر احتفالي. وفي ظروف حضارتنا ومعطياتها يظهر هذا السحر عبر زهو وتأثير واضحين، بوساطة نزعة وسواسية مدققة في لمس الأشياء وفي العلاقات مع الآخرين، وعبر ميل بارز إلى حد ما إلى تجميع المال أو أشياء تمثل قوة ما. ويجرّ حب الذات المفرط إلى تصور خاص للعدالة ولطبقات المجتمع. فلممارسة السلطة عند مثل هؤلاء الأشخاص الذين يمتلكون مسؤوليات أو وظائف عامة حكومية، هدف رئيسي هو تأمين المستلزمات الملحة لشخصهم الذي يحكمه ويسيطر عليه حب الذات هذا. فالحاجة إلى ممارسة السلطة تظهر غالباً باكتساب بلاغة خاصة عند بعض السياسيين أو الخطباء الذين بالنسبة إليهم

كل الحجج جيدة للتأثير في جمهورهم ولإبراز وجهة نظرهم الخاصة.

إن دراساتنا تظهر لنا أن تطور المـرحلة التناسليـة يقتضي إعداداً طـويلاً، ويحتم جزئياً إعادة سبك للمحاور البدائيـة للشخصية كمـا تكوّنت سـابقاً. في حين أن المـرء في المرحلة الشـرجية يسعى إلى إدخـال شيء من النـظام إلى انطباعاته، محاولاً إعادة كل شيء إلى صيغة بسيطة مثل الصيغة التي يزوّده بها الإسقاط، وخلال المرحلة التناسلية، نجد الانسجام الذي نجـح في نشره في عالمه مهدّداً من قبل الميول الجديدة التي ولّدتها الغرائز التناسلية في تصوراته. وتتأسس في المرحلة الشرجية أطر صارمة وتناظرات ومعادلات وصيغ شعائرية ترجع إليها جميع الإدراكات والتعابير العائدة إلى الشعور. ويبدو أن هم رعاية حب الذات الذي يخالج كل فرد والدفاع عنه ضد القدرات السحرية في أساس التنظيم الاجتماعي المدرك في هذه المرحلة. ومع تطور الغرائز التناسلية خلال تكوُّن عقدة أوديب، يميل الطفل إلى الدخول في تنافس عاطفي مع من يماثله في الجنس من والديه، بسب الارتباط الليبيدي الذي يتوطد مع من ينتمي إلى الجنس المناقض له من والديه. لكن هذا الواقع، البسيط جداً في الظاهر يسبب تعقيدات عديدة، ويخضع الشخص لمحن كبيرة، وضرورية لتطور الشخصيـة البالغة الراشدة.

إن منافسة الصبي العاطفية مع والده ومنافسة الفتاة مع والدتها يتسببان عند الجنسين، كما رأينا سابقاً، قلقاً ذا طابع خـاص: قلق الخصاء. وللدفـاع عن النفس تجاهه، يخالف المرء تطوره الجنسي، الأمر الـذي يؤدي في الحالات المـرضية التي يستمـر فيها هـذا التناقض، إلى قلب حقيقي للحيـاة الجنسية. ويبقى هذا القلب طبيعياً طوال الطفولة، ويظهر مصحوباً بحساسية فعليـة حتى سن المراهقة، وغالباً إلى ما بعدها، بشكل ميل إلى الجنس المماثل، بشكل خفي أو ظاهرٍ واضح. وعندما تتحقق الشخصية أو ثقافة مـا في هذه المـرحلة العاطفية، يحتّم هذا القلب تطوراً خاصاً للفكر نود أن نسميه مع فريزر: الفكر الديني في مواجهة الفكر السحري التابع للمرحلة الشـرجية في الشخصيـة. وفي حين أن السحر في هذه المرحلة له كهدف الدفاع عن الكائن ضد القوى

الكلية القدرة التي يعتقد أنها تهدده، نجد في المرحلة التناسلية أن التنافس مع من هو من جنسه من والديه يؤدي به إلى مفهوم شخصية أخرى، أرفع منزلة من شخصيته. ويدل هذا المفهوم الشعوب على وجود القوة الإلٓهية ويقودها إلى الإيمان. وليس على مظاهر هذه القوة الإلهية أن تُكافح بوساطة طريقة سحرية، بل يتبنى المرء الوسائل التي وضعتها الثقافة في متناوله: فيصبح متواضعاً، ويسعى إلى أن يكون أهلاً للرحمة والمحبة والعطف للحصول على المساعدة والحماية من الرأفة الإلٓهية. فليصلِّ وليطلب العفو والمغفرة.

في السحر الطقوسي، نوع من المساومة، يستبدل بالصلاة التي لم تعد تدّعي مكافحة قوة بوساطة السحر الكلي القدرة، بل التي تقبل بخضوع أن تتم إرادة الله، مع الرغبة بأن تكون، بشكل شخصي محفوظة بوساطته. وهكذا يتطور على هذا الأساس العاطفي الفكر الديني، كما فهمه فريزر، مميّزاً بالخضوع لإرادة الله الكلي القدرة. وبحسب تطور الأفراد والحضارات، نجد الفكر الديني أهلاً للحلول شيئاً فشيئاً محل السحر الاحتفالي التابع للمرحلة الشرجية، لكي لا يحفظ منه إلا بعض الآثار. وسيمثل، مثله مثل السحر الاحتفالي، أوالية الدفاع النفساني ضد الخوف الذي تثيره أخطار الحياة. وفي الواقع، إن الفكر السحري لا يمارس أي تأثير في الإنسان أو في القوة التي يريد الوصول إليها؛ في حين أن الفكر الديني يسعى إلى التأثير في الإنسان بوساطة المحبة وبكل الاحتفالية الدينية للتوبة. فتنشأ إذاً علاقة بين الفرد والقوة التي يخشاها. وهذه الرابطة هي التي بتطورها ستحدد التنظيمات الأولى للعلاقات الاجتماعية المميّزة لحضاراتنا الأبوية. وتحت ضغط تطور الليبيدو، مع التدخل الأكثر فالأكثر قوة للغرائز التناسلية، قد يخضع هذا النمط من العلاقة إلى تغييرات متعددة. فهو في أساس تصور جديد للأشياء التي لم تعد تدع مكاناً للتصور العائد إلى المرحلة الشرجية: التصور الديني للواقع. إذ تصبح جميع الكائنات وكل الأشياء من خلق الكلي القدرة وتحدد إرادته حياتهم ومظاهرها.

فالأرباب أنفسهم في الأساطير تم تصورهم بشكل العائلة البشرية. إذ يسيطر الآله الأسمى على الآلهة الأخرى كملك يحكم رعاياه. ويمتد هذا

التصور الأبوي للعالم تقريباً على كل الظواهر المنظمة بشكل عائلي، ومع معنى خاص لطبقات المجتمع. ويتوافق هذا التصور أيضاً مع تصور جديد للإنسان، مع ذاته وأناه وجسمه وروحه، فالذات تسيطر على الفرد كله كما يسيطر أب على العائلة. ونجد أن الحضارات التي تتطور في هذه المرحلة العاطفية من حياة الإنسان ذات سيطرة أبوية وفردانية، في حين أن حضارات المرحلة الشرجية هي أكثر جماعية. فالعائلة في مفهومنا تحل محل العائلة الاصطلاحية التي لا تزال تجهل الأبوة كما تجهل مفهوم الطبقة والبنوة كما هي ميزة للمرحلة الدينية من الفكر. لكن هذه التصورات، بدورها مؤهلة أيضاً للخضوع إلى تحولات عديدة، رغم الطابع المقدس الذي تمتلكه في نظر الفرد. وتولد عقلية جديدة تحت ضغط الغرائز التناسلية تسبب، عند الأفراد والرجال منهم بشكل خاص، معارضة قوية بشكل متزايد تجاه الأب، ثم يصبح من الصعب عدم المساس بالمعتقدات الأسطورية وتصورات الواقع المكوَّنة في بداية المرحلة التناسلية. فبقدر ما يعبّر الفرد عن نفسه ويؤكد ذاته تثير الآلهة قدراً أقل من الرعب، ويتكشف قلق الخصاء كشعور لا مبرر له ويهاجم الشك معتقداته الأسطورية القديمة ليتيح له التفكير بتفسيرات أخرى للواقع غير تلك التفسيرات التي زودته بها الأساطير فقط. إنه يعتمد ويثق بنفسه بخبراته، بعلمه، ويطور كذلك التصور العلمي للواقع الذي قد يواجه على الأثر التصور الأسطوري ويقاومه ويستبدله كلياً تقريباً. وفي نسق الأفكار نفسه، قد يولد مثال اجتماعي جديد ويؤدي إلى تنظيم لمجتمع جديد.

ولكن كيف سيتطور هذا الفكر العلمي؟

في الواقع بقدر ما يتوصل الفرد إلى إدراك العلاقات القائمة بين الأشياء تولد حاجة خاصة كلياً لم يُدْرَس تكونها بشكل كافٍ حتى الآن: إنها الحاجة إلى السببية. وتتوافق هذه الحاجة مع الضرورة العاطفية التي يوجد فيها الإنسان في المرحلة التناسلية، الحاجة إلى ترتيب الأشياء بعضها مع بعض بإقامة علاقات البنوة والقرابة فيما بينها. وستكون هذه الحاجة إلى السببية المهمة جداً في النشاط الفكري، والحالة هذه ذات علاقة بالاحتياجات العاطفية للكائن

الذي يصل إلى المرحلة الدينية من الفكر. إذ تتيح له إنشاء روابط منطقية بين مختلف الظواهر المدركة، وأن يخضع للمنطق كل تفسير للوجود، وأن يصل إلى معرفة بالظواهر وتكوينها. وبدءاً من درجة معينة من هذا التطور، يبتعد المرء عن مفاهيم المعارف المألوفة ليتبع طريقه الخاص في البحث عن تحديد الأشياء وحتميتها، فيصل إلى ما يسميه فريزر «المرحلة العلمية» من الفكر. وفي هذه المرحلة، ولمقاومة القلق الذي تثيره فيه أخطار الواقع، يكف المرء عن اللجوء إلى السحر وإلى الفكر الديني، ويعتمد على المعرفة العقلية التي اكتسبها، بفضل تعليمه ومحيطه وخبرته الخاصة. ولكننا لا ننخدع بالإمكانيات والنتائج الحالية لهذا التطور. وفي معظم الحالات نجد أن العادات المقتبسة في أثناء تكوّن الفكر الديني قد أسهمت بشكل عميق، في ظروف حضارتنا، في توضيح وبلورة الشخصيات التي تشكل جماعاتنا، ففي عصرنا، حتى عند الوصول إلى المرحلة العلمية من الفكر، نحفظ في لاوعينا، وبشكل ذات خارقة، المفاهيم والمعتقدات والسلوك المكتسبة والمرسخة في عهد المرحلة الدينية، كما سبق أن رأينا في الفصل السابق. وإلى هذه المرحلة من التطور الليبيدي، بالتحديد، يعود أكبر عدد من القوانين والأعراف التي تحكم حياتنا الاجتماعية. ثم أليس باسم الأخلاقية المميّزة للدين، كل دين، يلغى بتضحية:

تضحية الدفع، وأن كل عمل يعطي الحق بتعويض ومكافأة، كما أن التوبة تستحق غفراناً؟ ويعني هذا الواقع أن مجتمعنا، حتى في الجماعات العلمانية، منظم على أساس التصورات الدينية. وتصبح هذه القاعدة هشة أكثر فأكثر بقدر ما يتحرر الأفراد تحت تأثير تطور الفكر العلمي الذي خلق الآله. وتنطرح بحدة متنامية مسألة معرفة من سيحل محلها، دون أن نستطيع، في الوقت الحالي، إعطاء جواب مرضٍ عنها. إلا أن من السهل التحقق أننا سنجد أنفسنا عند منعطف من تاريخ مؤسساتنا الاجتماعية. فهل نندفع نحو النزعة الجماعية البيولوجية؟ وهل ستكون هذه النزعة نتيجة للفكر العلمي أم إننا سنعود إلى تنظيم اجتماعي أكثر أبوية؟ المستقبل وحده يستطيع الإجابة.

إن هناك العديد من التوجهات المختلفة بين مختلف الأفراد الذين وصلوا

إلى المرحلة التناسلية من التطور البشري، فكيف نستطيع تمييزها من النموذج الذي وصفناه سابقاً، بسيطرة شرجية لليبيدو؟ لقد تبيّنا أن الليبيدو التناسلي يسمح للفرد بإقامة روابط عاطفية مع أشخاص مختلفين عنه، يهتم بهم في ذواتهم، دون منحهم بشكل منهجي طريقته في الإدراك، وهذا الأمر ميزة خاصة بالمرحلة الشرجية من المعرفة. أما في المرحلة التناسلية، فإنه يهتم بتصنيف العناصر والأشياء وفق مظاهرها الخارجية بشكل أقل من اهتمامه بالروابط التي يستطيع إقامتها في ما بينها، روابط التسلسل، والسببية، والتكوّن. فنخال في هذه الحالة أن تصور الواقع قد أصبح أقل سكونية وأكثر دينامية. ويقود اكتساب هذه الطريقة في الرؤية علماء عصرنا إلى التخلي عن التصور السكوني أو المادي للكون كما تحقق في القرون الأخيرة. فالشكل والمادة والفضاء والزمن تصبح شيئاً نسبياً، في تغيُّر مستمر أبدي.

إن الهم الطاغي لشخصيته الخاصة لم يعد يهيمن على اهتماماته عند وصوله إلى هذه المرحلة. بل قد ينمحي لحساب الأشخاص والأشياء التي يحبها. ولا يقوم بذلك بطريقة متعصبة أو متزمتة، على طريقة الـ ساك بل بتساهل. وبعبارة أخرى إنه لن ينظر إلى وجوده الشخصي بجدية كبيرة لا ه ليس الهدف الوحيد لحياته. وسيسمح له هذا الفعل بالعيش بسهولة، وبالنتيجة، العيش دون أن يكون موسوساً بشكل متواصل بالحاجة إلى توكيد قوته الخاصة أو تأمين خلوده، كما هي الحال في المرحلة الشرجية.

هذه بعض المفاهيم العامة عن تكوُّن الشخصية عبر المراحل المتعددة للتطور البشري، بحسب هيمنة تأثير هذا المحور أو ذاك، التي تميز بينها محاور ذات طبيعة فمية ـ شرجية، وشرجية، وشرجية ـ تناسلية أو تناسلية. ويتم تأليف الشخصية في اتجاهات مختلفة. ولكل اتجاه نشاطه النفسي والفكري الخاص، أي عقليته الملائمة. وبعض هذه العقليات يتوافق مع العقلية الجماعية للوسط الذي ينمو الفرد فيه. وبعضها الآخر يقع خارجها أو معارضاً لها، فإما أن يظل دون مستوى تطور العقلية الجماعية أو يصل إلى ما بعدها، الأمر الذي سيحكم غالباً على الفرد بالفشل العاطفي أو الاجتماعي. إذ لمفاهيم العقليات الفردية

المتقاربة بعضها من بعض نقاط مشتركة، في حين أن الاختلاف بين مفاهيم العقليات المتطرفة والمتناقضة يمكن أن يكون كبيراً إلى حد أن أي تفاهم حقيقي لا يمكن أن ينشأ في ما بينها.

إن تصور الفشل العاطفي، إذاً، تابع للعقلية الجماعية التي ننتسب إليها والتي نتبنى منها المفاهيم القيمية. وله بشكل خاص قيمة تطبيقية، لأنه يعلمنا عن مجموعة من العوامل التي يتوقف عليها توجه حياة الأفراد أو الجماعات، ونشاطهم الفكري أو الاجتماعي، وتطورهم أو انكفاؤهم. لقد قمنا في الفصل الحالي بالإشارة سريعاً إلى المستويات المختلفة التي يمكن أن تبنى الشخصية البشرية عليها، بحسب حدوث تأليفها في هذا الاتجاه أو ذاك.

ملامح من الحياة الجنسية للرجل

من المهم بمكان أن ندرس مقدار ارتباط أعراض الفشل بالحياة الجنسية للمرء، وكيف تظهر على شكل اضطرابات مهمة أكثر مباشرة في هذا الميدان من الحياة العاطفية.

إن هذه الاضطرابات، بشكل عام، غير المعروفة بشكل جيد بعد والمفهومة بشكل سيّىء هي نتيجة النزاعات التي تعرقل نشاط الليبيدو وتدمّوله عن طرق تطوره وتعبيره الطبيعي. وتظهر هذه النزاعات عند الرجل بطريقة متنوعة للغاية. كما أننا نميز عيادياً ثلاثة أنواع من العلامات المرضية: اضطرابات الفحولة، واضطرابات الإنعاظ، واضطرابات الشهوة الجنسية.

١ ــ اضطرابات الفحولة

إن اضطرابات الفحولة تحدّد بشكل عام العلامات المرضية التي تشكل جزءاً من العجز الجنسي عند الرجل. وفي العجز الكلي، لا ينجح الرجل بالاتصال بالمرأة إذ تصبح القدرة على الاتصال الجنسي بها مستحيلة.

أما في العجز الجزئي فإن الرجل يشعر أولاً أنه طبيعي وأنه قادر على مباشرة المرأة، لكنه يخفق على الأثر، وبشكل عام بعد إراقة مبكرة تمنع من متابعة الجماع إلى نهايته. وهذه الإراقة المبكرة تصيب المرء بدرجات مختلفة جداً. فقد تحدث عند كل جماع، كما أنها قد تكون طارئةً مفاجئةً إلى حد ما. فأحياناً لا تحدث إلا أثناء الجماع الأول، في حين أن جماعاً ثانياً قد يحدث بعد بضع

ساعات، يتم بشكل طبيعي أو أيضاً يكون الرجل طبيعياً أثناء الاتصالات الأولى مع امرأة، ثم تختفي قدرته ما إن يعتاد على شريكته.

وفي العجز الكامل قد تحدث الإراقة دون أن يكون هناك اتصال مباشر بين المرء وشريكته، على بعد تقريباً، ودون حصول أي نوع من الجماع، فالرجل يشعر بالرخاوة والارتخاء. أو أيضاً عندما يشعر بالقوة، تزول هذه القوة مباشرة بعد الإراقة التي تتم كذلك خارجاً.

٢ ـ اضطرابات الانعاظ [١]

إننا نواجه في جميع الحالات اضطرابات الانعاظ التي لم تستطع حتى الآن أن تلفت بشكل كافٍ انتباه الطبيب السريري ولا العالم النفساني. فهما في أغلب الأحيان يهتمان بالاضطراب العميق للميول العاطفية لدى الإنسان، وهو اضطراب يمتلك انعكاسات حتى على التوازن الجسدي. وبإمكان اضطرابات الانعاظ الإضرار بالرجل بدرجات مختلفة وفق الحالات. فهناك إراقة دون انعاظ مثلاً، في حالة الإراقة المبكرة، أو يتأخر الانعاظ كثيراً وكذلك الإراقة أو لا يتم الانعاظ ولا الإراقة أبداً، رغم فحولة كافيةٍ وجماع ممتد ومطوّل.

وفي العديد من الحالات، نجد أن الانعاظ هو مؤلم بدلاً من أن يكون مرضياً، وقد يحدث الألم فجأة وبشكل حاد وواخز إلى أن يسبب تشنجاً مكدراً يوقف الجماع دون حدوث أي إراقة أو أن الإحساس يتحول إلى قلق قبل الوصول إلى حدة الانعاظ وذروته: فيجهض الانعاظ ويخفق ويخلي المكان لشعور بالنفور والخيبة. وفي بعض الحالات يستبدل الانتعاظ كلياً بالألم الذي قد يمتلك طابعاً انتخابياً. فقد لا يحدث مع بعض النساء، النساء الباردات مثلاً، وبالمقابل فإنه يسري وبقوة عند الاتصال بامرأة غير باردة جنسياً بل حرة التعبير عن أنوثتها. وأحياناً، لا يحدث الانعاظ إلا مع نساء ذوات مستوى اجتماعي أدنى ونساء محتقرات في حين أنه يجهض مع النساء المحبوبات

---

(١) الإنعاظ: ذروة النشوة الجنسية.

وذوات المستوى الاجتماعي الراقي. وتطالعنا الحالة نفسها بالنسبة إلى الفحولة، الأمر الذي يخلق عجزاً انتخابياً يظهر فقط في بعض الحالات المحددة.

إن كل هذه الخصائص للسلوك الجنسي، التي بكل أسف لا يعيرها الاهتمام الذي تستحقه، لا الطبيب ولا صاحب العلاقة، لها تاريخ عاطفي مميّز جداً. وسنعود إليه عندما سنحاول تفسيرها بوساطة طبيعة النزاع الذي تكشفه، وهو نزاع، بشكل عام، لاشعوري.

٣ ـ اضطرابات الشهوة الجنسية

إن اضطرابات الشهوة الجنسية تشكل جزءاً من ميدان الانحرافات المتميّزة بدقة بشهوات جنسية مرضية. والاضطراب الأكثر شهرة هو الميل إلى أفراد الجنس المماثل كاللواط أو السحاق. ومن الصعب أن نتخيل عدد أنواع الشذوذ الذي نعثر عليه قيد التطبيق. فهذه الأنواع والأشكال تبدأ من حدود الطبيعي إلى الشذوذ المتطرف. فبشكل عام، إننا نميّز ما بين النزعة الجنسية المثلية النشيطة والنزعة الجنسية المثلية السلبية. فالأولى لا تمنع الرجل من القيام بالدور الرجولي خلال الفعل الجنسي، إلا أنه يختار شريكاً ذكراً مخنثاً يهوى الرجال. أما في النزعة الجنسية المثلية السلبية، فإن الرجل يتواحد ويتماثل مع المرأة ويسمح لرجل آخر بالنوم معه.

وخلاف هذه الحالات الكلاسيكية، نتبين مظاهر للجنسية المثلية أكثر تعقيداً. فالعلاقة بين الشاذين جنسياً يمكن أن تحدث بشرط وحيد هو أن تؤدي إلى نتائج اجتماعية سيئة وخطيرة إلى حد ما، بالنسبة إلى أحد الشريكين. فقد يتم هذا الفعل الجنسي، مثلاً، في مبولة عامة، حيث هناك خطر حقيقي في أن يكتشف البوليس هذا الفعل الجانح. أو قد يحدث أيضاً بين شخص من مكانة اجتماعية مميزة كأن يكون أستاذاً جامعياً أو دبلوماسياً أو كاهناً، وشخص مشبوه مؤهل لأن يقوم بالابتزاز. وينتهي مثل هذا الأمر غالباً بسرقة المحفظة الشخصية أو بأشكال أخرى من الخيبة لصاحب العلاقة الذي وضعه البحث اللاشعوري عن الإذلال والخزي أو العقاب، بوساطة الفعل الجنسي اللواطي

الشاذ، في وضع من أكثر الأوضاع إضناء وتكديراً. إننا نتكلم في هذه الحالة على ماشوسية تظهر عبر البحث عن المتعة الجنسية بوساطة الإذلال أو التعذيب، كما أننا نميّز ما بين الماسوشية الأخلاقية ـ الأفلاطونية أو الخيالية ـ إذا صح التعبير ـ والماسوشيه الجنسية.

وأحياناً، لا يحدث الفعل الجنسي الشاذ، عند رجل ضحية للماسوشية، إلا بفضل السكر. فكمية من الكحول ضئيلة يمكن أن تكفي، في هذه الحالات للتسبب بالسكر، فيصبح المرء فريسة سهلة لبعض الأشخاص السفلة الذين يرتمي في أحضانهم ليساعدوه في عادته السرية وعلى الأثر ينهبونه في مغامرة قاتمة.

وهكذا قد تدفع الماسوشية عدداً من الرجال إلى أن يكونوا مستغلين، مضروبين أو معذبين على يد رجال آخرين، أو أيضاً على يد نساء مرتديات أحذية عالية (جزمات) ومسلحات بأسواط طويلة، يحللن محل الرجال بشكل واضح وجلي. ولنتذكر في هذا الشأن الرجل النموذج الذي وصفه بروست في روايته «**بحثاً عن الزمن المفقود**» تحت اسم البارون دو شارلوس.

وفي الحالات الأكثر تعقيداً، نرى هذه الماسوشية الجنسية تتعقد وتتفاقم بتناول البراز. وقد يذهب الرجل حتى حدود التهام براز شريكه أو يطلب منه أن يبول في فمه.

وليس اضطراب الشهوة الجنسية شعورياً دائماً: فمثلاً عندما تكون الجنسية المثلية خفية كامنة يسعى الرجل إلى الاتصال بالمرأة، وقد يعتقد أنه طبيعي لأنه لا يخالجه أي شعور بميله إلى أفراد جنسه. ولكنه يفضل التوجه إلى نساء قادرات على إرضاء طبيعته اللواطية. ففتاة أحلامه رنثى[1] تمتلك صفات ذكورية وتسلطية؛ وتتألق بذكاء نادر، أو أنها تهتم بالأعمال، فهي طبيبة، طبيبة أسنان، محامية... إلخ. وفي ظروف حضارتنا، نجد أن عدد الأزواج

(١) الرنثى: المرأة المسترجلة.

«اللواطيين» كبير، وينبغي التأكيد أنهم غالباً لا ينقصهم بعض الانسجام. وأن أنواع العصاب التي يشكو منها الشريكان يمكن تعويضها. فثمة مثقف، ذكي وأديب، يتزوج امرأة يسمح له مالها الكثير بأن يعيش بعيداً عن النضالات القاسية للحياة. ومثله فنان يستطيع أن يكرس نفسه لفنه، دون الاهتمام بالغد، بفضل تضحيات المرأة التي تعيله. ولكن للأسف، تظهر في أغلب الأحيان نزعة جنسية مثلية عند الرجل بشكل عداوة لدودة تجاه المرأة، بشكل طمع مرضي أو أيضاً بشكل حاجة إلى الانحطاط، مفسحاً المجال لمضاعفات اجتماعية معقدة، تبدأ من الاضطراب البسيط في المزاج وتمتد حتى الانحراف الإجرامي.

ولندخل قليلاً في التفاصيل: هذا رجل حكمت عليه نزعته الجنسية المثلية، أي اللواطية الكامنة، بالعيش بعيداً عن النساء. فكان يفر منهن دائماً ويبحث عن التعويض عنهن بالعادة السرية التي تتيح له التماثل مع هذه المرأة أو تلك التي يتخيل نشواتها. وعلى إثر مبادرة من عائلته تزوج فتاة من عائلة محترمة وغنية، كان يحبها من بعيد، فأجبره الزواج على تنفيذ أحلامه الشهوانية وعند ذلك كره زوجته. وسعى إلى الهرب إلى نساء أخريات، ولكنه ما إن يراهن عن قرب حتى يصبحن غير مهمات بالنسبة إليه. ثم تابع الهرب على هذا الشكل، وطوّر نوعاً من الموهبة الدونجوانية[1] قادرة على أن توفّر له، في الأوساط غير الخبيرة بهذه المسائل، صيت زير نساء، فيما هو ليس إلا نصف عاجز يخفي ضعفه خلف واجهة يخدع بها نفسه.

ورجل آخر، فقد أمه وهو صغير وربّاه والده فقط، يحفظ في نفسه بإجلال ذكرى عينيّ أمه الراحلة وعطرها. ويبحث عنها في أحلامه، في نشوة شعرية كانت تدفعه إلى تكريس نفسه لاستعادة ذكرياته. وتوصّل في نهاية المطاف إلى

---

(١) نسبة إلى دون جوان، ذلك الرجل الذي كان يبحث بلا انقطاع عن مغامرة نسائية غرامية جديدة.

العثور على العينين اللتين يحبهما في أرملة لها أطفال كان سلوكها يذكّره بلطف بالشخص الذي كان والده يكلمه غالباً عنه. فتعلق بتلك المرأة أو بالأحرى بالصورة التي كوّنها عنها. وأخذ يكتب إليها رسائل طويلة وجميلة بكلمات مؤثرة شجية. وضمّها إلى ابتهاله الذي كان معتاداً على توجيهه إلى أمه في طفولته. وتحدّث عنها إلى أصدقائه العديدين الذين يحب العيش إلى جوارهم، خالباً لبّهم بذكائه ومخيلته وأناقته، تماماً كما كان يفتن والده الذي كان ابنه المفضل. وقد نصحه أصدقاؤه بالعدول عن الزواج من هذه الأرملة، خائفين من طبعه المتقلب. وفي الواقع لم يكن كذلك، وقد قدّم إلى أصدقائه الأدلة على محبة مخلصة، ومستديمة، لكن شيئاً ما لا يعرفون ماهيته كان يحملهم على التردّد. وفي الحقيقة كانوا يخشون عدم فهمه المرأة، وقد برهن على ذلك سابقاً. فهو، بكل سرور يستسلم لمغازلتهن ويقبل الهدايا، إلا أنه لايهديهن بالمقابل هدايا أبداً. فيبدو قليل اللباقة نحوهن، إذ يصعد قبل رفيقته إلى سيارة التاكسي تاركاً إياها تنتظر دورها باحتقار، كان يُظهر تجاه المرأة، وخاصة عندما تعود معرفته بها إلى بعض الوقت، إهمالاً وتعوزه اللياقة، الأمر الذي لا يتوافق أبداً مع اهتمامه المعتاد بالشكليات والمجاملات.

وهكذا رغم معارضة أصدقائه، تم الزواج، وبدا الزوجان متفاهمين ولكن الحقيقة ظهرت سريعاً لهما، فقد ذهلت المرأة من الاهتمام الكبير الذي يوليه زوجها زينته الشخصية. فهو يمتلك عدداً كبيراً من البذلات والقمصان من جميع الأنواع، ويستخدم الأدهنة والمساحيق لوقاية جلده من التجاعيد، وبتعبير آخر إنه يعتني بنفسه كالمرأة تماماً. والزوجة من جانبها، رغم أنها أنجبت ولدين، قد حافظت على حيوية وشباب تود الآن الدفاع عنهما، وتسعى إلى تفتحهما، ولا سيما أن زواجها الثاني قد قدم إليها هدفاً جديداً. ولكن وكأن الأمر مصادفة، اندلعت شرارة سوء التفاهم من خلال الأسئلة المتعلقة بهذا التزين المبالغ فيه الذي يقوم به الزوج. وكان في سوء التفاهم هذا من خصائص المأساة ما لا يسمح لنا بإغفاله. فقد عادت الزوجة يوماً نضرة مشرقة من عند مزيّنها الذي أجرى لها تسريحة جديدة، جدّدت شبابها بشكل كبير ــ على حد

زعمها - فتقدمت من زوجها، سعيدة جداً بأن تقدم إليه هذه المفاجأة، إلا أنه قطع سريعاً سعادتها. إذ قال لها: كيف تجدّدين شبابك، أتريدين إذاً أن تظهريني عجوزاً ومثيراً للسخرية أمام الجميع؟

فأجابته متعجبة: مثيراً للسخرية؟

ــ طبعاً، فبقدر ما تجدّدين شبابك تجعليني طاعناً في السن، ولذلك آمل أن لا تعودي إلى هذه الأمور الخرقاء.

وبحزن كبير أتلفت المرأة تسريحتها. إنها لم تكن تتوقع أن يتصرف زوجها هكذا، كامرأة تخشى منافسة امرأة أخرى. زد على ذلك أن الأحداث ستتقل سريعاً بما يضيء الوضع ويوضحه. لقد بدأ زوجها بالتهرب من العلاقات الزوجية، وصار يرفض مشاركتها غرفتها. ورغبت في الاحتفاظ بولديها قربها، لكنه أرغمها على أن تعهد بهما إلى بعض الأقارب. وفي نهاية المطاف، فرض عليها، بحجة كسب المال اللازم لرعاية ولديها، القبول بوظيفة مديرة في مؤسسة تجارية. وبدأت كميات المال التي يعطيها إياها تقلّ شيئاً فشيئاً، ثم حملها على السكن مع ولديها، بعيداً عن منزله، إذ لم يعد يحتمل رؤيتها في شقته.

إن هذا النموذج من الرجال متوافر إلى حد ما. فهو قبل كل شيء مميز بزهو زائد، يدفعه في كل مكان إلى لفت انتباه الحاضرين إليه، إما بأناقة مرهفة، وإما بفصاحة ظاهرة وأفكار سامية. فهؤلاء الرجال لديهم حاجة مرضية إلى الإعجاب وإلى سماع الآخرين يتكلمون عنهم. وبالإضافة إلى هذا يبدو أن نقص الرجولة الذي يعانون منه يظهر بشكل ميل إلى الرياء والخداع والاحتيال على الناس وإلى تجريد ضحاياهم من حسناتهم. وتجعل منهم هذه السمات مجتمعة، رغم المظاهر البراقة، أزواجاً أو مساعدين غير جديرين بالاحترام، وفي أغلب الأحيان نجد أن النساء هن من يدفع ثمن مشاكلهم العاطفية. وتظهر عدم قدرتهم على إقامة علاقات طبيعية مع الآخرين، وبشكل خاص، مع زوجاتهم. وعلى النقيض من ذلك قد لا توجد هذه الصعوبات مع الرجال. إذ

يجد الكثير من هؤلاء الشاذين، عند الاتصال بالرجال ووسطهم، مجالاً لاستخدام عاطفة تحاول عبثاً التعبير عن نفسها لدى النساء. هؤلاء الرجال قادرون على أن يكونوا عسكريين ممتازين، أو قساوسة متفانين، أو موظفين كاملين، منفذين بدقة الأوامر المعطاة، أو محافظين على علاقات جيدة مع رؤسائهم، فإذا كانوا أطباء، فإنهم يعتنون بالرجال بشكل أفضل من عنايتهم بالنساء. وإذا كانوا محامين، فإنهم يتعلقون بشغف ببعض الدعاوى التي تتلاءم مع توجه حساسيتهم وإدراكهم. وينضم إليهم عدد كبير من الممثلين والأدباء والفنانين.

ومن غير المجدي القول إن الشذوذ الجنسي الكامن هو في أساس العديد من الأعراض المرضية الجنسية كالإراقة المبكرة، والعجز والإنعاظ المؤلم. وفي بعض الحالات، يفسح لمضاعفات عاطفية ذات نسق خاص جداً. فقد نجد غيرة مرضية تدفع الرجل إلى تصور المرأة التي يهتم بها، على علاقة برجال آخرين، مهما كانت عفّتها واستقامة حياتها. ومن الأمثلة على ذلك، هذا الرجل الذي كان متزوجاً من فتاة شابة مخلصة، تقية ومحافظة، إذ كان يتصورها دائماً في أحضان أحد أصدقائه الذي كان يحسّ نحوه بغيرة غير عادية. ولم تفارقه لحظة واحدة فكرة علاقتهما الممكنة. وكان الحدث الصغير الأقل ضرراً يتحول إلى برهان ساطع على موضوعية شكوكه. فكان من المستحيل طمأنته. وإذا ما تكلم عن غيرته إلى شخص مطلع على حياة زوجته بدا عاجزاً عن إدراك الحقيقة كما تبدو جلية. أما بالنسبة إلى زوجته، فقد كان يتشاجر معها بعنف، ويراقبها، ويلاحقها في كل مكان، إلى درجة أنه كان يسيء معاملتها ويتفوه بتهديدات، بأنه سيقتل منافسه المزعوم.

وفي أية مفاجأة سنقع، عندما يكون تحليل هذه الأوضاع ممكناً، وعندما نتحقق من أن هذه الغيرة اللجوج، هذه الفكرة الثابتة عن المنافس الذي ينبغي العثور عليه، ذات علاقة مباشرة بشذوذ جنسي خفي يلازم ضحيته باستمرار. وفي هذه الحالات، يفكر الرجل دائماً في الرجل. وإذا لم يُسِرّ بهذه الفكرة التي تلح عليه فمن الواضح أنها لا تفارقه أبداً. فالبرغم عنه، ورغم مثاله

الشعوري ورغبته في التفاهم مع المرأة، يجد الرجل نفسه معلقاً بالرجل، حتى عندما يثور ضد التعلق الذي يعذبه. إذ سيكون من المستحيل عليه اجتياز الهوة التي تفصله عن المرأة، والتي ترعاها بعناية المشاجرات العنيفة ومآسي الحياة الزوجية، وتصفية الشذوذ وحدها تسمح بإخفاء وإزالة هذا الشكل من الغيرة المرضية أو أيضاً بالقبول الواعي بالشذوذ، ومثل هذا الأمر يحدث في الحالات التي لا يستطيع الرجل فيها الاهتمام بأية امرأة إلا بشرط أن يعرف أنها على علاقة مع رجال آخرين. والوضع الأكثر نموذجية هو وضع الزوج والزوجة والعشيق: إذ يصبح صديق الزوج عشيق المرأة، وتصبح هذه الأخيرة وساطة الألفة بين الصديقين الحبيبين.

إننا نواجه غالباً هؤلاء الرجال الذين لا يتحملون الحياة المشتركة مع المرأة، والذين يردّون على أمانة زوجتهم الزوجية بطبع نزق ومزاج سيّىء مفسحين المجال لمشاجرات ومشاحنات. وتتوقف جميع هذه الاضطرابات فجأة عندما تقبل المرأة باتخاذ عشيق. فبشكل عام، يحدث هذا الأمر بلا علم الزوج، لكنه لا يرد على الوضع الجديد بأقل من إخفاء مزاجه السيّىء، إذ يبدو أن هذا الوضع، لا شعورياً، يعزيه. وهكذا نصادف غالباً أزواجاً لا تبدو سعادتهم المشبوهة قادرة على التحقق إلا بوساطة صديق حبيب. وفي بعض الأحيان، نجد أن الزوج هو الذي يفرض على زوجته أن تعاشر رجلاً آخر. وهناك حالات نجد فيها أن مشهد العلاقات الجنسية بين المرأة والصديق، وحده، قادر على إثارة حماسة زوج تخور قواه مع شريكته بدون ذلك.

هناك فئة من الأشخاص نجد أن الشذوذ الجنسي لديها كامن وخفي، ويظهر غالباً وخاصة بشكل معادلات عاطفية، ليس لها ظاهرياً أية علاقة بالحياة الجنسية. وهذه المعادلات العاطفية متعددة وتحدّد سلوكاً اجتماعياً وطبعاً خاصاً بحسب الاتجاه الذي يبحث المرء فيه عن هذه المعادلة. فشخص كهذا مثلاً، رغم مظهره الرجولي، وأفكاره النيّرة وكلامه النظيف سيكون على علاقة دائماً مع النموذج نفسه من الرجال. فبارتباطه عن طيب خاطر بأشخاص يستغِلونه، ورغم خيبات الأمل المتعددة، لن يشعر نحوهم إلا بالإعجاب. وهذا شخص

آخر، على العكس منه، يتعلق بالمال كوسيلة يحاول أن يخلب لبها واستمالتها ليملأ خزائنه بالمادة الثمينة التي يشعر عند لمسها بنشوة ذات طابع شبه شهواني. فالمال، في هذه الحالة، متملص من هدفه كوسيلة تبادل أو طمأنينة ليصبح موضوع هوى، وليسمح للرجل بالشعور أنه مخترق من قبل قوة فوق بشرية بتجميعه كنوزاً في أحشائه. وهكذا سيجد الأول في الذهب وسيلة للتواحد والتماثل مع المرأة الحامل، فيما يجد الآخر الرضا في تعقيم السيل الخصب لصالحه بادّخاره حارماً منه المؤسسات التي تتعرض، دون مشاركته، لخطر الإفلاس.

إن البخل عارض من أكثر الأعراض المميّزة لهذا النوع من الشذوذ الكامن، وهو بشكل عام يترافق مع عجز جنسي عند الرجل. وفي هذه الحالات، يكون هذا الرجل أنانياً يخال الكون محوراً حول ذاته، ويتكشف أنه غير قادر على أي إنفاق، ولا على وضع رجولته في خدمة امرأة أو قضية. فليس مصادفه أن يصاب البخلاء بالإمساك. فهم كذلك، في الواقع، وفي معظم الأحيان تقريباً وغالباً ما يتفاقم إمساكهم من جراء البواسير، والإمساك أحياناً هو العارض الرئيسي لحالتهم، وفي هذه الحالات، يكون الغائط بديلاً عن المال وانفعال المرء مركّز حول هذه المواد التي ينفصل عنها بصعوبة والتي لا تنكشف ميزتها الخاصة إلا بالتحليل.

إن هؤلاء الرجال يمتلكون عادة روح معارضة عنيدة، ويفضلون الوقائع المحددة، والتواريخ، وخططاً معدة بشكل جيد، إذ لا يترك أي شيء في تنظيم الأمور للمصادفة ولما هو غير متوقع. إنهم يمتلكون ميلاً واضحاً إلى التجميع، وشغفاً بالأنظمة الصارمة، فضلاً عن تعصب يجعل منهم في أغلب الأحيان أشخاصاً متطرفين ومنظرين إيديولوجيين أو علماء في العلوم التجريدية.

وعلى صعيد الممارسة نجدهم غير قادرين على أن يحبوا امرأة، وعندما يتوصلون رغم تعقيدات طباعهم، إلى الارتباط مع شريكة قرينة تصبح حياة هذه الأخيرة جحيماً. وبالمقابل، نجدهم يستطيعون الاهتمام بالطفل، وبالصبيان

خاصة، ويظهرون غالباً، في هذا المجال، موهبة حقيقية في التربية ومشاكل التهذيب والتأديب، الأمر الذي يدفعهم إلى التسامي بميولهم في مهنة التعليم. وفي أيامنا الحاضرة، لا يزال همُّ التعليم متفوقاً على هم التكوين النفسي والاهتمام بصحة الطفل، وهذا النمط من المدرسين أو الأساتذة ما يزال الأهل يقدرونه كثيراً، وكذلك المديرون. وربما لن يكون الأمر كذلك عندما يحسب التثقيف المدرسي حساب ضرورات التوازن النفسي للشباب، فضلاً عن تكوين الطباع.

لقد رأينا في الفصل الثاني كيف كان تأثير المربين يسهم في تكوين السلطة التي سميناها الذات الخارقة، وكانت هذه الذات مؤهلة للتطور في اتجاه مرضي عندما يكون تأثير الأهل أو البيئة في الطفل ممارساً في اتجاه مضاد لمستلزمات تطوره.

إن الشذوذ الخفي للأب قادر على توفير شروط الحالة نفسها عند أولاده، وأن يسبب، كما أظهرنا سابقاً، ميلاً واضحاً تقريباً إلى الفشل.

إذاً إن اضطرابات الرجل الجنسية هي في أغلب الأحيان مظهر خاص لأعراض الفشل. وخاصة في الحالات التي يظهر فيها الشذوذ الخفي على شكل سلوك سلبي ماسوشي يعتمده المرء الذي يفضل أن يكون ممتلَكاً على أن يكون ممتلِكاً أو مغلوباً على أن يكون غالباً. ولكن ينبغي أن لا نستنتج أن الحالة نفسها تؤدي دائماً إلى النتائج نفسها.

ومن المألوف في أيامنا هذه أن نرى رجالاً مصابين بالعجز الجنسي أو بالإراقة المبكرة ومع ذلك حققوا بشكل ملحوظ نجاحاً واضحاً في مهن المثقفين أو العلماء أو السياسيين، وعديدات أيضاً هن النساء اللواتي لا يحتملن وجود رجولة طبيعية لدى شركائهن ولا يمنحنهن مساعدتهن وتعاونهن إلا بشرط أن تكون حياتهم الجنسية ناقصة وضعيفة. وهناك مهن لامعة في المجتمع تخاطر الرجولة الطبيعية فيها أن تشكل عائقاً. إذاً المسألة معقدة جداً، ولا يمكن أن تكون مدروسة من وجهة نظر ضيقة وتبسيطية. وقد سبق أن تكلمنا على ذلك عندما أوردنا حالة الفنانين.

ومن المؤكد أن الشذوذ الجنسي الخفي عند الرجل يتسامى على يد ملكات أو مواهب خاصة جداً ينبغي التعرف إليها لنكون قادرين على الحكم بشكل موضوعي على المسألة، ويجد القارىء معالجة لهذه المسألة في كتاب فشل بودلير، في فصل مخصص لعلم نفس الخلق الفني.

إن المخيلة الشعرية والميل إلى خلب اللب والإغواء هما تعبير عن طبع أنثوي أو طفولي أكثر مما هما تعبير ذكوري وراشد. فالشذوذ الجنسي الخفي قد يوجه نشاط الرجل في اتجاه هذه المخيلة، ويطور فيه الميل إلى تشكيل المادة، وإلى التأثر والانفعال بالألوان، أو يدفعه أيضاً نحو البحث عن الانفعالات الرقيقة والناعمة، كما نلاحظ ذلك لدى الرسام أو الكاتب. وحتى الميل الأنثوي إلى الإغواء لخداع الرجال قد يتحكم بنجاح الدبلوماسي أو رجل الأعمال الذي يعشق القدرة الشخصية للأنا. والتناقض الوجداني، الذي يعتبر الميزة الخاصة بالشذوذ الجنسي الخفي، قد يصبح بدوره ضمانة للنجاح. وبما أنه محدد بعجز المرء عن إيثار جنسه وبقلق الخصاء الذي يجعل اتخاذ أي موقف واضح مستحيلاً، فإنه يظهر بشكل اهتمام متواصل بعدم الالتزام بالزواج أبداً وبتحاشي اتخاذ قرار بذلك بأي ثمن. والتناقض الوجداني نفسه يظهر أيضاً بشكل حاجة ملحة إلى تأمين مخرج في المعاملات باستمرار، وبفن المراهنة دائماً على أمرين أو عدة أمور. وهكذا ينجح المرء في تحاشي اتخاذ أي قرار يتضمن مسؤولية ما. نعم، من الممكن أن يتقن استخدام وسائل المماطلة القادرة على إتعاب الخصم وعلى كسب الوقت اللازم لمشروع أو لالتزام أو لسياسة مؤهلة، قد تكون معرضة للخطر بوساطة إجراءات مبكرة جداً. ولكن في المقابل، من الممكن أن يتكشف أنه غير قادر على اتخاذ القرارات التي تستلزمها الظروف في مراحل ما من الحياة. وهكذا يحكم بالفشل على قضايا لأن تناقضه الوجداني يشله، فيصبح من المستحيل عليه الدفاع عنها. إن عظمة وبؤس الانتصارات والهزائم التي يمنى بها بعض رجال السياسة تتعلق بهذا التناقض الوجداني. فهو يصنع نجاح الخطباء الذين يتفوقون في فن صنع الخطابات لكي لا يحتاجوا أبداً إلى التصرف، لكنه يقضي على كل رجل ينبغي أن يواجه

الأحداث بالأفعال لا بالكلام. إذاً ليس أقل صحة أن الحياة الجنسية المتوازنة جيداً بالنسبة إلى نشاطات عديدة فكرية أو اجتماعية، أفضل شرط للنجاح. وسنرى ذلك أيضاً على الأثر، عندما ستتيح تأملاتنا في حياة المرأة الجنسية مراقبة المسألة عن كثب.

* * * *

مظاهر من الحياة الجنسية عند المرأة

إن اضطرابات الحياة الجنسية الأنثوية وعلاقاتها بأعراض الفشل معقدة جداً ويصعب تعرفها. فمفاهيمنا عن الحياة الجنسية للمرأة لا تزال غير كاملة وتعود إلى تاريخ حديث نسبياً. فأعمال ستيكل (Stekel) المتطرقة إلى هذه المسألة، سطحية، وكذلك أعمال هيتشمان (Hitschmann) وبرغلر (Bergler) التي لا تعطي إلا فكرة عامة عن هذه المسألة ولا تحسب حساب مجموعة كاملة من المسائل والمشاكل المتعلقة بها. ونحن لا نستطيع في إطار هذا العمل معالجة الموضوع كما يستحق، وسنكتفي بإبراز المظاهر الأكثر أهمية.

إننا نلاحظ، عند المرأة كما عند الرجل، اضطرابات في التأثر لها انعكاساتها في الوظيفة الجنسية، فضلاً عن التوازن النفسي والعضوي للفرد. ففيما يختص بالحياة الجنسية بالتحديد، نميّز لديها اضطرابات الإنعاظ من اضطرابات الشهوة الجنسية.

إن اضطرابات الانعاظ متعددة، وتبدأ بالبرودة الجنسية. وهي كلية أو جزئية. وعندما تكون كلية، تكون المرأة عاجزة عن الإحساس بأي إنعاظ. وعندما تكون جزئية، يحدث الإنعاظ بوساطة العادة السرية، ولكنه يغيب عند الجماع الطبيعي. ففي هذه الحالة يتركز إحساس المرأة عادة في الأعضاء الخارجية، والإنعاظ الذي تشعر به ليس إلا إنعاظاً جزئياً، ويمثل الشكل الطفولي لهذه الوظيفة. ولكي نفهم بشكل جيد هذا الجانب من المسألة، ينبغي أن نعرف أن وظيفة الإنعاظ، لدى المرأة، تتطور بطريقة خاصة جداً. ففي

الأحوال الطبيعية، كل فتاة مراهقة مؤهلة للشعور بإنعاظ عند الإثارة الجنسية، إما أثناء حلم خلال النوم، وإما إثر مداعبتها لنفسها. غير أن هذا الإنعاظ لا يتعلق في تلك الحال إلا بالأعضاء الخارجية ويتوافق، عند تحليل المشاعر التي هو مظهر لها، مع تصورات شبه ذاتية أو شاذة جنسياً تقوم فيها الفتاة بدور ذكوري أكثر منه أنثوي، إيجابي أكثر منه سلبي. وعندما يكون هناك عصاب، يتوافق هذا الإنعاظ بوضوح مع تصورات سادية قادرة على أن تأخذ طابعاً ملازماً للبنية. ولكن مع التطور الطبيعي للحساسية وقبول الأنوثة، يتغير هذا الإنعاظ، ومن إنعاظ ينطلق في الأعضاء الخارجية، ثم يتحول إلى إنعاظ ينطلق من الأعضاء الداخلية، أي أن منطقة الإثارة الجنسية تتحول إلى الداخل، وعلى الأرجح كذلك بعنق الرحم، المؤهل عند الجماع لكي يصبح على اتصال بالرجل. وكذلك يبدو أن الإنعاظ يتطور بالنسبة إلى نوعية الأحاسيس التي تشعر بها الفتاة. إذ تصبح هذه الأحاسيس، غالباً أكثر عمقاً وأكثر استمراراً، في حين أن الإنعاظ الخارجي لا يتوافق إلا مع إحساس حادّ قصير المدة، وليس له انعكاسات عميقة على مجموع تأثرات المرأة. ويوضح هذا الأمر سبب قدرتنا على تبيّن هذين الشكلين من الإنعاظ اللذين قد يعانيان بدورهما من اضطرابات عميقة إلى هذا الحد أو ذلك.

فالإنعاظ، كما هي الحال عند الرجل، قد يجهض عند المرأة فلا يصل، بعد بداية جيدة، إلى الغزارة التي عادة ينبغي أن يبلغها. وكذلك قد يكون مؤلماً. والألم قادر على أن يوقف على الفور كل تطور نحو تراخ مهدىء. أو أيضاً قد يكون انتخابياً، أي طبيعياً فقط مع بعض الشركاء ومؤلماً مع آخرين. وكذلك قد يختفي كلياً بحسب الحالات. وحينئذ نتكلم على برودة انتخابية لا توجد إلا في بعض الظروف المحددة. فأحياناً لا يحدث الإنعاظ إلا مع رجال من مستوى اجتماعي أدنى، رجال محتقرين من قبل المرأة، في حين أنه يغيب مع شريك تحترمه المرأة ومن المستوى الاجتماعي نفسه. وسنعود إلى هذه المسألة عند الكلام على الصراعات النفسية التي تكون هذه الاضطرابات غالباً تعبيراً عنها.

ونلاحظ أيضاً عند المرأة اضطرابات الشهوة الجنسية التي يشكـل الشذوذ الجنسي (السحاق) عاملاً مهماً جداً فيها. وقـد يكون هـذا الشذوذ كـامناً أو ظاهراً. وفي الحالين يعتبر المسؤول الرئيسي عن البرودة الجنسية التي نصادفها عند العديد من النساء، وهو يقوم في الواقع بدور مهم وخطير في فشل التطور العاطفي الأنثوي. ولكي نفهم معناه ينبغي أن ندرك أن أكثر من نصف النساء، في أيامنا هذه، يبقين متعلقات بمـرحلة طفوليـة من الحياة الجنسيـة ويحملن أزواجهن وشركاءهن وأطفالهن على معاناة نتائج ذلك.

وفي أغلب الأحيان، يكون هذا الشذوذ كامناً وناجماً عن تطور ذات خارقة كابحة تحتم، كما رأينا في الفصل الثاني، تعلقاً بالأم. وحينئذ تظهر، وبشكل خاص، بوساطة مجموعة من ردات الفعل النفسيـة المميّزة لـرفض للحساسيـة الأنثوية. فإما أن تتصرف المرأة صراحة كصبي، في الهيئـة والمشية والـطبع، وإما عندما تتضح أنوثتها رغم كل ما يناقضها، تخفيها وعند الحاجة تـدمرهـا، الأمر الذي يسبب في أغلب الأحيان نزاعاً خطيراً لتوازنهـا النفسي والعضوي. وسنرجع إلى هذه المسألة في ما بعد عند التصدي للعلاقة بين الشذوذ النفسي الجنسي (السحاق) الكامن الخفي وأعراض الفشل.

إن الشذوذ الجنسي (السحاق) الواضح والظاهر عند المرأة يقوم بدور أقل أهمية منه لدى الرجل. فهو يوجد فعلاً لكنه لا يأخذ طابعاً خطيراً إلا نادراً، أما عند بعض الرجال فإنه يكون في خدمة الحاجة إلى العقاب. إنه بشكـل عام، ملطف جيداً بوساطة الجهاز العضوي الأنثوي، ومن المألوف أن نرى نساء قد عانين من أهواء سحاقية يتطورن في ما بعد نحو اشتهاء الرجال. ويُفسر هـذا الأمر بكون الماسوشية الأنثوية تتجسد بالأحرى بوساطة ظاهرات من نسق آخر. فهي تستخـدم في أغلب الأحيان شـريكاً ذكـراً قادراً على التجـاوب مـع هـذه الحاجة. وقد تتوجه كذلك نحو الفشل الاجتماعي، كما رأينا ذلك لدى الرجل، إذا لم يكن المرض العضوي هو الذي يخدمها ويؤمن لهـا ذلك. وعـديدة هي الأمراض التي قد تزرعها الماسوشية، وخاصة في الحالات التي يـدفع فيهـا المرأة عدم قبولها بأنوثتها وخوفها من الجماع، إلى مقاومة نفسها، لكي تتهدم

أخلاقياً وبدنياً، وفي كتاب رينيه لافورغ «عيادة للتحليل النفسي» وصف لنموذج من النساء الماسوشيات. وهذه الماسوشية عادة، على علاقة مع شذوذ جنسي قوي وخفي. وهي تتطور بشكل خاص عند الأفراد الموهوبين والذين هم ضحايا ذات خارقة والدية مناقضة لهم. وهذا ما نراه مثلاً لدى امرأة كانت أمها باردة ومتسلطة وسادية، أو أيضاً عندما خلقت عدة صدمات، حدثت في الطفولة (اضطرابات الفطام، الإسهالات الخضراء، أمراض) رضى خاصاً بالألم والمرض.

إن البرودة لا تظهر في العلاقات الزوجية، بل غالباً بوساطة لامبالاة خاصة تجاه الأولاد. وهذه البرودة أو اللامبالاة، في بعض الحالات، قد تصل إلى حد الكره، وخاصة عندما لا يكون هذا الكره إلا النتيجة المباشرة لكره امرأة مسترجلة للرجل. ومن المألوف إلى حد ما أن نرى أمهات يعذبن أطفالهن، يخترنهم كضحايا ويصببن عليهم عدوانية ساخطة أبداً عبر خلافات مع الزوج أو المحيط.

ولكن كيف يتصرف الطفل في مواجهة عدوانية مماثلة؟

بما أن الطفل عاجز عن الحكم على أبويه، فإنه يعتاد على اتهام نفسه بأنه سبب السوء. فهو يعتقد أنه قادر، بسلوك ملائم، على كسب محبة الوالدين فيحمل مسؤولية الخطإ، فضلاً عن العقاب. وبهذه السيرورة يسعى إلى أن يستعيد سمعته، إلى إلغاء خطإ الآخر لكي يكون له الحق بالحصول على المحبة، على الدفء والسلام الذي يحتاج إليه إدراكه ليتفتح. ولن ينجح بكل تأكيد في تغيير والديه، ولكنه يتألم من أجلهما وبوساطتهما، ولن يحبهما إلا بشكل مفرط، آملاً أن يستطيع مثاله أن يغيّرهما، ويهدئهما. وهكذا يولد هذا الميل المشؤوم إلى أن يكون ضحية، هذا الميل الذي نسميه ماسوشية. وهكذا أيضاً يتم تعلّق الطفل بالوالدين، ويصبح الطفل عاجزاً عن ملاحقة هدف آخر غير هدف كسب حب الوالدين. ويسبب هذا التعلق لدى الفتاة موقفاً خاصاً جداً تجاه أمها العدوة، فهي تحبها ولذلك تميل إلى نقل هذا الحب إلى كل النساء اللواتي يشبهن أمها ويتصرفن كعدوات. باختصار، إنها تحب عدواتها وستكون

عاجزة عن الارتباط بصديقة حقيقية، فالميل إلى المعاناة والعادات المقتبسة يمنعها من أن تكون سعيدة، ومحبوبة، ويمنعها من النجاح في ميدان آخر غير التعاسة.

وأخيراً ستميل هذه الفتاة إلى حرمان نفسها من الغذاء، فالصيام وسيلة ممتازة للعقوبة والتوبة. فهذا الميل إلى الصيام، وخاصة في الفترة التي يحوّل فيها البلوغ البنت الصغيرة إلى فتاة شابة، قد يصل إلى حد الرفض الكلي لأي غذاء، ويسبب فقدان شهية عقلي يتوافق مع الطموحات المثالية لروح متلهفة إلى التطهر وإذلال الجسد. فكم من عذارى، بدون الحاجة إلى الهرب في رهبنة، ضحين هكذا بشبابهن، وجمالهن وحياتهن من أجل أم خلقت لديهن الواجب القاسي في رفض لذة العيش وفرحه.

وعندما يجد الطبيب نفسه في مواجهة حالة مماثلة، من النادر أن يفهم الأسباب الأخلاقية التي سببت هذا الموقف تجاه الحياة، ولذلك سيحاول عبثاً عقلنته. وكل ما يمكنه فعله هو إمداد المريضة بالقوة، معتقداً، أنه بهذه الطريقة ينقذ كائناً محكوماً من كل جانب بذات خارقة أمومية. إذاً يمكن التصور بسهولة كيف يتوصل أطفال إلى تطوير رضى حقيقي بالمرض. أليس هذا المرض غالباً الوسيلة الوحيدة لإرغام الأم على الليونة والعناية بهم؟ ألا يسمح كذلك بالتألم بصمت وبرفض الحياة؟. إن الفتيات، في هذه الحالة معرضات بشكل خاص للإصابة بالسل الرئوي، وخاصة عندما يكف جسمهن، المضنى من الصيام، عن مقاومة الميكروب. فهنّ يكنّ مصابات بمرض يتلف الجسد شيئاً فشيئاً، ويمنحه هذه الهيئة المرضية المميّزة لشباب ترك الموت عليه طابعه، هذا مثال الحياة الذي تنوي هذه الكائنات تحقيقه. الصدر المهتز من جراء سعلة جارحة ممزّقة، الدم المبصوق باستسلام، النظرة التي يضيئها بشكل غريب فرح التألم، تعبير عن الصفاء في الوجه الذي يقدم وحده الإنجاز الكامل للتضحية الشامله إلى أولئك الذين اختاروا الموت كصديق حبيب، ها هي الدموع التي يستخدمها هذا الشباب المحكوم عليه بالفناء ليتهم ولينتقم لنفسه بوساطة تأنيب الضمير الذي يولّده، في قلب أم سادية، مشهد الألم والمعاناة والعذاب.

وهكذا تأخذ فتيات كئيبات على عاتقهن جريمة أم رفضت تغذيتهن بشكل طبيعي عندما كن رضيعات، ولكن أليست هذه الجريمة نفسها نتيجة نشاط ذات خارقة تجسدت عبر أجيال لتحطم دون شفقة، في لحظة معينة، بعض أغصان شجرة عائلة ما؟

إن العديد من النساء الشابات الماسوشيات، بدلاً من اختيار الصيام أو المرض، يندفعن في مغامرات جنسية، وفي أغلب الأحيان مع رجال مضطهدين يحلّون محل أم سادية. وقد رأينا قبلاً (في الفصل السابق)، إلى أي حد يكون بعض الرجال أعداء للمرأة. ولكن من الصعب أن نتخيل البؤس الذي يمكن أن يؤدي إليه الحب في هذه الحالات. فبعض النساء يتم استغلالهن وسرقة كل ما يملكن، وبعضهن الآخر يلذن بالمرض الجنسي، القادر على إرضائهن، مثل واحدة أو أكثر من العلاقات مع زوج أو قرين. ونجد بعض النساء، اللواتي يجررن بشهوة جمالهن إلى الوحل، متعطشات إلى الدنس والذل، وعاجزات عن التوجه نحو شيء آخر غير حياة فاشلة كلياً. وفي بعض الأحيان الطفل هو الذي يصبح وسيلة التعذيب أو الانتحار؛ فطفل غير مرغوب فيه، وهو غالباً طفل غير شرعي، يشكل تهديداً بالفضيحة. أو أيضاً، وبالتحديد، بوساطة سلوك مناسب، تنجح الأم في أن تجعل من هذا الطفل كائناً مضطهداً، وإلاّ ضحية ستضطهدها بتوبيخ الضمير الذي تكوّنه.

ويوضح هذا الأمر لماذا تكون مثل هؤلاء الأمهات عاجزات عن الاهتمام بتربية الطفل. فعادة، لا تشمئز الأم من العناية به، من غسله وتخصيص آلاف المداعبات له، وهي أمور تميّز الحب الأموي. أما المرأة الماسوشية، برغبتها في التطهر، تأنف من البراز والغائط. وبحجة جعل الطفل نظيفاً، تخضعه لنظام قاسٍ وتجعله مسؤولاً عن أقل لطخة، وأقل نسيان. باختصار، إنها ترهبه وتنمّي فيه، منذ الأشهر الأولى من حياته، شعوراً خطيراً بالذنب. ويتجاوب الطفل معه كأنه يستطيع أن يكون مسؤولاً عن عدم قدرته الطبيعية على حبس بوله، ولأنه عاجز عن التجاوب مع ميول النظافة لأم مريضة.

نعرف كذلك حالات، حدث فيها، بفضل رقابة متواصلة لكل حاجات

الطفل، أن أصبح هذا الطفل نظيفاً بعمر أربعة أشهر أو خمسة، ونرى بوضوح أشد ماذا يمكن أن تكون النتائج المشؤومة لهذا التهذيب. ولنضف إلى ذلك أن هاته الأمهات، غالباً، يصررن على الرغبة في تغذية أطفالهن، رغم النوعية السيئة لحليبهن أو كميته الضئيلة، وسنفهم بذلك العواقب المتعددة التي يتعرض لها العديد من الأطفال. وبشكل عام يتألم الصبيان أكثر من البنات، ليس بسبب ركاكتهم الواضحة، بل بشكل خاص لأنهم يثيرون أكثر كره الأم الماسوشية والسحاقية. فبمبادئها عن النظافة والنظام، تسعى إلى أن تخنق في المهد كل مظاهر الرجولة في الصبي. أما بالنسبة إلى ما قد يتبقى لديه من ذلك، فإنها ستشن عليه حرباً ضارية، لتحطيم «رأسه العنيد»، لإذلاله، وحمله على الشعور بالعار بالنسبة إليه، زارعة فيه مثالاً للطهارة والنعومة الأنثوية ليس لها أي قاسم مشترك مع التطلعات الطبيعية للذكر. إنها تسعى بكل قواها لخصيه، من الجهة المعنوية على الأقل، لأنها لا تستطيع فعل ذلك جسدياً. ويتفاعل الصبي مع ذلك بأشكال مختلفة، وفق مزاجه الوراثي. فهناك صبيان يصبحون «فتيات» مع كل ميولهن. فهم يكبرون وفق ما تريد الأم، مع اهتمام خاص بالطهارة والنظافة، وحاجة إلى الظهور مسالمين وهادئين ورقيقين. وتسمح لهم الأم غالباً بإطالة شعرهم كالفتيات، وتلبسهم فساتين بدلاً من «البنطلونات». ولأنهم واسعو الخيال، نجدهم قادرين على التأقلم مع هذا النوع من الحياة، وعلى أن يصبحوا مثقفين محبين للتأمل أو فنانين، ولكنهم يصبحون في أغلب الأحيان لواطيين ماسوشيين يفشلون في كل ما يشرعون فيه في حياتهم. وعندما يكون الصبي ذكياً وموهوباً ورقيقاً فإنه يرد بعدوانية كبيرة على المعاملة المذلة التي تفرضها عليه أمه. وهذه العدوانية التي لا تسمح لها الظروف بالتعبير بشكل صريح أمام أم، كل شيء بالنسبة إليها تتخذه حجة للمعاقبة، لا يملك الصبي إلا أن يوجهها ضد نفسه أو يسقطها على ضحية ما: على كبش المحرقة.

وفي هذه الظروف ينشأ الطبع الذُهاني(١)، بمظاهره الخاصة والمتعاظمة

---

(١) الذهان: مرض نفسي من أعراضه الرئيسية الهُذاء الثابت مع نزعة إلى الشك والارتياب.

وعندما يتعلق الأمر بعبقري، ذي شعور مرعب بالاضطهاد عندها يتحول إلى الجنون. ونجد أن عدداً كبيراً من المدعين يعيدون في حياتهم خلق النزاعات التي يسببها الحرمان والآلام التي فرضتها عليهم أمهاتهم في طفولتهم. ومنذ تلك المرحلة إلى أن يصبح لا اجتماعياً ليس ثمة غير خطوة واحدة. ونحن نعلم كيف أن السلوك الأمومي، بوساطة الذات الخارقة، يتوصل إلى أن يشكل جزءاً من المرء. وقد رأينا أنه في حالة الكآبة أو فقدان الشهية يصل إلى حد رفض كل غذاء. فيحوِّل تجاه نفسه الكره الذي كان من واجب الأم التي عذّبت طفلها أن تطلقه فيه حتماً. وفي حالة الذُهان، تأخذ الذات الخارقة كذلك على عاتقها السلوك الأمومي تجاه الصبي. فيعادي هذا الصبي نفسه، لكنه يتصرف بطريقة خاصة جداً، إذ يبقى نموه العاطفي غير كامل.

وتحت تهديد ذاته الخارقة يكون المرء في الآن نفسه مرعوباً وثائراً على الدوام. ويتصرف كأن قوة شريرة تضطهده في كل لحظة، وتمنعه من كل استرخاء، وكل راحة، فارضة عليه بلا انقطاع رقابة على كل أفعاله. فأقل هفوة قادرة على إثارة قلقه وجعله مذنباً. وهكذا يحافظ على مخاوف طفولته والشعور الحاد بالذنب التي أثارتها أم مضطهدة في ذاته. ولكنه إذا كان ذكياً وموهوباً، فسيتعلم أن يختلق أسلحة ضد القلق والشعور بالذنب. فهو يطور ذكاءً موجهاً بشكل خاص نحو هدف واحد: هدف تهدئة إحساس مصدوم ومبلبل بشكل عميق والدفاع عن نفسه ومقاومة اضطرابات وجدان متعلق بمرحلة بدائية تماماً من حياته.

ولكن كيف يتوصل الشخص الذهاني إلى هذه النتيجة؟

إنه يسعى إلى الدفاع عن نفسه بوساطة نوع من قلب الوضع. فينكر الشعور بالدونية، الناجم عن توقف نموه العاطفي. وسيحاول أن يقوم بدور الرجل الاستثنائي النادر، لكي يبدو كبيراً وفي وضع لائق في نظره هو نفسه. فيسعى إلى جمهور يمدحه باستمرار. فإذا كان يمتلك موهبة ممثل، فسينجح بشكل ممتاز وعجيب في القيام بهذا الدور، وفي خداع نفسه والآخرين. ولكن كيف يقاوم الرعب؟ هنا أيضاً سيكون المحور قلب الوضع. وينبغي أن يكون

الآخرون هم الذين يرتجفون وليس هو نفسه، ولهذا يكفي أن يستخدم كل الوسائل التي قد يمتلكها الرجل لإرعاب محيطه وبيئته.

إن القلب نفسه ينطبق على الغرائز السادية، وعلى التعطش إلى الانتقام وإلى الدم، وهي الأمور المميِّزة لتوقف النمو العاطفي لدى الذُهاني. إذ سيتم اضطهاده باسم مثال اجتماعي، وأخلاقي، وديني، وسيكون لديه، كما قال ليون دوديه (Léon Daudet) شغف بالتنبوء واللعن والكره. وهكذا يتوصل، بوساطة هذا القلب، إلى إعادة إسقاط معاناته الخاصة على ضحية ما، وإلى التحرر بفضل تضحية كبش محرقة. فينجز بوساطة هذه السيرورة نوعاً من الشفاء الذاتي، بشرط العثور على ضحية. أما من دونها فيضيع. وهؤلاء هم بشكل عام الرجال الذين يختارون نساء ماسوشيات كطغاة ليدبرن تعاستهم. وبين هؤلاء أيضاً نجد بعض نماذج الثوريين، كروبسبيير مثلاً الذي سنتكلم عليه في فصل قادم. ولكن لا يصبح ذُهانياً كل من يريد. فتحت تأثير الأم، يصبح أغلب هؤلاء الصبيان أشخاصاً فاشلين غير موفقين. ويعيش الكثيرون منهم كمقامرين وكأشخاص مهملين، وقليل جداً منهم ينجح في التسامي بتعاسته، كما فعل: فرلين.

وهكذا نجد أنفسنا في مواجهة بعض مظاهر أعراض الفشل وعلاقاته بالحياة الجنسية. وسواء أكان هذا الفشل للتطلعات العائلية لشخص ما، ولتطهيره يتحقق بوساطة المرض أو البؤس الاجتماعي، أم إن هذا الفشل يحصل أحياناً بوساطة الغير، من وجهة نظر طبية، فإن الأمر يتعلق بأعراض المرض نفسه، ولكن، من وجهة نظر اجتماعية، هناك فرق شاسع بين الأشكال التي يتخذها الفشل العاطفي، حسبما يجد الفرد نفسه، من جراء هذا الفشل، خارج المجتمع، أو حسب الغنى الذي قد يمثله هذا الفشل لجميع الناس.

ففي حالة بعض كبار الفنانين، أو القديسين، أو بعض الدعوات الأخلاقية أو أيضاً بعض كبار العسكريين مثل نابوليون، فإن المرء، رغم الحظر الداخلي بأن يكون خصباً على منوال الرجال، يجد سبلاً ملتوية لنقل مادته وللتقرب من

أمثاله بوساطـة نشاطه الاجتماعي، قلبياً أو فكرياً. ولا ننسى، في هذا السياق، نمـوذج صونيـا (Sonia) الـذي وصفـه دوستـويفسكي[1] في روايتـه المشهـورة **الجريمة والعقاب**. فصونيا الشابة، المومس الـواقفة في زاويـة الشارع، ابنـة رجل سكير وأم مصابة بالسل تأخذ على عاتقها، على منوال قديسة الكرمـل، الإثم والعقاب العائدين إلى راسكو لنيكوف، القاتل الذي أراد تقليد نابليـون، فتصحبه إلى سيبيريا لكي تكفّر معه عن جريمته وتحرر روحه.

أفلا يكوّن الألم علاقة مثيرة بين الأشخاص؟ ألا توجـد محاسبـة خارقـة تسمح لتضحيات المرء بأن تحرر روح امرىء آخـر؟ وألا يتوافق هـذا الإيمان الورع مع الواقع الغريب الذي يتيح في حالة الشخص الذُهاني أن يتم إنقاذ هذا الشخص فعلاً على يد ضحيته؟



(١) فيـودور دوستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١): روائي روسي شهير ويعتبر من روّاد التحليـل النفسي.

أعراض الفشل وانعكاسها في الحلم

إننا نتصور نمو الشخصية كتوليف ضخم للتجارب العاطفية. ويمكن أن يتم هذا التوليف باتجاهات مختلفة، بحسب كون الميول المتنوّعة لليبيدو المساعد على هذا التوليف متوافقة في ما بينها أو متجابهة، مخاطرة بأن تشل نفسها في نشاطها وتشوه عملها أو تخربه. فقد رأينا كيف أن طاقة المرء، تحت تأثير العوامل الكابحة في الوسط العائلي، يمكن أن تكون مستخدمة لتشجيع ما هو مضاد لنموه على المستوى الفردي والجماعي، ولإحداث نكوص الشخصية وارتدادها. وقد استعرضنا مبحث أعراض الفشل الذي قد يظهر بوساطتها هذا النكوص، حسب حدته ودرجته.

إننا نرغب الآن في دراسة علاقات أعراض الفشل مع الحلم. ليس لأن الحلم يهمنا هنا بشكل خاص مثل أعراض الفشل، بل لأن ممارسة التحليل النفسي قد برهنت لنا أن دراسة الحلم تتيح ملاحظة كيف أن الميول المختلفة لليبيدو يمكن أن تتجابه في اللاشعور، وتولّد نزاعات قبل أن تتجسد هذه النزاعات بطريقة واضحة للفرد بوقت طويل. إذاً دراسة الحلم تعطينا وسيلة للقيام بنوع من الإحصاء للإمكانات الكامنة للحياة النفسية، وهذه الإمكانات قادرة في بعض الحالات على التحكم بأعراض الفشل. إنها تسمح لنا بالتنبوء في أي جانب سيكون النصر، وفي أي اتجاه سيتم التوليف اللاحق لشخصية ما، وبأي نشاط سيستطيع هذا التوليف التحقق.

إننا نمتلك هنا وسيلة دراسة من الطراز الأول لكي نمسك بحيوية بتيارات

حياة الإنسان، بتشخيص الاضطرابات، والجيشانات أمام العوائق، والفشل عندما لا يجد امتداده مخرجاً إلا عبر الأنقاض ومع المخاطرة بتحطيم بنية الشخصية، يبحث عن طريق بعد تخليه عن الاتجاه الطبيعي. فكيف يستطيع كل هذا أن يظهر وينقل بوساطة الصور الشاردة العابرة وغير المنطقية لحلم نمسك أحياناً ببعض بقاياه التافهة والمفككة بحيث نأبى أن نأخذها على محمل الجد وأن نعطي معنى لهذا الذي يبدو ظاهرياً خالياً منه؟

إنها مسألة صعبة ينبغي شرحها لأولئك المعتادين على اعتبار الأحلام من نفايات النشاط النفسي. ومع ذلك نود أن نحاول تفسير الحلم، لأن هذا الأمر يؤدي بنا إلى جذب انتباه القارىء إلى مجموعة من مظاهر الفعالية البشرية التي نجهلها بشكل عام. في حين ينبغي أن نعرفها جيداً إذا أردنا فعلاً معرفة بوساطة ماذا ينقل إحساس الإنسان وما الذي يقوده خارج ذاته في حين أنه يعتقد أنه يوجه حركته ويسيطر عليها. إلا أن من المستحيل تكوين فكرة عن مكوّنات نشاطنا النفسي والأخلاقي والاجتماعي إذا لم نأخذ بعين الاعتبار ما تفضي إليه إلا على مستوى وعينا فقط، إذا لم نرجع الميول والرغبات والقرارات والأفعال والمشاعر إلى نقطة انطلاقها، مع العلم أنها الطرق التي بوساطتها تظهر فعاليتنا.

ولنفهم سعة المسألة المطروحة، لنتذكر أن هذه الفعالية تتجسد، على المستوى الفردي، بوساطة تكوّن الشخصية وعملها. كما تظهر على المستوى الاجتماعي بوساطة مجموعة من العلاقات والتبادلات بين أفراد جماعة ما. وتؤدي هذه العلاقات والتبادلات إلى نتائج متعددة على الصعيد الديني والأخلاقي والعلمي، ولهذه النتائج انعكاساتها على كل حضارة بمُثُلها العليا وتنظيمها الاجتماعي واكتشافاتها ونضالاتها وحروبها وكوارثها الجماعية.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن دراسة الحلم تؤالفنا مع نسق خاص من أشياء الحياة النفسية التي عادة ما تفلت منا، فتظهر لنا تعدُّد الشخصية البشرية التي ينقل بوساطتها العالم المصغر الذي يمثله كل فرد، بإمكاناته الكامنة المؤهلة لكي تتجسد في الحلم والحياة. ولا تمثل هذه الحياة حينئذ، من وجهة النظر

هـذه، إلا التجسيد المحسـوس والملموس للقـوى والميول نفسهـا التي كانت تتخذ في الحلم الأشكال العـابرة وغيـر المنطقيـة لعالم يتكـوّن. وحتى الآن، الشعراء هم بشكل خاص الذين شبهوا الحياة بحلم، كمـا أنهم معتادون على استخدام الناطق بلسان قوى الروح التي يصورونها. لكن دراسة الحلم تقـودنا إلى تبنّي تصور مماثل. فهي تعلمنا أن نغض النـظر عن مفهوم الـزمن ومفهوم الفردية، وتظهر لنا كيف أن عوالم نفسية، في بضع لحـظات، تخلق وتتهدم، متماثلة مع ما يحدث في الحضارات خلال التاريخ. وهكذا إذ يُستدْرَج الإنسان إلى التفكير في أجيال، يتوصل إلى أن يقيم في مجموعة واسعة من الظاهرات التي ليس ماضيها وحاضرها ومستقبلها إلا مظاهر متغيِّرة. وتتحكم بهذه الظواهر قوى وقوانين تجعلنا بدراسة الحلم نتعرف، بعملهـا عبر الأفـراد، إلى الأجيال والقرون بالمعايير نفسها المميّزة لفعالية ليبيدو البشر.

ويعود الفضل إلى شرنر الألماني، ثم إلى فرويد ومدرسته في إعطاء دراسة الحلم المكانة التي تحتلها اليوم في الحركة العلميـة المعاصـرة التي تضع في أغلب الأحيان الأشياء الصغيرة جداً مثـل الذرات على المستـوى نفسه الـذي تضع فيه الأشياء الكبيرة جداً مثل الأكـوان. ومن الصحيح أيضـاً أنه قـد تمت معرفة رمزية الحلم وإلى حد ما دلالته العاطفية قبل فـرويد. يـدلنا على ذلـك كتاب شوبرت المنشور سنة ١٨١٥، فضلاً عن كتاب شرنـر عن رمزيـة الحلـم المنشور سنة ١٨٦١. وقد اعترف فرويد نفسه بذلك وبجهود شرنر واستحقـاقه لقب المكتشف الحقيقي لرمزية الحلم، رغم وجود اختلاف لا يستهان به بين نظريته ونظرية فرويد، إلا أن من الواضح أن هـذه الأعمال التي سبقت كتـاب فرويد عن الأحلام لم تكن معروفة إلا على نطاق ضيق جداً.

ومع أن كتاب فرويد يبدو لنا اليوم قديماً، وعلى جانب كبير من التشويش، إلا أن هـذا الأمر لا يقلل شيئـاً من قيمته، وخاصة إذا أخـذنا بعين الاعتبـار المرحلة التي كتب فيها. لقد حاول فرويد أن يجعلنا نتآلف مع الموضوع متخذاً غالباً كنقطة انطلاق أحلامه الشخصية. وبسبب الرصانة والصعوبة التي تعـانى غـالباً عنـد تقديم العنـاصر الضـرورية لتحليـل الأحلام الخـاصة، لم يعطنا

المعلومات الضرورية التي تسمح بجعل هذه الأحلام، فعلاً، مفهومة وواضحة. لكن تحليلها الناقص وغير المُرْضي يسمح لنا، مع ذلك، أن نعرف كيف ينبغي التصرف لتفسيرها. فليست أفضلية هذا الكتاب، إذاً في أنه يفسر لنا أحلاماً، بل في أنه بالأحرى يقدِّم إلينا نظرية لتفسيرها؛ وبفضل هذه النظرية والتجربة الشخصية المساعدة، نستطيع معرفة دلالتها. وحالياً، حانت اللحظة التي نستعيد فيها هذه المسألة بمجموعها، ونخصص لها دراسة نشعر بعمق بالحاجة إليها. ولن نستطيع بالتأكيد، في نطاق عملنا، الدخول في تفاصيل هذه الدراسة؛ بل سنكتفي بعرض المسألة في خطوطها العريضة، دون أن يغيب عن نظرنا الهدف من هذا الكتاب.

لقد أعطانا كتاب فرويد تفسيراً للحلم، ومع أنه غير كافٍ اليوم، فإنه قد سهل فهم المسألة. لقد برهن أن الحلم، هو بشكل ما، تحقيق «حلم» أي رغبة، يستهجنها الوعي عادة وينبذها، أو على الأصح ترفضها الرقابة المتيقظة دائماً في الفرد، حتى عندما يكون هذا الفرد في حالة النوم. فتسعى هذه الرغبة إلى تحقيق إشباعها بطريقة متنكرة ومقنّعة، رغم العوائق التي تواجه بها الرقابة تحققها. فالتنكر إما بوساطة رمزية الحلم، وإما بتنكر الفكر أو المشاعر، وإما بوساطة تكثيف عدة صور في صورة واحدة. وهذا التنكر، المرهف غالباً، يُحصل عليه بوساطة تقنية حاذقة، ترتكز على وضع اللمسة العاطفية على التفاصيل، وعلى إهمال تعابير الفكر التي يمكن أن تخون الانفعال الحقيقي، وعلى قلب معاني الأشياء لكي يصبح من الصعب التعرف إليها. وتسمح هذه التقنية بتجنب قسوة الرقابة المتعارضة مع محتوى بعض الأحلام، والانزعاج الذي ينتج عن قيام الرقابة، في حال تيقظها بقطع الحلم الذي يصبح هكذا، بحسب فرويد، حارس النوم الهادىء.

لقد توجب أن يتم اكتشاف الذات الخارقة، والأنا، والهو، أي اكتشاف السلطات النفسية الثلاث الحاضرة دائماً في الفرد، لكي يتاح لنا اعتبار الحلم كنتاج نزاع بين هذه السلطات الثلاث، وللتوصل إلى استخدامه كوسيلة لتشخيص الأمراض. ونحن إذ نرى مع بشون (Pichon) أن الحلم حالة نزاع بين

السلطات المختلفة، نُدخل في تصوراتنا مفهوم تعدُّد الميول أو الرغبات الحاضرة، ونستطيع التكهن بمخرج النزاع، الذي قد يتم بوجهة طبيعية أو مرضية. فيضع الحلم، من وجهة النظر هذه، سلطات مختلفة في الحياة النفسية في حالة مواجهة، سلطات يشخصها ويعبّر عن ميولها أو رغباتها المؤهلة للتوافق في ما بينها أو للتواجه. إنه يظهر لنا كيف يتنظم، وفق تأثير هذه السلطات، إما تعاونها في ما بينها، وإما قتالها، وكيف يظهر ذلك، بوساطة أي تسويات، أي تصادمات، أي أزمات. وهكذا نستطيع معرفة طبيعة النزاع الذي نحن بصدده، وقياس القوى المتواجهة، وتكوين فكرة عن دورها الطبيعي أو المرضي والممرض في البنية النفسية للفرد. إذاً يصبح الحلم التعبير عن نزاع نفسي، ويستطيع أن يطلعنا على طبيعة هذا النزاع.

فكيف يظهر في الحلم تأثير السلطات الثلاث النفسية هذه؟ ولنستخدم لفهم ذلك أحلاماً بسيطة وسهلة نسبياً على التفسير. وهذا مثال عنها. حلم رجل أنه يركب دراجة ويتجه نحو حديقة جميلة تبين عند مدخلها أن عجلة الدراجة الأمامية «منفّسة». لقد تردّد في التوقف، لكن الحارس القائم هناك تدخّل حينئذ ولفت انتباهه إلى هيئته. وقد تحقق الحالم أنه يرتدي قميصاً وهو شبه عار. فترجل عن الدراجة، وعاد أدراجه، وتوجه إلى مرآب حيث طلب من صاحبه إصلاح عجلة الدراجة.

إن هذا الحلم، النموذجي إلى حد كبير، مألوف وكثير الوقوع، مع تغييرات هنا وهناك، عند الرجال الذين يشكون من عجز جنسي، حيث عجلتهم الأمامية تتراخى قبل الدخول إلى حديقة ڤينوس الجميلة. وهكذا نرى في هذا الحلم، ذات المرء مصورة بوساطته هو نفسه. إنه يتعرف إلى نفسه، يريد أن يركب دراجته ويدخل تلك الحديقة. أما الذات الخارقة فيمثلها الحارس، أي الناطق بلسان الرقابة، التي منعته من الدخول. أما الهو، فبكل وضوح زوّد الحالم بالنزوات التي ينبغي إشباعها، أي بالنزوات الجنسية، حاثة الأنا على التحرك لدخول الحديقة.

في هذا الحلم، هناك نزاع ما بين الأنا والذات الخارقة أولاً، إذ تتدخل الذات الخارقة لمواجهة الأنا، ولجعلها مذنبة بوساطة فكرة هيئته غير اللائقة، ولحمله على التخلي عن مشروعه. والرجل إذ لم ينجح باتجاه المرأة، توجه نحو الرجل، الميكانيكي الذي أراد أن يعهد إليه بعجلته لإصلاحها وإعادة نفخها. هناك نزاع إذاً يفضي إلى فشل مشاريع الأنا. وتحت تأثير الذات الخارقة تتخلى الأنا عن الاتجاه نحو المرأة لتتوجه إلى الميكانيكي. فيلزم النزاع المرء بالسير في اتجاه مخالف للاتجاه الطبيعي، أي في الاتجاه المعكوس. ونخال حينئذ أن هناك نكوصاً للذات نحو المرحلة اللواطية، تماماً كما في الحياة، حيث يصبح المرء، تحت تأثير الذات الخارقة الكابحة، لوطياً بدلاً عن أن يكون طبيعياً. فما هي تداعيات الأفكار التي تضيف إلى المحتوى الظاهر للحلم محتواه الخفي؟ للحصول عليها ينبغي أن نسأل الحالم عما تجعله الأوضاع المختلفة لحلمه يفكر. ولنبدأ بالحديقة.

إنها تذكّره بنزهة قام بها عشية في حديقة عامة التقى فيها امرأة جالسة على مقعد. ولنسمع الكلام: «عندما رأيت هذه الفتاة الشابة، أردت أولاً متابعة الطريق، ثم تساءلت عما إذا كان بإمكاني الجلوس إلى جانبها وبدء المحادثة، وفي هذه اللحظة، لا أدري لماذا، جاءتني الفكرة أنه قد يرانا أحد، وأنه سيكون من غير الملائم التكلم مع فتاة شابة ترعى طفلاً كان يلعب بالقرب منها. وقد لفت هذا الطفل انتباهي، فاهتممت بلعبه، ولكن، وخوفاً من أن أبدو سخيفاً بالتوجه إليه، تابعت طريقي مؤكداً لنفسي، بعد مئة متر منهما، أنني سأعود غداً، ولكن لن أكون مغازلاً للنساء».

وماذا يفكر حالمنا بخصوص حارس الحديقة؟

«الحارس؟ كان يرتدي بزة رسمية، وكان يبدو لي مسناً جداً. وأعتقد أنه كان ملتحياً ولكنني لست متأكداً من ذلك. فالبستاني الذي حدثتك عنه يا دكتور، بستاني المكان الذي أمضيت فيه طفولتي الأولى، في وادي السمارن كان ملتحياً. وأنت تعرف أنه

لم يكن يحبني كثيراً، وأنه كان يريد أن لا ألمس الأزهار أو الخضرة. وكان يحقد على والديّ اللذين منعاني من معاشرة ابنتيه الصغيرتين اللتين كنت أرغب غالباً في اللعب معهما. وذات يوم، فاجأتنا أمي ونحن نصنع معاً قوالب حلوى من التراب ونبول فيها. فعاقبني والدي الذي وجد لعبتنا، بشكل غير مفهوم على الإطلاق، وقحة وغير لائقة، وبموقفه هذا جرح شعور البستاني الذي انتقم لنفسه مني، في حين كنت أنا بلا مقاومة أو دفاع. ثم مع مرور الوقت، أرخى أبي لحيته. وكان كما أخبرتك، رجلاً متسلطاً، يغضب بسهولة لأنه لا يمتلك أية سلطة فعلية. أما أمي فكانت هادئة وقاسية. ولم تكن تحب أن ألعب مع الأولاد الآخرين، وأخافتني في أغلب الأحيان بتهديدي أنها ستروي كل شيء لأبي. ولم أكن أشعر بالراحة إلا مع الخادمات أو مربيات الأطفال عندما يهتممن بي، ولم تكن تجري الأمور هكذا دائماً. غير أني أتذكر واحدة منهن كنت أُرسل معها غالباً للتنزه. وكان لديها حبيب، وهو موظف جمرك، كما أعتقد، جمركي أو شرطي. في كل حال كان يرتدي بزة رسمية».

ولنرَ الآن ما يمثله الوضع «الوضع غير اللائق في الحلم»؟ هذا الأمر يحملني على التفكير في أشياء قبيحة جداً. فأنت تعرف أنني بقيت فترة طويلة أبول في فراشي إبّان طفولتي. وقد حاول والداي مكافحة ذلك بجعلي أشعر بالعار. فكانا ينشران الشراشف عند نافذة غرفتي ليظهر للخدم ما قد قمت به. وكانا يتحدثان عن ذلك أمام أعمامي وعمّاتي والأولاد الآخرين عندما يحضرون مصادفة إلى بيتنا. «لا تلعبوا مع پول الذي بال في سريره». هذه اللازمة لا تزال ترن في أذني. وقد بدا لي ذلك الأمر ظالماً جداً! وقد خطر لي أن لا أنام طوال ساعات لأتجنب أن يحدث لي ذلك، وأخيراً، وأنا منهك أغرق في النوم وتحدث الكارثة. ومن جهة أخرى، اليوم أيضاً عندما أدخل إلى صالة، أشعر دائماً أن لباسي ليس منظماً، وقد توصلت إلى أن أرتدي ثيابي بتدقيق كبير، لكن هذا الأمر لم يفد شيئاً في طمأنتي. إذ كان يتملكني خوف وخجل لا يُقهر ان عندما يطلب مني الكلام أمام حشد، أو عندما اضطر إلى التبوّل في مبولة عامة. بحضور رجال آخرين».

والآن، الميكانيكي؟ «الميكانيكي؟ لنر، أعتقد أنه كان ذا مريول أبيض مثل الصيادلة في حوانيتهم أو الأطباء في مستشفاهم. إن زوجتي ترتدي أحياناً مريولاً أبيض عند قيامها بأعمالها المنزلية. وأذكر أن ذاك المريول كان يناسبها جداً، وأعطاني بعض الأفكار أحياناً. فكنت أطلب منها أن تلبسه لتثيرني ثم لتساعدني في عادتي السرية. وكانت الأوقات النادرة التي استطعت فيها مجامعتها، قد حصلت بهذا الشكل. ولكن لسوء الحظ، لم يكن هذا الأمر ينجح دائماً وخاصة أن قدرتي الرجولية تزول بعد بدء الجماع مباشرة.

لنتوقف هنا مع هذه التداعيات التي يقدمها إلينا حالمنا، والتي تشكل في مجموعها المحتوى الكامن للحلم. وماذا نستطيع الاستنتاج منها؟ إن المحتوى الكامن لهذا الحلم يعكس قسماً كبيراً من التأثيرات التي مورست على مريضنا خلال طفولته لعرقلة نموه العاطفي. ويتجسد هذا التأثير التربوي في نشاط الذات الخارقة الكابحة، في حارس الحديقة، الذي صورته ووجهه مقتبسان من الأب كما من البستاني ومن عشيق مربية الأطفال الذي كان يرتدي «بزة رسمية». ونستطيع أن نفهم إلى أية نقطة شاركت كل هذه التأثيرات مجتمعة في إخافة الحالم من نفسه، وفي أن ترسخ في ذهنه فكرة أنه كان من غير اللائق أن يبول، وأن «يلمس» الأزهار، والثمار في الحديقة، وأن يلعب مع الفتيات.. إلخ. ونتبين الانزعاج الجنسي الذي كان نتيجة ذلك، الخجل، والشعور بالدونية والفشل. ونعلم من هو الميكانيكي الذي توجه إليه لينفخ له «عجلته». إنه امرأته في مريول رجل، لأن زوجته رنثى ذات طبع ذكري، كما ينبغي أن نتوقع في مثل هذه الحالة. وما نعرفه عنها يسمح لنا بالقول إنها لا تحب دور المرأة في الجماع، وأنها باردة جنسياً خلال العلاقات الجنسية الطبيعية وتفضل كثيراً العادة السرية المتبادلة أو في ما يتعلق بالصيدلي الطبيب، فقد كانت قد بدأت دراستها كطبيبة أسنان قبل زواجها، وهي دراسة أوقفتها في هذه الآونة، لكنها تفكر جدياً في متابعتها لكي تستطيع في المستقبل احتراف المهنة.

ولنحاول الآن إعطاء معنى للحلم. إنه يريد أن يقول: «أنا أيضاً أود أن أكون عشيقاً لمربية أطفال كتلك المربية التي رأيتها مع الجمركي أو الشرطي،

أرغب في أن أكون رجلاً، جندياً، أمارس الحب علناً دون الحاجة إلى الخجل. ولكني منعت من ذلك، لقد جعلوني رجلاً شائناً، فاشلاً، عاجزاً، لا يمتلك مخرجاً لحياته الجنسية إلا العادة السرية، والفشل لمشاريعه. إنني مرغم على التخلي عن مكانة الرجل والعيش تقريباً كامرأة يثيرونها ويلاعبونها. ولحسن الحظ بقي لي الأمل في رؤية طبيب يشفيني ويعيد نفخ «العجلة» ليتيح لي أخيراً الدخول إلى الحديقة الشهيرة، رغم كل العوائق التي سأصادفها».

إن تداعيات أفكار الحلم لا تعطينا طبعاً كل محتواه الكامن. إذ لو ألححنا لكان حالمنا روى لنا أيضاً الكثير من الأمور. ولكننا علمنا ما أخبرنا به لاحقاً، وهو أن الجمركي الشهير، رجل البوليس أو المسؤوول عن الرُّخَص، الذي كان له على الأرجح علاقات جنسية مع مربية الأطفال وعلى مشهد من الصبي، قد هدّده يوماً بأن يقطع عضوه إذا استمر بالتبول في فراشه، كما أن الشخص الذي علّمه العادة السرية كان يرتدي مريولاً أبيض... إلخ. ولكن لم يكن من الضروري، في نطاق هذا العمل، التركيز على كل مظاهر هذه الحالة. ولنضف ببساطة أن الشذوذ الجنسي، عند مريضنا، كان لاشعورياً، على الأقل قبل التحليل. أما في الحياة العادية، فقد كان متزوجاً بكل لياقة، وأباً لطفل، وعلى رأس قضية متعلقة بمدير، ويبدو أنه كي يستطيع مقاومة الفشل الذي كان يهدّد قضيته اقتنع بمعالجة نفسه.

بكل تأكيد، ليس بوساطة حلم واحد نستطيع القيام بتشخيص للمرض. فبشكل عام، عندما يكون النزاع جدياً وخطيراً، كما هو الأمر في الحالة الحاضرة، فإن جميع منامات الحالم تدور حول المسألة نفسها التي تلازمه لا شعورياً، كجرح يتجدّد كل يوم.

وهناك مجموعة من الأحلام من النمط نفسه الذي ذكرناه أعلاه، تتيح لنا أن ندرس كل حالات التحول والانتقال ما بين الحالات المرضية والحالات الطبيعية. ونحن نحصل عليها إما خلال معالجة واحدة، عندما يتدرج المريض المعالج نحو الشفاء، وإما من لدن أشخاص مختلفين، بحسب كون حالاتهم

قائمة في مواضع متوسطة ما بين اللاطبيعي والطبيعي. وهكذا نستطيع ملاحظة التحولات ما بين الحالات المتنوعة تماماً، كما أن دراسة المقاطع النسيجية لعضو ما، في مراحل مختلفة من نموه، تسمح لنا في نهاية المطاف بإعادة تشكيل قصة تكوّنه.

إننا نعرف إذاً ما هي السلطة النفسية التي تتحول في الحلم بقدر ما يصبح طبيعياً وبأية تأثيرات يظهر ذلك. فالسلطة التي تتحول وتتغير هي السلطة التي يمثلها حارس الحلم عند مريضنا. وفي حالات أكثر خطورة، يرعب هذا الحارس الحالم، ويبلغ حد الإساءة إلى التعيس الذي يريد دخول الحديقة، فيجرحه، ويقتله. وفي الحالات الأكثر إيجابية، نجد أن الحالم، على العكس، هو الذي يهاجم الحارس. إنه يتشاجر أولاً معه، ثم يشتمه، ويجتاز ممراً رغماً عنه، أو أيضاً يجرحه ويقتله.

وما هو حلم الرجل القادر على الوصول بشكل طبيعي؟ سنذكر اا حلم التالي الذي رآه رجل تألم طويلاً من عجز جنسي ونجح في التخلص من ذلك العجز في أيام هذا الحلم: «حاولت الانطلاق للدخول من باب إلى غر ة رأيت فيها عمالاً يعملون. وكانت امرأة تراقبهم. فاندفعت حيناً، أو على لأصح تشبثت بالأرض لأدفع نفسي داخل الغرفة، لكن قوة جبارة كانت توقفني كلما أصبحت على وشك اجتياز العتبة،وأخيراً، لا أعرف بوساطة أي مجهود خارق توصلت إلى الدخول، وها أنا في الغرفة التي تحولت في هذه اللحظة إلى نوع من الخيم الزراعية مليئة بالأزهار. ورأيت فجأة إلى جانبي عدوّاً أوحى لي برعب كبير. ولكن بدلاً من أن أتراجع اندفعت إليه أمسكته من خناقه، وضغطت إلى أن مات. وحينئذ طرحته خارجاً، دون الاهتمام بما فعلته للتو، وعملت مع الرجال الآخرين على نكش الأرض أو القيام بشيء قريب من ذلك».

لقد رأينا للتو أن هذا الحلم قد بني على شاكلة الحلم السابق نفسها. فقد استبدل مدخل الحديقة بمدخل غرفة يُعمل فيها. وهذه الغرفة تستطيع، فضلاً عن ذلك، أن تحل محل الحديقة لأنها تشبه خيمة زراعية، ينكش فيها العمال

الأرض. ويُمثَّل حارس الحلم بوساطة العدو والقوة التي تمنع الحالم من عبور الباب. ولكن صحيح أيضاً أن هذا الحلم يختلف، في بعض النقاط، عن الحلم السابق:

فأولاً هناك عمال يعملون في الغرفة، وقد تماثل الحالم معهم على الأثر. وثانياً هناك فعل قتل، ثم إن مخرج الحلم أو نهايته تتم بطريقة مختلفة تماماً عن الحالة الأولى، فبدلاً من العودة على أعقابه، توصَّل الحالم إلى الدخول من الباب، وإلى احتلال مكانه في الغرفة، إلى جانب العمال.

وهذه هي تداعيات أفكار الحالم: العمال يرمزون في مخيلته إلى الرجال الأقوياء القادرين على استصلاح الأرض الزراعية التي حصلوا عليها. وعملهم النشيط والرجولي كحارثين وباذرين يجعل الأرض «البور» خصبة. ويحمله العدو على التفكير ببساطة في رجل كان يتمنى حقاً خنقه، وكانت صورته الممقوتة خلال وقت طويل، في أحلام سابقة، قد نجحت في حمله على الفرار. وقد استطعنا أن نتحقق لاحقاً من أن هذا العدو كان يمثل أيضاً الجانب الرجولي من زوجته التي، حتى الآن قامت تجاهه بدور المضطهدة أكثر مما قامت بدور المرأة والزوجة. ولكن هذه المرأة، على أثر التحولات الطارئة في سلوك مريضنا، التي خضعت كذلك لعلاج آخر في الوقت نفسه مع زوجها، قد حُملت على أن تغير من سلوكها، وأن تتخلى عن العرقلة التي كانت تقوم بها، بشكل عُصابي، تجاه مبادرات زوجها. وفي فترة الحلم، كانت العلاقات الجنسية بين الزوجين قد أصبحت ممكنة ومتيسرة. فكان الزوج قد تخلص من كبته الجنسي وتخلصت المرأة من برودتها.

فهل هذا الحلم الأخير طبيعي تماماً؟ لا أعتقد ذلك. فذات الحالم مرغمة على تحمل نضال مهول للوصول والنجاح. فهناك نزاع إذاً، ومن جرّاء ذلك رعب وقلق. فهل هذا النزاع وقف على كل حلم ينتهي في الاتجاه الصحيح؟ إن الكثير من الرجال قد لا يستطيعون الوصول بشكل طبيعي إلا بعد دفع الثمن، وهو ضرب من القلق الشديد، إلا أننا لا نستطيع التأكيد أن هذا الأمر قاعدة

عامة. إذ ما إن تقدّم حالمنا نحو شفائه حتى كفّ عن رؤية عدوه. ولم يعد يتوجب عليه بذل جهود جبارة لاختراق باب خيمة الزهور أو «حديقة حواء». وصار بإمكانه حينئذ أن يجد نفسه في حديقة مدهشة، وأمام حوض تتملكه الرغبة في السباحة فيه. وهذا الحوض محاط من جميع جهاته بالأزهار والعشب الأخضر. وقد تعرّى الحالم، وغطس من رأس سلّم وسط إحساس بنعومة لا توصف. وفي هذه اللحظة استيقظ، وربما حتى مع حالة رجولة واضحة.

في هذا الحلم، كان مدخل الحديقة أو خيمة الزهور، إذاً قد استبدل صراحة بالدخول إلى «حوض» المرأة. إذ يصوِّر الجماع بوساطة الغطس من أعلى السلم. ويستطيع العضو الأنثوي أيضاً أن يكون مرموزاً إليه بوساطة آلاف الأشكال التي تمتلكها الطبيعة وتستطيع تصويره: كأس الزهرة أو كأس أو مدخل كنيسة مثل كنيسة نوتردام[1]. ولكننا لن نلح على مسألة رمزية الحلم. إذ لا يتوجب علينا إلا النظر حولنا، وسيظهر لنا العديد من الأمثلة كيف تصور في الواقع الأعضاء الجنسية المختلفة. فالحلم لا يقوم إلا بتتبعها، وهو يفهمها حتى في الحالات التي يمتنع فيها المنطق البشري عن النظر إلى الأشياء مواجهة. وبالنسبة إلى ذاك الذي لا يصم أذنيه عن هذا الكلام، فإن تفسير الرمزية في الحلم لا يعترضه الكثير من الصعوبات.

إن معظم الأحلام أكثر تعقيداً من هذه الأحلام التي ذكرناها. إذ لا يمتلك النزاع بالضرورة طابعاً جنسياً. ولكن كلما كان هناك نزاع، وهذا مألوف وشائع، نجد أنفسنا تجاه ثلاث سلطات نفسية سبق أن لفتنا انتباه القارىء إليها. وهذا النزاع بالتحديد هو الذي يمثل المعنى الحقيقي للحلم، حتى للأحلام التي ذكرها فرويد في كتابه. وعندما ندرس هذه الأحلام من وجهة نظرنا سنفاجأ برؤية كل ما نجح بالاعتراف لنا به بواسطة أحلامه، وخاصة بوساطة حلم إيرما. لقد رأينا أي دور تستطيع الذات الخارقة القيام به في الحلم متخذة

---

(١) كنيسة شهيرة في باريس.

موضع المخالف للأنا. ومن الواضح أن نهاية النزاع ما بين السلطتين لا تتعلق فقط بتأثير الذات الخارقة في الأنا، بل أيضاً بالطريقة التي يتوصل فيها الأنا إلى معارضة الذات الخارقة. فقد يكون الأنا ضعيفاً، وقد يكون قوياً. وبحسب ما يملكه من طاقة لنشاطه يقاوم تقريباً بشكل جيد ما هو نقيض له. وتستطيع ذات خارقة طاغية وعدائية تجاه الأنا منع هذا الأنا من التكوّن بشكل طبيعي. فيصبح تحليل الحلم وسيلة ممتازة لتشخيص عيوب الأنا ونقاط ضعفه.

إن الأنا الضعيف سلبي ومرعوب، وعاجز عن القيام بمبادرات عدوانية للدفاع عن نفسه بفعالية. ويسمح في الحلم دائماً، بأن يقوده شخص يفرض عليه في نهاية المطاف مبادراته. فيتخلى عن مشاريعه ويتألم غالباً، ولاسيما أن التألم، في العديد من الحالات، هو الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها لمقاومة الذات الخارقة بإثارة إشفاقها. . فيصبح التألم إذاً سلاحاً للأنا، يصوّره عند الحاجة في الأحلام كما في الواقع، ويظهر هذا الأمر، بدءاً من بعض حدود التسامح، بوساطة ظهور المعاناة العُصابية التي ليس الفشل الاجتماعي أو العاطفي إلا مظهراً لها.

إن الأنا الذي يقاوم بفعالية ذاتاً خارقة مضادة له مؤهل للنمو بوساطة النضال، وبقدر ما يتوصل إلى التخلص من العوائق التي تضعفها الذات الخارقة وإلى أن يجند، لحسابها، كل الطاقة التي يستهلكها، هذه الذات الخارقة لشلها. وهذا التحول للأنا، قد يلاحظ أيضاً في أحلام الإنسان، عندما يتوصل هذا الأخير إلى مقاومة الذات الخارقة والسيطرة عليها، ليتحرر من الفشل والمعاناة العصابية. إن دور الهو في الأحلام أكثر صعوبة عند التقدير، لأن الهو لا يقدم بدقة مزايا شخصية ما واضحة جيداً، كما هي حال الأنا والذات الخارقة. ولا يمثل الهو على الأقل السلطة المستقلة، التي ترغم الأنا والذات الخارقة باستمرار على الاعتماد عليها وتبرير سلوكها أمامها، كما يحدث للحكومة التي تخضع للجماهير وتحركات الرأي العام. وكذلك نجد أن الهو يمثّل غالباً في الأحلام بوساطة حشود شعبية، وجماعات يقودها الأنا والذات الخارقة، حسبما تنجح هذه أو تلك في السيطرة وفي فرض اتجاهها.

ونـود أن نضيف أيضاً كلمـة بخصوص العـلاقات بين الأحـلام وأحـلام اليقظة والإبداعـات الأدبية أو الفنيـة. إن أحلام اليقـظة والإبداعـات الأدبية أو الفنيـة متحدرة من مخيلة المـرء، لكنها أكثـر قربـاً لإدراكنا العقلي من الحلم. فأحلام اليقظة والأحلام لا تعـاني بشكل أقـل تأثيـر السلطات النفسية الثـلاث للشخصية، وليست في أغلب الأحيان شيئـاً آخر غيـر التعبير عن النـزاع الذي يقسمها داخل الحياة النفسية. وأحلام اليقظة والإبداعات الأدبية يمكن تحليلها كأحلام، وتزودنا غالباً بالإشارات نفسها.

فإن لم تكن هناك أحلام لشخصية تاريخية نودّ فهم دورها ومصيرها، فإننا نستطيع بكل تأكيـد تفسير خـواطر مجمـوعة الـرسائـل، والنتاج الأدبي لشبيبـة متعطشة إلى الاعتراف. ويستطيع هذا التحليل أن يزودنا بكل المعلومات التي اعتدنا على التفتيش عنها في أحلام الشخص الذي نعالجـه. فمن المهم مثلاً دراسة الأعمال الأدبية لنابوليون أيضاً.

ففي العام ١٧٩٤ م، كتب بونابرت قصة موحية. إذ في تلك الفترة، استمال امرأة أمينة قادرة على أن تحبه، إنها المرسيلية الشابة ديزيـره كلاري (Désireé Clary). وفي هذه القصة، التي عنوانها كليسون وأوجني (Clisson et Eugénie) تعرّفنـا إلى العميـد كليسون الـذي تزوج الفتـاة الناعمـة أوجني. وقد تـركها مباشرة بعد الزواج، وقاد جيشاً للقيام بمعركة وطنيـة. وعندما جرح في إحدى المعارك، أخبر زوجتـه بذلـك بوساطة أحد ضبـاطه الشبـان. وقد اغتنم هـذا الضابط المناسبة ليغازل أوجني، فهل أصبحت عشيقته؟ يمكن افتـراض ذلك لأنها لم تعد تكتب منذ تلك الآونة فصاعداً إلى زوجها. فأصبح كليسون حينئذ يـائساً. وكتب إلى زوجتـه رسالـة وداع وانتهزهـا للهرب منهـا حتى بالمـوت؛ فارتمى «مطأطأ الرأس في المعمعة وقضى نحبه، وقد اخترقته مئات الطلقات».

وقـد تسمح لنـا هذه القصـة الصغيرة أن نفهم لمـاذا استطاعت المـواطنة بـوهارنـه (Beauharnais)، حبيبة الضـابط الجميل ايبـوليت شارل (Hippolyte Charles) أن تتلاءم بشكل أفضل مع ذوق نابوليون الشاب من ديزيره كلاري التي نجح من الهرب منها في احتدام المعارك.

أينبغي أن نقـرب هذا الأمـر من حلم لنابـوليون، يبـدو لنا مـوحياً بشكـل

خاص؟ إنه ذاك الحلم الذي رآه في أرفورت[1] (Erfurt) في ألمانيا، عندما ذهب إليها ليبهر قيصر روسيا، بحسب اعترافه الشخصي، بوساطة عرض قوته وقدراته. فأرسل إلى أرفورت مع حرسه أثاث العرش، وأوانيه الأكثر غنى جماعة الكوميدي فر نسيز[2] كلها، برئاسة تالما[3] (Talma). ونظّم مهرجانات فخمة وفاخرة. ومثل تالما مسرحية أوديب ملكاً؛ وعندما أنشد البيت الشهير: «صداقة الرجل العظيم نعمة من الآلهة». تصافح إسكندر ونابوليون بحرارة وسط تصفيق الملوك والأمراء الحاضرين.

وفي الليل الذي تلا العرض المسرحي، سمع المملوك روستان (Roustan)، المكلف بحراسة نابوليون، صرخات فظيعة تنطلق من غرفته. واستيقظ خادمه كذلك، ففتح الباب، فرأى الأمبراطور ممدداً في عرض السرير، وقد ألقى كل الشراشف والأغطية عنه، وهو يومىء بيديه. وكان يتفوه بكلام غير مفهوم، ويضغط بيديه على صدره. فهزّه كونستان (Constant) وتوصل إلى إيقاظه بصعوبة. فأوضح له الأمبراطور، أنه رأى حلماً مرعباً شاهد فيه دباً يفتح صدره ويلتهم قلبه. وقد اضطر كونستان إلى تغيير قميص نابوليون المبلل بالعرق. وبعد هذا الحلم، لم يستطع الأمبراطور أن ينام مجدداً.

أمن الممكن ربط هذا الحلم بفشل الحملة على روسيا، حيث نجح نابوليون في تقديم نفسه، هو وجيشه الكبير، ضحية للدب الروسي؟ هذا ممكن بكل تأكيد. إذ يمثل الدب الذات الخارقة لنابوليون التي تتصرف غالباً كدب لإخفاء أو إنكار شدة تأثره؟ ألن تتغلب عليه هذه الذات الخارقة في جزيرة هيلانة ذات يوم؟ السؤال يطرح نفسه كما سنرى فيما بعد في الفصل المخصص لنابوليون.

---

(١) مدينة في ألمانيا الشرقية وهي مركز صناعي. شهدت مواجهة بين نابوليون واسكندر الأول قيصر روسيا.

(٢) الكوميدي فرانسيز، مسرح تأسس في باريس سنة ١٦٨٠ بناءعلى أمر من الملك لويس الرابع عشر وجمع الفرقة التي كان يقودها موليير وفرقة أوتيل بورغوني.

(٣) فرانسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ ـ ١٨٢٦م) ممثل تراجيدي كان نابوليون يعجب به ويفضله.

أعراض الفشل وتجلياتها في المجتمع

عندما ندرس مسألة فشل فرد ما في الحياة الاجتماعية، ينبغي الانطلاق من وجهتيّ نظر مختلفتين: وجهة نظر الفرد الذي أصابه الفشل ووجهة نظر المجتمع الذي ينتمي إليه. وبحسب الانطلاق من هذه الوجهة أو تلك من هاتين الوجهتين نتبين أن المسألة لا تنطرح، بالضرورة، بالطريقة نفسها. فما اعتبر بشكل صارم فشلاً من وجهة النظر الفردية، يبدو أحياناً نجاحاً من وجهة النظر الاجتماعية. ونذكر بكل بساطة مثالاً على ذلك حالتي روسو[١] وبودلير[٢] اللذين اعترفا لنا بفشلهما المؤلم في حياتهما الاجتماعية التي اعتبرها المجتمع نجاحاً، أو على الأصح إخصاباً للوجود.

تعاسات روسو وبودلير؟ ليس علينا إلا قراءة كتبهما: **اعترافات قلب معرّى**، للاقتناع بذلك. ومهما كانت دراستنا لحالتيهما ضعيفة، فإن إخفاق حياتهما يظهر جلياً واضحاً، وعصابهما نموذجياً، كما نجد ذلك معروضاً وموضحاً في كتاب: **فشل بودلير**.

إن روسو، كما سنراه في فصل قادم، كان منحرفاً، استقرائياً[٣]، عاجزاً،

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) كاتب فرنسي شهير اتهم الفساد الاجتماعي ودافع عن العدالة والفضيلة، أثّر في الثورة الفرنسية والحركة الرومانطيقية.

(٢) شارل بودلير (١٨٦٧ ـ ١٨٢١م) شاعر فرنسي اشتهر له ديوان أزهار الشر وترجمته لقصص إدغار ألن بو الغريبة.

(٣) أي لديه نزعة مرضية إلى تعرية الصورة.

ويعاني جنون اضطهاد حقيقي كان يجعله غير جدير بالقيام بدور الرجل أو أب العائلة. وكان بودلير مدمناً على المخدرات، عاجزاً وغير قادر على رعاية ثروته، وكان له قيّم قضائي (أي وصيّ). وكان يتشكى من عدم قدرة على العمل قوية لا تقهر. ومات مجنوناً، بعد أن ارتمى في أحضان الشيطانين اللذين راح ضحيتهما: المرأة الخلاسية، والسفلس. وقد دوّن قبل موته ببضع سنوات وبوضوح خارق: «اليوم.. شعرت بمرور ريح جناح الغباوة فوق جبيني». لقد اعتبر روسو بودلير حياتها الخاصة فشلاً أكيداً وتألماً من ذلك. في حين أن هذا الفشل يمثل، من وجهة نظر اجتماعية، نجاحاً أدبياً كبيراً.

فكيف نتفق في هذه الحالات على مفهوم الأعراض؟ كيف نوفق بين وجهتي نظر تبدوان متناقضتين؟ فهذه المشكلة هي التي تطرح نفسها أمامنا بقدر ما نتوغل في عمق موضوعنا.

ونورد مثالاً أيضاً، في نهاية القرن التاسع عشر، ماتت في ليزيو[1] (Lisieus) راهبة كرملية شابة مضت في التوبة إلى حد السقوط ضحية الكسل الذي جعلت منه حليفاً للاتصال بالله. وقد كتبت هذه الراهبة الكرملية مذكراتها في كتاب غريب لا يُطلعنا على العذاب الذي عانته في حياتها، بل أيضاً على شكوكها وضروب فشلها المتعلقة بإيمانها. وتظهر لنا دراسة متعمقة قليلاً العُصاب العائلي الذي كانت الطفلة المسكينة فريسته، مثل أخواتها. ومنذ أن ماتت أصبحت القديسة تيريز في مدينة ليزيو، وذكرت حياتها لملايين المخلصين. فما قد يعتبر، بشكل فردي، فشلاً أكيداً لحياة واقعية حقيقية، يصبح من وجهة نظر اجتماعية نجاحاً لهذه الحياة.

ماذا نستنتج من ذلك؟ ببساطة، إننا نستنتج أن مفهوم الفشل ذو طابع اجتماعي، ويتغير مع الأزمنة والعهود. وأعترف أن هذا التفسير لا يرضيني كلياً، وأعتقد أن الموضوع يستحق أن يدرس عن قرب. فما الذي يجعل مجموع الآلام غير المجدية لفرد ما، مجموع الطاقة المبذرة عبثاً في مشاريع عقيمة،

---

(١) مدينة فرنسية شهيرة يحج الناس فيها إلى قبر القديسة تيريز.

قادرة في بعض الحالات، على أن يعاد تقويمها على يد جماعة، وأن تجعل هذه الجماعة مدينة لشهدائها بدين أبدي من العرفان بالجميل والامتنان؟ كيف يمكن تفسير واقع أن حياة بشرية تجهض دون فائدة مباشرة لأصحاب العلاقة أو لمحيطهم القريب أو لعصرهم، تكتب، عبر العصور، خلوداً لا يعترف به المجتمع عادة إلا لأولئك الذين كان لهم فضل النجاح في مشاريع بشرية؟

ولا ننسى كذلك حالة الراعية التي أُحرقت حية كساحرة، في الساحة العامة في مدينة روان (Rouen)(١)، بعد أن حاولت إنقاذ ملكها وطرد الإنكليز من بلدها. ويعرف الناس جميعاً ضروب فشل هذه الفتاة العذراء بعد تتويج شارل السابع في رانس (Reins)(٢) وكيف أن القضاة والأساقفة، قد حكموا عليها بالموت كمجرمة. ولكن بعد نصف قرن، أعيد النظر في هذه القضية التي كانت تبدو عادية وطبيعية، حتى للملك الذي أنقذته جان(٣) (Jeanne)، بناء لأمر من البابا، وأصبحت الساحرة التي أُعدمت في زمن ما، مجاهدة، وبطلة وطنية فرنسية، وقديسة بين قديسي الكنيسة نفسها التي حكمت عليها بالموت على المحرقة.

نحن في مواجهة حساب غريب للقيم يجد العقل صعوبة في تفسيره، ويفرض واجبات ويخلق حقوقاً، حتى لو أراد الإنسان رفض الاعتراف بها.

إن الخبرة التي نمتلكها اليوم تسمح لنا بمقاربة المسألة بدقة وباستشفاف الارتباطات غير المألوفة للأسباب والمسببات التي يختلقها الليبيدو لنفسه، حتى في الحالات التي يبدو أنه يدمر نفسه ويعقرها. ولفهم هذه المسألة، ينبغي أن

---

(١) روان مدينة فرنسية ومرفأ على نهر السين أحرقت فيها جان ـ دارك سنة ١٤٣١.

(٢) مدينة فرنسية أسقفية. كان يتم فيها تتويج ملوك فرنسة.

(٣) جان ـ دارك أو عذراء أورليان. بطلة فرنسية (١٤١٢ ـ ١٤٣١) تنتمي إلى عائلة قروية. كانت تقية ورعة فحدث لها أنها كانت تتعرض لانجذابات وشطحات وتسمع أصواتاً تأمرها بإنقاذ فرنسا التي اجتاحها الانكليز. فاندفعت على رأس جيش صغير وأنقذت ملك فرنسا لكنها سقطت في قبضة حلفاء للانكليز فأحرقوها في مدينة روان حيث يقام لها عيد في ٣٠ أيار وعيد وطني في ٨ أيار.

نتذكر كل ما ما قلناه في الفصل الثالث عن تكوّن الشخصية والذات لدى الأفراد.

إن الذات أو الشخصية لدى شخص ما تظهر كنتاج لتوليف واسع للخبرات والتصورات الجماعية والفردية التي، إذ تتجمع بشكل معرفة وقدرات للذات، تحدّد موقف الفرد تجاه الواقع الذي ينبغي أن يتآلف معه. وبعبارة أخرى إن ذات الفرد مرتبطة بشكل كبير بالعقلية والمعارف الجماعية، كما تشكلت خلال تاريخ الشعب، عقلية ومعارف عانى الأفراد كثيراً لاكتسابها. وتشكل هذه المعارف كسباً أكيداً لكل الذين يتوصلون إذ يتسلحون بها للتغلب على الواقع بفعالية أكبر أو إلى التوافق معه. فيصبحون من جراء ذلك مدينين بغناهم وإثرائهم إلى كل أولئك الذين ضحوا بأنفسهم لتحصيلها. ولنرَ ما يمثله هذا الربح، ولنتذكر ما هو هذا الواقع الذي ينبغي تعلُّم التوافق معه تحت طائلة الاختفاء دون ترك أي أثر.

إن هذا الواقع، كما نعرف، لا يظهر لنا فقط بكل ما يحتوي عليه العالم الخارجي من مشاكل، من متطلبات، من صعوبات وأخطار، بل يقوم أيضاً فينا. وقد رأينا كيف أن الذات الخارقة الجماعية والفردية قادرة على إخضاع الأفراد، وتحديد طريقهم وقطعه، وشلّهم وتعذيبهم عند اللزوم. فهناك الفكر الذي يحرّر والفكر الذي يقتل. فالعديد من حالات الانتحار دون ما سبب ظاهر، التي تحدث كل يوم، هي هناك لإقناعنا بذلك. وتظهر لنا دراسة أعراض الفشل العدد الكبير لحالات الانتحار الجزئي الذي يمثله في الواقع هذا العُصاب.

إننا نلتقي، إذاً، الواقع القاتل في ذاتنا بقدر ما نلتقيه في العالم الخارجي، بأشباحه المرعبة إلى هذا الحد أو ذاك التي يثيرها ويبعثها القلق الناشىء من هذا العالم، فتجعله مرعباً وشاسعاً لا يحد. إننا نجد هذا الواقع في آلاف التفاصيل التافهة ظاهرياً في الحياة، في التعبير عن الرغبات التي لا تحصى التي تدفع الأشخاص إلى التقاتل وإلى التناهش لإشباع شهيات جشعة، متعطشة إلى الضحايا. وترغمنا ضروب القلق التي يضطهدنا بوساطتها

على الهرب من الأخطار الحقيقية والخيالية وعلى مقاومتها بكل الوسائل الممكنة، وبعضها أكثر خطورة من السوء الذي نريد إزالته. وها نحن مرغمون على خوض معركة في كل دقيقة، وكل ثانية ضد هذا الواقع الخارجي أو الداخلي، مصدر الألم أو الفرح؛ بحسب ما نكون الرابحين فيه أو الخاسرين.

وفي الواقع الخارجي، هناك النضال ضد العوائق التي تمنعنا من احتلال مكاننا، ضد الأعداء الرهيبين المنتصبين أمام الفرد بشهياتهم الأصلية، المنافسين الذين ينازعونه خيراته وسعادته، الطرائد التي تقاوم ولا تسمح بالتهامها بهدوء وسلام، الأمراض التي تقضم حيوية المرء، الطبيعة نفسها التي تمنحنا مهلة لتسمح لنا بالعيش، ثم تلعب لعبة الموت.

وفي الواقع الداخلي، هذا النضال يتلاءم مع ضرورة مجابهة التطلعات العديدة والرغبات والحاجة المتحدرة من الهو، التي تقتضي إلى حد ما إشباعها بإلحاح، رغم العوائق والموانع الخارجية أو الداخلية والأخطار التي بعضها يجرف المد مثل الذات الخارقة التي تكلمنا عليها سابقاً.

وبين هذين الواقعين، الخارجي والداخلي، نجد الأنا منتصباً. إنه يسعى إلى التوفيق بينهما آخذاً بعين الاعتبار ضرورات كل منهما، منتهياً إلى تسويات لمصالحة ما تبدو غالباً في حياة الأفراد متناقضة ومتنافرة لكي تشبع هذه الحاجة أو تلك وتضمن هكذا حياة الفرد الواحد والبشر ونجاحهم.

وكما سبق لنا القول: «إننا ندعو أنا هذا النشاط للجهاز النفسي الذي بوساطته يتحقق توليف كل تصوراتنا، الداخلية والخارجية، ويسمح لنا هذا التوليف بالتموضع في الزمن والفضاء، مع الإحساس بالوعي به والقدرة على التصرف بشكل إرادي بالنسبة إليها وإلى حاجاتنا». وينجز الأنا هذا العمل بطريقة متنوعة للغاية بحسب ما يكون جيداً أو سيئاً لنضالها. وينبغي علينا التمييز بين وسائل عمل الأنا القوية ووسائل عمل الأنا الضعيفة، الأنا الطفولي، والأنا الراشد. فوسائل العمل تتنوع كلياً بحسب نوعية وكمية الليبيدو التي

تمتلكها الأنا للانتفاع بها. ويُظهر لنا علم نفس اللاشعور كيف يمكن أن يتطور الأنا ويكبر ويواجه عقلياً مهمته المعقدة.

إلا أن هذا التطور ينبغي أن يتم بشكل طبيعي في طفولة الإنسان، وبمساعدة محيطه. وفي معطيات حضارتنا نجد العائلة والجماعة تبذلان جهوداً مضاعفة لتسليح المرء في نضاله ضد الواقع. وتعلّمنا تجربتنا جميعاً كم يقتضي هذا التكون من جهود من جانب الفرد ومن جانب الجماعة، وكم من التجارب المؤلمة أحياناً هي ضرورية لتأمين تثقيف «شاب عادي» في عصرنا، مثلاً.

إن ذات هذا الشاب العادي تدين بكثير من معارفها وخبراتها للجماعة التي زوده بها كدليل مرشد وكدعامة الناطقون بلسان ما نستطيع أن نسميه الذات الجماعية. وسيتوجب علينا لاحقاً دراسة ما تمثله تماماً هذه الذات الجماعية. أمّا الآن فلنكتف بالتأكيد أن الذات الفردية ترتكز عليها لادّخار العديد من التجارب المضنية، ولكن الضرورية لكي تراكم طوال تاريخ أمة ما، المعارف التي تضعها هذه الأمة بتصرف المرء.

إننا ندعي إذاً أن الذات الجماعية تصبح مرشداً للذات الفردية، وتحاول هذه الأخيرة الارتفاع إلى مستوى تطورها، بامتلاك خبرة لم يعد الفرد مرغماً على اكتسابها. فهو يستخدم هذه القاعدة لينمو بقدر ما يسمح له تطوره بذلك، وليتجاوز مستوى الذات الجماعية. إنه يضيف فتوحاته الشخصية إلى التراث العائلي والوطني. ولكن لكي نفهم جيداً العلاقات التي تقوم بين الذات الفردية والذات الجماعية ينبغي أن نحاول تكوين فكرة أكثر دقة عما تعنيه هذه الأخيرة.

إننا نتصور تكوين الذات الجماعية كتكون الذات الفردية تقريباً. فهي النتاج لتوليف يتم على نطاق أكبر للغاية من نطاق الذات الفردية. فالذات الجماعية مثل الذات الفردية تكبر انطلاقاً من الصفر تقريباً، وباستخدام الاكتشافات الفردية المختلفة التي قام بها أولئك الذين ورثوها تجاربهم واكتساباتهم في مجموعة محددة. فهي إذاً ثمرة حمل مؤلم، ثمرة معركة مع المنتصرين والمغلوبين، مع الناجحين والفاشلين.

إن الذات الجماعية، مثلها مثل الذات الفـردية، تنـطوي على عدة نـوى لتطور الشخصية، وكل نواة متوافقة مع مرحلة خاصة من تاريخ الجماعة. ونحن نميّز ما بين النواة الفمية ـ الشرجية، والشرجية، والشرجية التناسلية، بتصوراتها المختلفـة للواقع. فتكـون ذاتنا الجمـاعية الحـالية نتـاج التحـام هـذه النـوى المختلفة. وسيتم هذا الالتحام خلال تطورحضاري، بكل ما يقتضيه هذا الأمـر من نضالات وتغيرات على مستـوى التنظيم الاجتمـاعي، والمعتقدات الـدينية والفتوحات العسكرية والاكتشـافات العلميـة. ولكن كيف يمكن تصور الأوالية التي يتم بها هذا الالتحام؟

عندما نتصور تكون الشخصية، مثلاً، قد نخطىء بتخيُّله كبناء لعمارة ترتفع على قاعدة، حجراً فوق حجر، بحسب خطة موضوعـة مسبقاً. فسنكـون أكثر قرباً من الحقيقة إذا تصورنا هذا التكون كنوع من الـولادة المتجددة بـاستمرار للمرء الذي تـرغمه ضـرورات نموه على التخلي، جـزئياً أو كليـاً، عن بعض مكتسباته للوصول إلى غيرها. فكيف يظهر هذا الأمر عند الفرد؟

لنتذكر الفصل الثالث من هـذا الكتاب الـذي بيّنا فيـه كيف أن الشخصية خلال تطورها تحت تأثير الغرائز في المرحلة التناسلية وهي لا تزال في المرحلة الشـرجية، كـانت مرغمـة على التخلي عن طـريقتهـا في الـرؤيـة كلهـا، عن إنشاءاتها، وتصوراتها للواقع ذات طابع نظري وفردي أناني.

إن هذه التخليات والتنازلات تعني، بالنسبـة إلى الفرد، القبـول باختفـاء إحســاس وماضٍ شكّـلا جزءاً من ذاتـه كحياة لهـا أفراحهـا وأحزانهـا ومحبتها وكرهها. ولهـذه التخيلات أيضـاً صفة محنـة خسارة، وتؤدي إلى ردات فعـل عاطفية عميقة. ونجد الأمر نفسه مع الذات الجماعية التي تأخذ هذه التخيلات والتحـولات بالنسبـة إليها صفـة ثورات حقيقيـة. وسيتم عبرهـا التحام النـوى المختلفة لتطور الذات الجماعية. كيف يمكن أن يظهر ذلك بالنسبة إلى جماعة ما؟

إننا نعرف كل هذه العهود من الهيجان الشعبي الذي يدعى ثورة. . حرب

دينية حرب مدنية. . إلخ. وهي تتميز بظهور أزمات اجتماعية تقوم خلالها الجماعة بتغيير نظامها الحكومي والاجتماعي، إلى حد كبير، من الحالة التي كان عليها قبل بروز هذه الأزمات. وتسير هذه التغيرات في الاتجاه، غالباً، بشكل متوازٍ مع التخلي عن بعض التقاليد التي كانت حتى ذلك الحين مقدسة إلى حد ما، وعن معتقدات دينية كان من الممنوع الشك فيها. ونجد بشكل عام أن معظم ممثلي هذه التقاليد قد تمّت التضحية بهم، إما بحملهم على الاختفاء، وإما بتجريدهم من سطوتهم ومن مسؤولياتهم ومراكزهم. وتسبب هذه السيرورة اضطرابات خطيرة، ولاسيما أن إلغاء حلقات المجتمع كلها لا يمكن أن يتم دون إراقة دم تحدثها الحروب الأهلية الي تستتبعها هذه السيرورة. إن هذه الثورات، هذه النضالات، هذه التدميرات يقوم بها الرجال، الناطقون بلسان الميول الجديدة التي تولد في الجماعة. ولهؤلاء الرجال قدر خاص سيتوجب علينا دراسته بتمعن. أما الأن، فلنؤكد ببساطة أنهم يستقلون برأيهم ويتحررون من التقاليد، ويسيرون في اتجاهات جديدة ولا ينجحون بشكل عام في مهمتهم دون إفشال شخصية متعددة. فلا يمكن أن يكون من المصادفة أن قيصر سيزار(١) وأنطونيوس(٢) قد قتلا وأن أغسطس(٣) وحده استطاع إكمال إعادة تنظيم الأمبراطورية الرومانية على أسس جديدة. وتلك أيضاً حال الرجال الذين سعوا إلى الحلول مكان ملوك فرنسا. والكل يعرف المصير الذي لاقاه روبسبير وغيره. ولم يستطع رئيس الجمهورية الفرنسية، إلا

---

(١) يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ق.م) ديكتاتور روماني قام بفتوحات عظيمة. أسس في روما الحكومة الملكية وقتل من أجل ذلك. وبالإضافة إلى ذلك هو كاتب عظيم.

(٢) ماركوس أنطونيوس (٣٨٣ - ٣٠ق.م) من ضباط يوليوس قيصر وأحد الحكام الثلاثة الذين حكموا روما. هو الذي غلب بروتوس وكاسيوس واشتهر في التاريخ بحبه لكليوباترة. تغلب عليه أوكتافيوس في معركة أكثيوم. ثم انتحر في ما بعد.

(٣) أغسطس (٦٣ق.م - ١٤م) أمبراطور روماني وهو نفسه أوكتافيوس قاهر أنطونيوس في أكثيوم. تسلم السلطات جميعاً بعد هذه المعركة. وعصره عصر لامع في تاريخ الحضارة الرومانية خلده الشعراء فرجيل وأوفيد وسالوست.

بعد عام ١٨٧٠، احتلال مكانه، دون الكثير من المخاطر الشخصية التي تعرض لها قبل الثورة الفرنسية ذاك الذي وجّه مصير فرنسا.

لقد رأينا كيف أن الذات الخارقة، أي تقاليد الماضي الفاعلة في اللاشعور، قادرة، في بعض الأحوال، على معارضة نمو الأفراد والجماعات ومقاومته. فكلما وجدت هذه الحالة، تجد ذات الأفراد نفسها في مشاجرة وخصام مع شعور بالذنب كامن تقريباً، وقادر على شل كل المبادرات الفردية والجماعية. وحينئذ يكون الفرد مجبراً على إنفاق كمية من طاقته كبيرة غالباً لكي يقاوم الإزعاج الذي يثيره في وجه نشاطه وحيويته الشعور بالذنب. إنه يستطيع الاحتماء بوساطة الآلام التي يستدعيها لإضعاف الشعور بالذنب بوساطة التوبة. وفي حالات أخرى، يسقط ثقله على بريء، ويستنجد بكبش المحرقة، أو بحمل التضحيات الدينية، أو حتى بضحايا بشرية يجعلها تدفع ثمن شعوره الذاتي بالذنب، الذي يضعف بوساطة تضحية الآخرين. فنحن نتكلم إذن على أوالية الدفاع الذُهاني للذات ضد إحساس لاشعوري بالذنب.

إن هذه الأوالية في الدفاع تنطوي، بالنسبة إلى الفرد، على ضرورة إيجاد ضحايا واضطهادهم. فبحسب قوة الشعور بالذنب، يقوم حينئذ وتقريباً بدور المضطهد أو الظالم. وتتيح الأوالية نفسها للذات إسقاط القلق، الذي قد يثيره فيه الذنب، على الضحايا. وللإفلات من الهلع الداخلي الناجم عن هذا الشعور بالذنب، يرعب هؤلاء الأشخاص محيطهم وبيئتهم، وبهذا الشكل فقط يتوصلون إلى أن يواجهوا، من دون اضطرابات خطيرة، درجة غير عادية من الذنب، وينقذوا قدرتهم على الفعل التي ستكون، إن اعتمدوا طريقة أخرى، سائرة نحو الفشل. وعندما تثير الثورات في الجماهير الشعور بالذنب الذي يسببه نضال الذات الجماعية ضد التقاليد، أي ضد الذات الخارقة الجماعية. وحدهم الأشخاص المسلّحون بشكل خاص لمواجهة هذا الإثم ولإنقاذ قدرتهم على الفعل، يستطيعون القيام بدور الرؤساء. وكذلك بهؤلاء تستنجد الجماعة في تلك الأحوال. فهي تختار كرئيس أو كمنقذين رجالاً قادرين على

إضعاف الإثم الجماعي بوساطة آلامهم الشخصية، أو بالأحرى الذُهانية مثل روبسبيير[1]، رجالاً مشهورين صلبين وحيويين، قادرين على إبطال الإثم الجماعي بالتضحية بضحايا، ففي هذه العهود، نرى إذاً أشخاصاً ينبثقون من قلب الجماعة ويعرضون أنفسهم، من جهة ،لغضب الإثم لتهدئته بفشلهم الشخصي. ومن جهة أخرى يتيحون للجماعة تقديم ضحايا لإنقاذ نفسها. وبفضلهم، يُبعد الإثم من وسط الجماعة كسم قاتل ولا يعود باستطاعته معارضة ومقاومة عمل التجديد والتعديل اللذين تمثلهما كل ثورة ناجحة.

هذا مثال نموذجي يسمح لنا بأن نفهم كيف يستطيع الفشل الفردي أن يفيد في ولادة جماعية جديدة، أن يكتسب من جراء هذا الفعل، في نظر الأجيال المقبلة، معنى فعل سام. ويسمح لنا هذا المثال أيضاً أن نفهم مقدار الفائدة التي تحصل عليها الذات الفردية من أعضاء الجماعة الذين يصبحون بذاتهم الجماعية، المستفيدين من التضحيات التي يرضى الزعماء بالقيام بها لتكوين الذات الجماعية. وعديدون هم العلماء والفلاسفة والمرشدون الروحيون للجماعة، الذين كانوا مخلصين فادين حملوا القهر من أجلنا.

(١) مكسميليان دو روبسبيير (١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) محامٍ وإصلاحي فرنسي. أحد كبار رجال الثورة الفرنسية وقادة الحكومة الثورية. لقّب بالنزيه العفيف، أبعد بعض أجنحة الثورة التي استطاعت الانقلاب عليه في ما بعد وإعدامه على المقصلة.

الجماعات الثورية وأعراض الفشل

مهما كان رأينا في الثورات من وجهة نظر فلسفية أو أخلاقية أو دينية فإن من الثابت أن الثورات من وجهة نظرنا تبدو كضرورات محتومة كلما قامت العادات الإدارية والفكرية لجماعة ما بمخالفة الميول العاطفية والمعطيات الاقتصادية التي تحدد تطورها. فمثل بعض ثياب الأطفال التي تضيق عليهم ذات يوم، قد تكفّ العادات الفكرية والإدارية، يوماً، عن ملء وظائفها. وهذه الوظائف لسوء الحظ أكثر صعوبة في التغيير من الثياب. فمع الممارسة تصبح هذه العادات في نهاية المطاف جزءاً من الأشخاص مثل جلدهم تماماً. ففي جماعة ما، يمثلها عادة أشخاص متقلدون سلطات ومتمتعون بحقوق، ويمنحهم المجتمع امتيازات لكي يجعلهم مؤهلين لتوجيه الإدارة وطريقة التفكير في البلد. وبعبارة أخرى، إن هؤلاء الأفراد يمثلون مبدئياً نخبة نظام ثابت بقوة. وينضم إلى هؤلاء في فترة التوازن رؤساء طبقات المجتمع، إما بأن يكونوا حاملين شحنات وراثية، وإما أن مهنهم تؤمن لهم تقدماً بالتفضيل أو بالأقدمية. فعدد من الأشخاص الراغبين في النجاح، يسعون إذاً إلى أن يكونوا في عداد هذه النخبة الإدارية والاجتماعية ليستفيدوا من هذه الامتيازات. ويصلون إلى ذلك بتحصيل طريقة خاصة في الرؤية، في التفكير، في التصرف والفعل تسمى امتثالية أو توافقية. وما يميزها هو أنها لا تبتعد في شيء عما هو معلّم أو مقبول أو محتمل رسمياً. فموظفو ملكية ما، مثلاً، سيكونون متضامنين مع نظام يجعل من المُلْك مؤسسة نظامية أرادها الله، وكل واحد منهم سيتصرف كممثل للملك، سيطالب بأمجاد مشابهة تقريباً. وتجري الأمور بالطريقة نفسها مع

أولئك الذين سيتوجب عليهم القيام بمسؤولية تنظيم طريقة تفكير الأفراد. فيكون رجال الدين المدافعين عن المعتقدات الدينية «المفروضة» من قبل الله وسيعتبرون كممثلين مؤهلين لصون هذه المعتقدات إلى حد ما.

وما يميز هؤلاء الممثلين لنظام اجتماعي هو كفاءتهم في الخضوع للنظام القائم والدفاع عنه كأنه ثابت، إما محبة له وإما لأن مصلحتهم المفهومة جيداً تأمرهم بذلك. وتوجد هذه الطريقة في الرؤية وفي التفكير، بشكل خاص، لدى الأفراد المؤمنين والمتعلقين بالدين بإخلاص. وهذه الخاصية الغالبة للميول العاطفية هي التي تحدد تعلقهم بالتقاليد وميلهم إلى التسلط.

إن هذا الأمر يوضح لنا، في مرحلة من التوازن الاجتماعي، كيف تسمح طريقة خاصة في الرؤية والتفكير لفئة كاملة من الأشخاص بالنجاح. أما في مقاومة هذه التقاليد، فإن هذه العقلية قد تصبح مصدراً للفشل بالنسبة اليهم بقدر ما تأخذ ردة الفعل طابع الثورة، مع حلول نظام اجتماعي جديد. وعلى العكس من ذلك، نجد أن بعض الأشخاص الذين جعلتهم عقليتهم يفشلون في مرحلة التوازن والاستقرار، يستطيعون في مرحلة الثورة التوصل الى النجاح، هم بدورهم، بتأمين انتصار الميول الجديدة التي يمثلونها والتي قادتها الجماعة الى الفشل قبل تدخلهم.

إننا نرغب الآن في دراسة هذه السيرورة فضلاً عن نتائجها على المستوى الفردي كما على المستوى الاجتماعي. فالأسباب التي تحدد إقلاع الجماهير عن التعلق بالتقاليد السائدة متعددة. إن المدافعين عن التقاليد يستطيعون التهاون في سهرهم وتيقظهم، وبمقتضى سيرورة التقدم في السن يصبحون غير مؤهلين لفرض أنفسهم قسراً. وقد تتعب الجماعة وتملّ من بعض التقاليد التي لم تعد تتلاءم مع ميول الطبقات الجماهيرية. فبعض الكوارث، كالحروب مثلاً، يمكنها أن تُظهر عدم كفاية النظام وتوجه ضده قوى الأمة الحيوية كلها. ولكن مهما كانت هذه الأسباب، فإنها تؤدي عادة إلى عدوانية، إلى كره، كامن أولاً، ثم ظاهر أكثر من قبل أفراد الجماعة ضد التقاليد السائدة. ويطلق وجود هذه العدوانية، بدءاً من بعض حدود التساهل، السيرورة الثورية.

إن السيرورة الثورية تنطوي على طرح تدريجي تقوم به جماهير الشعب وموجهوه للتقاليد التي يمثلها النظام ويدافع عنها، وبموازرة هذا الطرح تولد تصورات جديدة وتتوصل، بعد مرحلة من النضالات والأبحاث المترددة المتلمسة، إلى فرض نفسها على جماعة بمقدار ما تتجاوب مع حاجة حقيقية. فهذه السيرورة إذاً عاطفية بشكل عميق، وتفسح في أغلب الأحيان في المجال لنمو نظام جديد بأفكار جديدة رئيسة تحل بعد تحويلها إلى قوانين، محل التقاليد القديمة، وتصبح هي بدورها، مع الزمن، تقاليد شرعية. إن الانتقال من نظام إلى نظام آخر يميّز الثورة التي تمثل السيرورة الانتقالية بين النظامين، القديم والجديد. وخلال مرحلة الانتقال هذه، التي قد تكون طويلة إلى هذا الحد أو ذاك، تكون حياة جماعية مضطربة. وتبلغ هذه الاضطرابات ذروتها عندما يصبح ممثلو النظام القائم، وإلى حد كبير، فاقدي الثقة ومجردين من سلطتهم، في حين أن ممثلي النظام الجديد لم يظهروا بعد كقادرين على الحلول مكانهم وممارسة وظائفهم. وتتميز هذه الاضطرابات بالصراعات والنضالات والبلبلات على الصعيد الأخلاقي للأفكار، وفي أغلب الأحيان، تتسم بالحرب الأهلية بين الممثلين المختلفين للنظام القديم والأنظمة الجديدة التي تتنازع على الساحة.

ولا يفرض نظام جديد نفسه عادة إلا إذا مثله رئيس قادر على نشر أفكاره طوعاً أو قسراً. فليس ثورياً من يريد فقط، والإرادة وحدها لا تكفي. ومثل هذا الرئيس أو الزعيم يبدو خائناً بالنسبة إلى كل أولئك الذين يمثلون أفكار النظام التقليدي، وبالتالي لن ينضم الى العقول الاقتتالية لهذا النظام، بل سيجد نفسه أكبر في أوساط المعارضة، وسيتوجب عليه أن يكون مسلحاً بشكل خاص معنوياً ليتغلب على الصعوبات التي يجب أن يواجهها.

وهذه الصعوبات من درجات وأنساق متعددة:

١ ـ إن امتثالية النخبة والجماهير المعتادة على نظام ما تنشىء قوة كبيرة سلبية ينبغي التغلب عليها.

٢ ـ إن ضرورة الدخول في مواجهة مع التقاليد المعتبرة مقدسة، تكوّن شعوراً كبيراً بالإثم والشك عند الزعيم الثوري وعند الجماهير على حد سواء.

٣ ـ إن موهبة التجديد والابتكار دون دعم نخبة ما أو نظام ضرورية ولا توجد إلا عند القليل من الأشخاص، المعتادين على الحياة خارج الأطر المتعارف عليها وحتى في مواجهة معها.

٤ ـ إن ضرورة التضحية بتقاليد تتضمن غالباً ضرورة التضحية بالرجال الذين يمثلونها، مهما كانت قيمتهم الفردية. ووحدهم الرجال القادرون على القيام بنضالات استثنائية نادرة، وعلى امتلاك عدوانية خاصة مؤهلون لهذه المهمة. إن شخصية الزعيم الثوري، كما قلنا سابقاً، بعيدة بالضرورة عما يمكن اعتباره جزءاً من القاعدة أو القانون. وينبغي أن يتحلى بقابلية خاصة وكفاءة في تحسس تحركات الجماهير وفي التجاوب مع حاجاتها، لكن القدرة على إظهار فصاحة عادية تقريباً لا توجد ولا تقوم دون قدرة محترمة على اقتراح الجديد والإشارة إليه. وهكذا نفهم إلى أي حد يكون الأشخاص القادرون على حمل مثال ثوري إلى النصر استثنائيين ونادرين، وكم يكون من الصعب عليهم النجاح دون مؤازرة من المصادفات الملائمة.

إن معرفة التحليل النفسي تسهّل مهمتهم إلى حد كبير، بمساعدتهم على إيجاد طريقهم بثقة أكبر وبإنقاص المعاناة التي تسببها ضرورة مواجهة الشعور بالذنب الفردي والجماعي، المؤثر بشكل خاص. وتسمح هذه المعرفة أيضاً بتحديد الحاجات المتناقضة ظاهرياً للطبقة الثورية والتجاوب معها بقدر ما تكون هذه الحاجات ضرورية، لتقدم السيرورة النفسانية والأخلاقية المؤدية إلى خلق نظام جديد.

ومن هذه الحاجات ما يمكنه أن يفاجىء أي شخص غير معتاد على هذه المظاهر للواقع البشري. ولكي نفهم هذا جيداً ينبغي أن ندرك حقيقة الصعوبة التي تقوم ما بين جماهير في حالة توازن واستقرار اجتماعيين وجماهير في حالة غليان وهيجان. فالطبقة الثورية مؤلفة عادة من مجموعة من الأفراد الذين خرج نموهم الاجتماعي أو ظروفهم على أطرهم العادية التي أصبحت ضيقة جداً ولم تعد تتجاوب وتتلاءم مع ضروريات العصر. والأفراد المحرومون من دعم بيئاتهم يكونون غالباً من جراء ذلك مهددين في وظائفهم وفي وجودهم، دون

تعلُّق كافٍ بفكرة دينية، وبتقاليد أو بتنظيم اجتماعي، ويجدون أنفسهم في حالة من اللاتوازن العاطفي العميق والمميز بـ:

١ ــ القلق.

٢ ــ شعور بالذنب ناجم عن تحررهم من الأطر القائمة.

٣ ــ عدوانية خاصة تسببها الحاجة إلى إسقاط إثمهم وقلقهم على الآخرين على طريقة الأوالية النفسانية المميزة للذُهانيين والادعائيين.

وينجم عن ذلك أن هذه الطبقة، على العكس من الطبقة المتوازنة المستقرة، تحركها قساوة كبيرة توجه الأفراد بعضهم ضد بعض، وتدفعهم إلى نشر الرعب لكي يسقطوا على الضحايا ثقل رعبهم الشخصي. والزعيم وحده قادر على فهم هذه الحاجات، وبقيامه بالاهتمام بها وحسب حسابها يستطيع فرض نفسه على طبقة مماثلة وقيادتها، فالتفكير العقلي وحده عاجز عن مواجهة اضطرابات عاطفية من هذا النوع.

إن العُصاب هو الذي سلّح الزعيم غالباً ليتيح له السيطرة على جمهور هائج. وهناك أنواع من العُصاب يتوجب على منطقها الانتصار، إذا لم يكن هذا المنطق راغباً في الغرق في هاوية اللاشعور. فالرجل الذي توصّل دون مساعدة أخرى غير قواه الشخصية، إلى السيطرة على ظلمات روحه يكتسب كفاءة خاصة لمواجهة ظلمات الروح الجماعية. وإن الأواليات النفسانية التي يلجأ إليها للتأثير في جماعة هي الأواليات التي سمحت له بتهدئة إحساسه الخاص المضطرب والمجروح.

إذاً إن النضال ضد العُصاب، بفشله وخيباته هو الذي سيكون قادراً على تحديد هذه الكفاءات الخاصة التي نتعرف إليها عند العبقري الذي يحتفظ غالباً جداً بآثار الجروح التي أصيب بها في هذا النضال ضد لاشعوره الشخصي. وهكذا تكون عبقرية الزعيم الثوري ثمرة بعض أنواع الفشل العاطفي التي سيسعى الرجل المهدد في كماله الروحي وفي منطقه، إلى انتصارها وإعلاء شأنها بكل الوسائل. فالكثير من الأشخاص، مثل روبسبيير مثلاً، المحقّرين من

أجل لاتوازنهم ومن أجل الرعب الذي نشروه في الجماعة الثورية، كانوا، بطريقة ما، المنقذين. فالحاجات العاطفية لهذا الجمهور التي ليس لديها أي قاسم مشترك مع حاجات الجمهور العادي، تستلزم علاجاً استثنائياً.

إن الأواليات النفسانية التي تحتاج إليها الطبقة الثورية هي الأواليات التي يستخدمها الفرد للسيطرة على لاشعوره الشخصي. وقد آن الأوان للتكلم على هذه الأواليات بكل موضوعية لنتيح للزعماء الانتفاع بها عند الاقتضاء، لكن الموضوع سيتجاوز كثيراً نطاق هذا الكتاب. فلنكتف ببساطة بالتأكيد أنه من المستحيل تقدير القيمة الحقيقية لبعض الشخصيات الثورية، ومعنى حياتهم وأفعالهم وتضحياتهم التي تظهر غالباً بشكل فشل فردي وأحياناً اجتماعي، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار بعض مظاهر هذه المسألة التي حاولنا أن نجعلها سهلة الإدراك من قبل قارئنا العزيز. إذ إن تاريخ الرجال والمؤسسات الاجتماعية كتاريخ ما لن يصبح علماً حقيقياً إلا انطلاقاً من اللحظة التي تفهم فيها السيرورات النفسانية التي هي النتاج الذي لا مفر منه.

****

جان جاك روسو[1] والفشل

نُشرت منذ عدة أعوام دراسة عن جان ـ جاك روسو تستحق أن تحتل مكاناً في هذا العمل الذي يبحث في الفشل من زاوية علم النفس المَرَضي. فمنذ ذلك الحين كبر ميدان علمنا، وشهد مفهوم الذات الخارقة تطوراً كبيراً. إذاً نحن الآن مسلّحون بشكل أفضل للهجوم على هذه الحالة النفسية.

ومع أن هذه المسألة بقيت تقريباً كما طرحت في الدراسات الأولى، فإن من المناسب أن نضيف إليها بعض التفاصيل. ومن جهة أخرى لن نقوم إلا بمتابعة العمل الذي بدأه جان ـ جاك روسو نفسه الذي اصطدم غالباً خلال حياته اليومية بالمسائل نفسها التي اصطدمنا بها والتي حاول فهمها دون التوصل إلى ذلك.

وسنبدأ بترك الكلام له: «لقد تأملتها في كتاب ثالث أدين بفكرته إلى

(١) جان ـ جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كان شاباً سقيماً ضعيف البنية. دفعه اعتلال صحته وعدم شعور والديه وأساتذته بالعطف عليه إلى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الحياة العملية إلى حياة الفكر والتأمل. لقد هرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأحلام، حيث يعوض عليه الخيال ما حرمته الحياة من حب وعطف وصحة. إن اعترافاته تكشف عن مركّب متناقض من العواطف والمشاعر تنطوي على الأمانة والكرامة والشرف. وخلاصة ما جاء به روسو هو أنه بالرغم من أن العقل يتجه اتجاهاً معادياً للمشاعر والأحاسيس المختلفة فإن الشعور يؤيدها تأييداً كبيراً، فلماذا لا نثق إذاً بشعورنا الفطري.

ملاحظات قمت بها على ذاتي، وقد شعرت كذلك بشجاعة أكبر للشروع فيه إلى درجة أني آمل أن أكتب كتاباً مفيداً حقاً للبشر، بل أحد أهم الكتب التي يمكن تقديمها اليهم وأكثرها فائدة، إذا كان إنجازه يتلاءم كما ينبغي مع الخطة التي رسمتها لنفسي. فقد لوحظ أن معظم الناس مختلفون عن ذواتهم، غالباً، خلال حياتهم، كما يبدو أنهم يتحولون إلى أُناس مختلفين تماماً. ولم يكن هدفي من هذا الكتاب إقامة شيء معروف، بل كان لديّ هدف أكثر جدة وحتى أكثر أهمية: إنه البحث عن أسباب هذه التغيرات، والتعلق بالتغيرات المتعلقة بنا، لكي نوضح كم أنها تستطيع أن تكون موجهة من قِبلنا نحن أنفسنا لكي تجعلنا في حال أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا، لأن مقاومة الرغبات التي تشكلت سابقاً والتي ينبغي التغلب عليها أكثر صعوبة بكل تأكيد على الإنسان الشريف من تدارك أو تغيير أو تعديل هذه الرغبات نفسها في منبعها، إذا كان في حالة تجاوزها: إذ يقاوم الرجل المجرب مرة لأنه قوي، ويستسلم مرة أخرى لأنه ضعيف، ولو كان كما في السابق لما استسلم.

فبتفحُّص ذاتي، وفي البحث في الآخرين عما تتوقف عليه طرق الوجود المتنوعة هذه، وجدت أنها تتعلق، إلى حد كبير، بالانطباع السابق للأشياء الخارجية، ولأنها تتغير باستمرار بوساطة حواسنا وأعضائنا، نحمل دون أن ندرك ذلك، في أفكارنا وفي مشاعرنا وفي أفعالنا نفسها نتيجة هذه التغيرات. والملاحظات العديدة والمذهلة التي جمعتها كانت فوق أي جدال، وهي تبدو لي من خلال مبادئها الفيزيائية جديرة بإقامة نظام خارجي يستطيع بتنوعه وفق الظروف والأحوال وضع الروح أو المحافظة عليها في الحالة الأكثر ملاءمة للفضيلة. فكم من الانحرافات تُصحَّح بالمنطق، كم من العيوب ستُمنع من الظهور إذا عرفنا كيف نرغم التدبير الحيواني على تفضيل النسق الأخلاقي الذي يعكّره غالباً؛ فالمناخات والفصول والأصوات والألوان والظلمة، الضوء والعناصر والأغذية والضجة والصمت والحركة والراحة كلها تؤثر في آلتنا وفي روحنا، وبالنتيجة، كلها تقدم لنا ألف مغنم أكيد تقريباً لكي تُحكم في أصلها المشاعر التي سمعنا بسيطرتها. هذه كانت الفكرة الأساسية.

لقد عملت مع ذلك قليلاً جداً على هذا الكتاب الذي كان عنوانه: «**علم الأخلاق الحسية أو مادية الحكيم**».

إن تعديل الرغبات أو النزاعات في مصدرها إذا كان الرجل قادراً على التغلب عليها، هو أمنية روسو الذي أذهله تنافر حياته التي جرته، لأسباب غير مفهومة ظاهرياً، في اتجاه مختلف تماماً عن الاتجاه الطبيعي الذي رغب في الالتزام به.

فما هي هذه القوة التي أحس بأنه ألعوبة بين يديها والتي كانت تجعل منه كما جعلت من فرلين كذلك «ورقة ميتة... تحملها... الريح السيئة».

فما هي حياته ونزاعاته؟. لقد تكلم عليها بحرّية كبيرة في كتابه **اعترافات**، محققاً، تجاه صعوباته النفسية الشخصية، درجة من الموضوعية النادرة في عصره. لكن روسو يريد تفسير ذاته؛ ولا ينبغي دائماً الأخذ من الرسالة كل ما تقول. فعلى العموم، عندما يصف نزاعاته والمظاهر الخارجية لأزماته النفسية، يمكن الوثوق به، لأن جدوله العيادي يتوافق مع ما أتاح التحليل النفسي لنا اكتشافه بخصوص علم الأعراض المَرَضية لهذه الحالات. فماذا يقول عن حياته الجنسية؟

«كما أن الآنسة لامبرسيه تحفظ لنا حنان أم وعاطفتها، فإنها تمتلك أيضاً السلطة، وتصل بها أحياناً إلى حد أنها تفرض علينا عقاب الأطفال عندما نستحق ذلك. وقد اكتفت لمدة طويلة نسبياً بالتهديد، وهذا التهديد بالعقاب الجديد كلياً بالنسبة إليّ كان يبدو لي مرعباً جداً. ولكنْ بعد تنفيذه وجدته أقل إرعاباً من انتظاره؛ والأكثر غرابة فيه هو أن هذا العقاب أعجبني أكثر من تلك التي فرضته علي. واحتجت إلى كل حقيقة هذا الحنان وكل لطفي الطبيعي لكي أمنع نفسي من السعي إلى العودة إلى العلاج نفسه عبر استحقاقه، لأني وجدت في الألم، في العار نفسه، خليطاً من الملذات الحسية تركت لديَّ الرغبة فيه أكثر من الخوف من معاناته مجدداً بوساطة اليد نفسها. ومن الصحيح أن العقاب نفسه الذي نلته من أخي، بما أن هذا الأمر يختلط بلا شك مع غريزة ما جنسية مبكرة، لم يبدُ لي أبداً ممتعاً. لكن، من جراء طبعه الذي كان

عليه، فإن هذا الاستبدال لم يكن يخشاه إلا نادراً؛ وإذا كففت عن استحقاق التأديب، فذلك فقط خوفاً من اغضاب الآنسة لامبرسيه: لأن هذا كان في نفسي سيطرة للعطف، وحتى السيطرة التي ولّدتها الحواس التي أعطتها دائماً السيادة على قلبي...

فمن كان يعتقد أن هذا العقاب الطفولي الذي نلته في عمر الثماني سنوات على يد فتاة في الثلاثين، قد أثّر في ميولي ورغباتي وأهوائي وفي ذاتي طوال حياتي، وهذا الأمر جرى بالتحديد في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي كان ينبغي عليّ سلوكه بشكل طبيعي؟ وفي الوقت نفسه الذي التهبت فيه حواسي، والتمست رغباتي التغيير بشكل كبير، وهي إذ انحصرت بما كنت أعانيه، لم تتجرأ أبداً على البحث عن شيء آخر. فبدم ملتهب بالملذات الحسية منذ ولادتي تقريباً، حافظت على نفسي نقياً من كل قذارة حتى العمر الذي تتطور فيه. وأنا إذ تعذبت طويلاً دون أن أعرف ممّا أتألم، كنت أحدّق بنظرة حادة بالأشخاص الجميلين، وكانت مخيلتي تذكّرني بهم باستمرار، ولكي أستخدمهم على طريقتي وهواي، وأتصرف بهم مثل الآنسة لامبرسيه.

وحتى بعد سن الرشد، حافظ لي هذا الميل العجيب، الثابت أبداً الذي يصل إلى حد الانحلال، إلى حد الجنون، على العادات الشريفة التي بدا لي أن من الواجب عليَّ انتزاعها من ذاتي، وإذا ما كان هذا التهذيب متواضعاً وعفيفاً، فذلك قطعاً التهذيب الذي تعرضت له. إذ لم تكن عمّاتي الثلاث نساءً ذوات حكمة نموذجية فقط، بل ذوات تحفُّظ لم يعد النساء يعرفنه منذ زمن بعيد. وأبي، رجل لذة، ولكنه إذ أصبح ظريفاً على الطريقة القديمة، لم يتحدث أبداً أمام النساء اللواتي أحبهن أكثر من غيرهن بألفاظ يمكن أن تحمرّ الفتاة العذراء خجلاً منها، ولم يُفقد أبداً في عائلتي وأمامي الاحترام المتوجب للأطفال. ولم أجد انتباهاً وتيقظاً أقل عند الآنسة لامبرسيه حول هذه النقطة نفسها، وقد طَردتْ خادمة جيدة وقوية لتلفُّظها بكلمة بذيئة أمامنا. وليس الأمر أنني لم أمتلك فقط حتى مراهقتي أية فكرة واضحة عن اجتماع الجنسين واتحادهما، بل إن هذه

الفكرة المبهمة لم تقدم اليّ أبداً إلا بصورة كريهة ومقرفة. فكنت أمتلك تجاه الفتيات اللعوبات كرهاً لم يُمحَ أبداً. ولم أكن أستطيع رؤية فاسق دون احتقار، وحتى دون هلع: لأن نفوري من الفسق كان يصل حتى ذلك الحد، منذ أن ذهبت يوماً إلى إحدى القرى عبر طريق متعرجة في الحقول، وشاهدت على الجانبين أمكنة في الأرض، قيل لي إن هؤلاء الأشخاص يجتمعون فيها. وما كنت أسمعه من كلام هؤلاء كان يعاودني كذلك دائماً في ذهني أثناء تفكيري في الآخرين، وكان القلب يثيرني عند هذه الذكرى وحدها.

إن هذه الآراء المسبقة التربوية، الجديرة بذاتها أن تؤخر وتعيق التفجرات الأولى للمزاج الملتهب، قد ساعدتها، كما قلت سابقاً، التحولات التي أجرتها في ذاتي اللذعات الأولى للنزعة الحسية للذة. ولا ينبغي التخيل أن هذا هو ما كنت أشعر به، رغم غليان الدم المتعب جداً، فلم أكن أحسن حمل رغباتي إلا نحو نوع اللذة التي كنت أعرفها، دون الذهاب أبداً إلى تلك اللذة التي جُعلت كريهة بالنسبة إلي، والتي تتعلق عن قرب بالآخر دون أن يراودني أدنى شك في ذلك. ففي نزواتي الحمقاء، وفي اندفاعاتي الشهوانية، وفي الأفعال الغريبة التي كانت تحملني إليها أحياناً، كنت أتلقى بشكل خيالي النجدة من الجنس الآخر، دون التفكير أبداً أنها غير صالحة لأي استعمال آخر غير الاستعمال الذي أتحرق للخروج منه.

وهكذا، إذاً، لم أُمضِ بمزاج حاد جداً وشهواني جداً ومبكر جداً عمر المراهقة دون الرغبة ودون معرفة ملذات حسية أخرى مختلفة عن تلك التي أعطتني الآنسة لامبرسيه ببراءة كبيرة فكرة عنها، بل في نهاية المطاف، عندما جعل مني تقدم السنوات رجلاً، ما كان ينبغي أن يتركني ليحافظ علي. فميلي الطفولي القديم، بدلاً من التلاشي، اتحد الى حد كبير مع الميل الآخر الذي لم أستطع أبداً إبعاده عن الرغبات التي أضرمتها حواسي، وقد جعلني دائماً هذا الجنون المنضمّ إلى خجلي الطبيعي قليل القدرة على التغزل أمام النساء، وفاقداً الجرأة على قول كل شيء أو القدرة على القيام بكل شيء، فنوع

المتعة التي لم يكن الآخر، بالنسبة إلي، إلا حدها الأخير، لم يكن قادراً على أن يكون مغتصباً من قبل ذلك الذي يرغب فيها، ولا متوقعاً من تلك التي تستطيع منحها.

وهكذا أمضيت حياتي في الاشتهاء والخرس بالقرب من الأشخاص الذين أحببتهم أكبر حب. وأنا إذ لا أجرؤ أبداً على إعلان رأيي، كنت أعلّله على الأقل بالعلاقات التي حافظت لنفسي على فكرة عنها، بأن أكون راكعاً قرب عشيقة متصلفة مطيعاً أوامرها، سائلاً إياها الصفح والمغفرة. كل هذه الأمور كانت بالنسبة إلي مُتعاً لطيفة جداً، وكلما أججت مخيلتي الحية دمي، ظهرت كحبيب مرتعد. ولا شك في أن هذه الطريقة في ممارسة الحب لا تؤدي إلى تقدم سريع جداً، وليست خطرة جداً على فضيلة الفتيات اللواتي كنّ موضوعها ومادتها. إذاً كنت مكبوحاً قليلاً، ولكنني لم أكف عن التمتع كثيراً على طريقتي، أي بوساطة المخيلة.

وهكذا قامت حواسي المتوافقة مع مزاجي الخجولي وذهني الحالم بالاحتفاظ لي بمشاعر نقية وأخلاق شريفة، بوساطة الميول نفسها التي كانت ستغرقني وربما مع قليل من السفه في ملذات عنيفة.

ها نحن إذاً واثقون من أن روسو لم يكن يصل إلى الإنعاظ إلا بشرط الشعور بالضرب على يد شخص مثل الآنسة لامبرسيه. ولكن لا ينبغي الاعتقاد أن هذه الحياة الجنسية الخاصة والاستثنائية قد اكتفت بإشباعات خيالية، كما يؤكد، فقد عرف كيف يحصل لنفسه على الإشباع الحقيقي فعلاً بالشعور بأنه مهان بألف طريقة وطريقة، وقد استخدم حججاً لا تعدّ ولا تحصى للوصول إلى هذه المتعة. وهذا ما يرويه لنا، في كتابه **اعترافات**، عن موضوع نزعته الاستعرائية:

«لقد تضخم اهتياجي إلى حد أنني إذا لم أعد قادراً على إرضاء رغباتي، أججتهابوساطة الطرق الأكثر غرابة وشذوذاً. فكنت أفتش عن ممرات معتمة، وخلوات منفردة خفية أستطيع أن أعرض نفسي فيها من بعيد لأفراد الجنس

الآخر، في الحالة التي أرغب في أن أكون فيها بالقرب منهن. وما كن يرينه لم يكن الشيء الفاحش، إذ لم أكن أفكر في ذلك، بل كان الشيء المضحِك. فاللذة الحمقاء التي كانت لديّ من جراء كشفه أمام أعينهن لا يمكن وصفها، ولم يكن هناك أكثر من خطوة للشعور بالمعاملة المرغوبة، ولا أشك في أن بعض العزم لم يكن ليعطيني، أثناء مروري إلا التسلية واللهو، لو كان لدي الجرأة على الوقوف بالانتظار».

إذاً، كان روسو يحب أن يعرض على الفتيات ليس «الشيء الفاحش» بل «الشيء المضحك» أي ردفيه، للحصول على «المعاملة المرغوبة» «واللذة الحمقاء التي كانت لدي من جراء كشفه أمام أعينهن لا يمكن وصفها». أي إن اللذة الحمقاء من جراء إذلال النفس يجعلها مثيرة للسخرية والضحك. ونحن ندين على الأرجح لهذه اللذة الحمقاء في حصولنا على كتابه اعترافات، الذي يعرض بؤسه وجروحه المعنوية للعالم أجمع، وبإلحاح غير طبيعي إلى حد ما في ذلك العصر، على هذا النوع من المواضيع. وبفضل هذه «اللذة الحمقاء» أيضاً توجّب على فيلسوفنا أن يعرّض نفسه للنقد اللاذع من قبل هؤلاء المواطنين الشجعان أنفسهم عندما انفرد جرياً على عادته، بتقديم نفسه إليهم متنكراً بشكل سافر، لكي يتنزه في أزقة القرى السويسرية، وبذلك الشكل لم ينجح فقط في مفاجأة جمهوره وإذهاله، بل نجح أيضاً في أن يعرّض نفسه للضرب بشدة من قبل ذلك الجمهور. ونذكر في هذا السياق مرض روسو وأفكاره الاضطهادية كما تطورت مع الزمن عندما كان يعتقد أنه هدف لسخرية «عصبة هولباخ[1] وغريم[2]». وبعض المجاملات والتي استطاع في شبابه استخدامها لتقوية لذته بأن يكون محقَّراً، وليس بأقل صحة من ذلك أنه مع التقدم في السن بدأ يقاوم هذا الأمر السيّىء الذي كان يظهر له كرذيلة، وحرم نفسه كذلك من

(١) بول هنري هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) فيلسوف فرنسي ذو نزعة مادية.

(٢) فريدريك غريم (١٧٢٣ ـ ١٨٠٧) صحافي ألماني كان صديقاً للموسوعيين الفرنسيين.

إشباع توجَّب على لاشعوره أن يفتش عنه في مكان آخر، بدءاً من اللحظة التي أراد فيها ممارسة الفضيلة والتصرف في الحب كرجل طبيعي. وبقدر ما استطاع جان ـ جاك روسو السيطرة على نقاط «ضعفه»، اتخذ مرضه السمات المميزة لجنون الاضطهاد: فكان يشعر أنه مهدد من قبل الدسائس الانتهازية لأعدائه. ولنتذكر أحد المقاطع الأكثر إقناعاً من كتابه **المتنزه المتوحد**.

«ها أنا، إذاً، وحيد على الأرض، ليس لي أخ، أو قريب، أو صديق أو مجتمع إلا ذاتي، فالأكثر إلفة والأكثر محبة من البشر حُرِم من ذلك باتفاق إجماعي. لقد بحثوا في حقدهم المفرط عن العذاب الأكثر وحشية لروحي الرقيقة، وحطموا بعنف كل الروابط التي تشدني إليهم. كنت أحب البشر رغماً عنهم، لكنهم لم يستطيعوا، بامتناعهم عن ذلك، التهرب من محبتي. وها هم غرباء، مجهولون، ولا قيمة لهم في النهاية بالنسبة إليّ، لأنهم أرادوا ذلك. ولكنني، إذ أنفصل عنهم وعن كل شيء، ماذا أكون أنا نفسي؟ هذا ما بقي عليّ التفتيش عنه. وهذا البحث لسوء الحظ ينبغي أن يُسْبق بنظرة إلى وضعي، هذه هي الفكرة التي ينبغي بالضرورة أن أمر بها للوصول منهم إلى ذاتي.

منذ خمس عشرة سنة ونيف وأنا في هذا الوضع الغريب، وهو يبدو لي أيضاً كحلم. إنني أتخيل دائماً أن عسر هضم يعذبني، وأنني أنام نوماً سيئاً، وأنني سأستيقظ، مرتاحاً جداً من عنائي، بإيجاد نفسي مع أصدقائي. نعم، لا شك أنه ينبغي أن أقوم، دون أن أتبين ذلك، بقفزة من الأرق إلى النوم، أو على الأصح من الحياة إلى الموت. منسحباً، ولا أدري كيف، من نظام الأشياء، وأرى نفسي مستقراً في خواء مبهم، حيث لا أتبين شيئاً أبداً، وكلما فكرت بوضعي الحالي، لم أستطع فهم أين أنا.

وكيف أستطيع التنبؤ بالمصير الذي ينتظرني؟ كيف أستطيع أن أتصور اليوم أنني مستسلم اليه؟ هل أستطيع الافتراض، بعقلي السليم، أنني ذات يوم، أنا، الرجل نفسه الذي كنته، الرجل نفسه الذي أكونه أيضاً، سأنتقل، سأعتبر دون أدنى شك، كوحش، مفسِد، قاتل، وأنني سأصبح رعب السلالة البشرية، ألعوبة السوقة الأوباش، وأن الموقف الذي سيقفه مني العابرون سيكون البصق

في وجهي، وأن جيلاً بكامله سيتسلى باتفاق إجماعي بدفني حياً؟ وعندما ستحدث هذه الثورة الغريبة، وأؤخذ على حين غرة، سأضطرب من ذلك أولاً ويتبلبل فكري، وستغرقني اهتياجاتي ونقمتي في هذيان لن تكفيه عشر سنوات ليهدأ ويسكن، وفي هذه الأثناء، إذ أقع من خطإ إلى خطإ ومن هفوة إلى هفوة. ومن حماقة إلى حماقة، أقدم، بطيشي وتهوري، لموجِّهي قدري في الوسائل ما استخدموه بمهارة ليثبتوه نهائياً».

لقد تمردت ذات روسو كثيراً ضد شهواته الليبيدية، وأعلن كثيراً الحرب على القوة التي كان أسيراً لها، ولكنها لم تكفّ عن السيطرة عليه وعن اضطهاده بشراسة، ولا سيما أنه كان يحاول الإفلات منها. وإن هذه الحقائق الثلاث: نزعة استعرائية[1]، واعترافات وهذيان الاضطهاد تصور المظاهر المختلفة لمرضه، فما الذي دفعه في هذا الاتجاه الذي كان مخرجه الوحيد هو الجنون؟ ماذا نستطيع أن نعرف عن ذاته الخارقة التي سدّت له بكل شراسة الطريق نحو السعادة البشرية؟ ماذا يقول عن طفولته؟

«ولدت في جنيف في العام ١٧١٢، من رجل هو إسحاق روسو و.مرأة هي سوزان برنارد. وقد تقاسم خمسة عشر ولداً ثروة زهيدة، فلم يحصل والدي منها إلا على نصيب تافه، ولم يكن يملك للاستمرار إلا مهنته كساعاتي وكان في الحقيقة بارعاً جداً فيها. أما أمي، ابنة الوزير برنارد، فقد كانت أكثر غنى: كانت تملك بعض الحكمة والجمال. ولم يتزوجها أبي بسهولة. وقد بدأ حبهما تقريباً مع بداية حياتهما. فمن عمر الثماني أو التسع سنوات لم يكن بمقدورهما الافتراق. فالتعاطف وتوافق الأرواح، رسّخا فيهما الشعور الذي خلقته العادة. وهما الاثنان، إذ ولدا حنونين ورقيقين، لم يكونا ينتظران إلا لحظة العثور عند الآخر على الحالة نفسها، أو على الأصح، كانت هذه اللحظة تنتظرهما معاً، وكل واحد منهما فتح قلبه للآخر. وحتى القدر الذي بدا أنه يعارض أهواءهما

---

(١) النزعة الاستعرائية نزعة مرضية إلى تعرية العورة.

لم يقم إلا بتأجيجها. فالشاب العاشق تلف من الألم لأنه لم يستطع الحصول على حبيبته، وقد نصحته هذه الأخيرة بالسفر كي ينساها. فسافر ولكن عبثاً، فقد عاد أكثر عشقاً من ذي قبل. ووجد الفتاة التي يحبها حنونة ووفية. وبعد هذا الاختبار، لم يجدا إلا أن يتحابا إلى الأبد، وأقسما على ذلك، وباركت السماء قسمهما.

وقام والدي، بعد ولادة أخي البكر، بالسفر إلى القسطنطينية حيث استدعي ليكون ساعاتي السراي. وخلال غيابه، جذب جمال أمي وفكرها ومواهبها الأنظار إليها، وخاصة أنظار السيد دولا كلوزور، سفير فرنسا، الذي بادر إلى ملاطفتها. وينبغي أن يكون غرامه عنيفاً لأنه عندما حدثني عنها بعد ثلاثين سنة حدثني برقة ومحبة. لكن أمي لم تكن تمتلك الفضيلة فقط لدفعه عنها، بل كانت أيضاً تحب زوجها بحنان. وقد كتبت إليه تستعجله العودة فترك كل شيء وعاد. وكنت أنا الثمرة البائسة لهذه العودة. إذ ولدت بعد عشرة أشهر مريضاً وذا عاهة، وكلّفتُ أمي حياتها، فكانت ولادتي أولى تعاساتي.

إنني لا أدري كيف تحمّل والدي هذه الخسارة، لكنني أعلم أنه لم يتعزَّ أبداً. وكان يعتقد أنه يرى أمي من خلالي، ولكن دون أن ينسى أنني قد انتزعتها منه، فلم يعانقني قط إلا وشعرت بتنهداته، ومعانقاته المتشنّجة، وأن حسرة مرة تختلط بمداعباته التي لم يكن هناك ألطف منها. وعندما كان يقول لي: جان ـ جاك، لنتحدث عن أمك أقول له: حسناً يا أبي، سنبكي إذن. وهذه الكلمة وحدها كانت كافية لانبثاق دموعه. فيصرخ متأوهاً: آه، أعدها إلي، واسني بها، املأ الفراغ الذي تركته في روحي. هل كنت أحبك بهذا الشكل لو لم تكن ابني؟ بعد أربعين سنة من فقدانها، مات بين ذراعيّ امرأة أخرى، ولكن اسم تلك المرأة الأولى في فمه، وصورتها في أعماق قلبه.

هذان هما والداي، اللذان من بين كل الهبات التي منحتهما اياها السماء فإن الشيء الوحيد الذي تركاه لي هو قلب رقيق، لكنه صنع كل سعاداتهما، وصنع كل تعاسات حياتي.

لقد ولدت وأنا شبه ميت، ولم يكن هناك إلا أمل ضئيل بأن أبقى على قيد الحياة. وكنت أحمل برغم انزعاج قوّته السنوات، والآن لا يعطيني أحياناً بعض الراحة إلا ليتركني أتألم بوحشية أكبر بطريقة أخرى. فإحدى عماتي، وهي فتاة محبوبة وعاقلة، اعتنت بي كثيراً وأنقذتني. واليوم وأنا أكتب هذه الكلمات، لا تزال هي حية، تعتني وهي في الثمانين بزوج أصغر منها سناً، ولكنه مستهلك من الشرب. ويا عمتي العزيزة، إنني أسامحك لأنك جعلتني أحيا، وآسف لأنني لا أستطيع أن أردّ لك في نهاية أيامك العناية الحنونة التي غمرتني بها في بداية حياتي: ولديَّ كذلك صديقتي جاكلين التي ما تزال حية، سالمة وصلبة. فالأيدي التي فتحت عينيَّ عند ولادتي تستطيع إغلاقهما لي عند مماتي.

إنني أشعر وأحس قبل أن أفكر: وهذا هو القدر المشترك للبشر. وقد عانيت من أكثر من قدر آخر. وأنا أجهل ما فعلته حتى عمر خمس أو ست سنوات. ولا أدري كيف تعلمت القراءة، ولا أتذكر إلا بعض قراءاتي الأولى وأثرها فيَّ: وهذا هو التاريخ الذي أعي نفسي فيه وبلا انقطاع. لقد تركت لي أمي بعض الروايات. كنّا، أبي وأنا، نقرأها بعد العشاء. ولم تكن المسألة في البداية إلا تدريبي على القراءة بوساطة كتب مسلية؛ ولكن أصبحت الفائدة بسرعة قوية وحيوية بحيث كنّا نقرأ كل بدوره دون توقّف، وكنّا نمضي الليل على هذه الصورة. ولم نكن نستطيع التوقف أبداً إلا عند نهاية الكتاب. وكان أبي أحياناً، إذ يسمع زقزقة السنونوات عند الصباح، يقول خجلاً: لنذهب إلى النوم، إنني أكثر طفولة منك».

ها هو جان ـ جاك روسو إذاً، يُعبّر للمرة الأولى عن هذا اللوم الذي كان يشعر عبره بالاضطهاد. كأن والده، بناء على ذاته الخارقة الأبوية، يقول له: «أنت قتلت أمك، أرجعها إلي، حُلَّ محلها بتخليك عن رجولتك»، وعلى الأثر، بدلاً من إظهار «الشيء الفاحش» أي العضو الجنسي، الذي كان ينعته بالفاحش، كان يظهر إسته، الذي يستبدله اللوطيون بالعضو الأنثوي. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أنه أمضى ليالي كاملة مع والده، مطوراً عاطفة يبدو بكل وضوح أن ليس لها أية علاقة بعاطفة صبي صاخب وعدائي بشكل طبيعي. ولنرَ الآن

كيف كان جان ـ جاك روسو يتخيل الحب بعد هذا التأثير الأبوي :

«كنت أتصور الحب والصداقة، معبودي قلبي، بالصور الأكثر روعة. وكنت أزينهما بكل مفاتن الجنس الذي أحببته بشدة دائماً. كنت أتخيل صديقتين، أكثر مما أتخيل صديقين، وذلك لأن المثل يقول «إن كان أكثر ندرة فهو كذلك محبوب أكثر». وكنت أمنحهما صفتين متماثلتين، ولكن مختلفتين، صورتين غير كاملتين، ولكنهما من صنع ذوقي، وهما تبعثان الرفق ورقة الإحساس. وجعلت إحداهما سمراء والأخرى شقراء، الأولى حيوية والأخرى لطيفة، واحدة حكيمة عاقلة والثانية ضعيفة، ولكنها ذات ضعف مؤثر وعليه مسحة الفضيلة. وجعلت لإحداهما حبيباً، وجعلت الثانية صديقته الحنونة، وحتى أكثر من ذلك، ولكني لم أقبل المنافسة ولا المشاجرات، ولا الغيرة، لأن كل شعور متعب يكلفني أن أتخيل ولم أكن أريد تكدير هذه اللوحة الضاحكة بشيء يفسد الطبيعة. وأنا إذ أولع بنموذَجيَّ الرائعين الفاتنين، أتواحد مع الحبيب والصديق بقدر ما يمكنني ذلك، ولكني أجعله شاباً ومحبوباً، وأمنحه فضلاً عن ذلك الفضائل والعيوب التي كنت أحس بها.

ولكي أضع شخصياتي في المكان الذي يلائمهم، كنت أستعرض أجمل الأمكنة التي رأيتها خلال رحلاتي.

ولزمني مع ذلك بحيرة، واخترت في النهاية تلك البحيرة التي لم يكفَّ قلبي أبداً عن التفكير بها. واستقريت على ضفاف هذه البحيرة حيث أقامت أمنياتي منذ زمن طويل مسكني في السعادة الخيالية التي حددها لي القدر. فقد كان مسقط رأس أمي ما زال يشكِّل أيضاً بالنسبة إلي سحراً مفضلاً. وتباين المواضع، وغنى المواقع وتنوعها، والروعة، وجلال الوحدة التي تخلب الحواس وتثير القلب وتعظِّم الروح ـ كل هذه الأمور أتمت تحديدي، وكوَّنت في مدينة ففي (Vevai) عينيّ الشابتين. هذا كل ما أتخيله للوهلة الأولى، ولن ينضاف إليه ما تبقى إلا فيما بعد».

صديقتان أكثر من صديقتين «لأن المثل إن كان أكثر ندرة فهو كذلك محبوب أكثر». لكن أيقول روسو لنا فعلاً الحقيقة؟ ألم يكذب في هذه النقطة ويموه الحقيقة كي لا يعتبر لوطياً؟ ونحن نرى أن الأمر يتعلق فعلاً بصديقين كانا يعيشان في مسقط رأس «أمي المسكينة» مثله هو وأبيه في طفولته الأولى. ففي هذا التجمع، يبدو دور المرأة أكثر ثانوية، كما في كتاب جولي (Julie) مثلاً، حيث نواجه صديقين وامرأة، وهي شخص مميز بشكل خاص، إذ تموت وتتركهما وحيدين وهما (أب وابنه). فنعثر مجدداً على الموضوع المتعلق بروسو، بصديقه كلود آنيه (Claude Aneh) والسيدة دو وارنس (Mme de Warens)، وموضوع روسو ودو غريم (de Grimm) والسيدة ديبيناي (Mme d'Épinay)؛ وأخيراً موضوع روسو وتريز لوفاسور (Thérèse Le Vasseur) وأحباء هذه الأخيرة، لأنه من المستبعد أن يكون أولاد تريز منه. ويتعلق الأمر دائماً بحب ثلاثي كان يميز فعلاً حياة روسو وأحلام يقظته الشهوانية. ولكن كيف كان روسو يتصرف عندما كان يجد نفسه وحيداً مع امرأة؟ لنقرأ عن هذا الأمر فقرات من كتابه اعترافات ذات علاقة بالغانية جولييت دو فنيز (Juliette de Venise).

إن «بادوانا» (Padoana) التي كنّا نذهب إلى منزلها، ذات صورة جميلة إلى حد ما، بل حتى جميلة، ولكن ليس الجمال الذي يعجبني. وقد تركتني دومينيك عندها، فأحضرت «شراباً» وحملتها على الغناء، وبعد نصف ساعة أردت الذهاب، تاركاً على الطاولة دوكاً[1] واحداً، ولكن كان لديها هم خاص بأن لا تريد خسارتي، وكان لدي الحماقة الخاصة بإزالة همها. وعدت إلى القصر مقتنعاً جداً بأنني كنت مخموراً وأن الشيء الأول الذي سأقوم به هو الإرسال في طلب الطبيب لأطلب منه بعض الأشربة الطبية. ولا شيء يمكن أن يعادل الانزعاج الفكري الذي عانيته طوال ثلاثة أسابيع، دون أن يبرره أي ضيق حقيقي أو أية إشارة ظاهرة. إذ لم أكن أستطيع التصور أن من الممكن الخروج

---

(١) دوكا: نقد ذهبي كان يتداول في البندقية قديماً.

بلا عقاب من بين ذراعيّ البادوانا. وقد وجد الطبيب نفسه ما يمكن تخيله من الصعوبة لطمأنتي. ولم يستطع النجاح إلا بإقناعي أنني كنت منسجماً بشكل خاص مع الرغبة في عدم التعرض لعدوى ما بسهولة. ومع أنني كنت ربما أقل الرجال تعرضاً لمثل هذه المحنة، إذ إنني لم أصب قط بشيء، فإن هذا الأمر كان بمثابة برهان على أن الطبيب محقّ. ومع ذلك لم يجعلني هذا الاعتقاد جسوراً أبداً أو مغامراً، وإذا كنت قد اكتسبت هذه الميزة في الواقع من الطبيعة، فإنني أستطيع القول أنني لم أفرط بها.

إن مغامرتي الثانية، مع أنها فتاة كذلك، فقد كانت من نوع مختلف جداً، من جهة أصولها ونتائجها. لقد قلت إن القبطان أوليفيه أتاح لي تناول العشاء على متن سفينته، وإنني قد اصطحبت سفير إسبانيا. وكن أتوقع استقبالنا بتحية المدافع. لكن طاقم السفينة استقبلنا بصفوف منتظمة ولم يكن هناك إطلاق ذخيرة الأمر الذي أذلني كثيراً بسبب كاريو (Carrio) الذي رأيته قد استاء قليلاً. ففي الحقيقة كانت السفن التجارية تستقبل بتحية المدفعية أشخاصاً أقل منّا قيمة بكل تأكيد، ومن جهة أخرى، كنت أعتقد أنني أستحق بعض التمييز من القبطان. ولم أستطع إخفاء ذلك لأنني لم أكن أستطيع أبداً ستر عواطفي، وعلى الرغم من أن العشاء كان جيداً، وأن أوليفيه أكرمنا حسب الأصول، فقد بدأته بمزاج سيىء، فأكلت قليلاً وتكلمت بشكل أقل أيضاً.

عند النخب الأول، على الأقل، انتظرت رشقة؛ ولكن لم يحدث أي شيء من ذلك، وقد ضحك كاريو الذي قرأ أفكاري من رؤيتي متذمراً مثل طفل. وبعد مرور ثلث العشاء، رأيت زورقاً يقترب. فقال لي القبطان: انتبه لنفسك. فها هو العدو! فسألته ماذا يقصد بقوله، فأجاب وهو يمزح، ورسا القارب، ورأيت فتاة شابة تخرج منه، فتاة فاتنة، متأنقة ورشيقة جداً، دخلت القاعة بثلاث قفزات ورأيتها تستقر إلى جانبي قبل أن أتبين أنه قد وضع لها ملعقة وشوكة وسكين. لقد كانت فاتنة بقدر ما هي حيوية، فتاة سمراء في العشرين من العمر على الأكثر. ولم تكن تتكلم إلا الإيطالية، وكانت لهجتها فقط كافية

لإدارة رأسي. وفيما كانت تأكل، وتتحدث نظرت إلي، وحدقت بي لحظة ثم صرخت «يا للعذراء الطيبة! آه! يا عزيزي بريمون (Brémond) لم أرك منذ زمن بعيد» ثم ارتمت بين ذراعي، وضمّتني، وشدت عليّ فكادت تخنقني. وأطلقت عيناها الكبيرتان السوداوان كالشرقيات في قلبي سهاماً من نار، ومع أن المفاجأة شتتني أولاً، لكن اللذة اجتاحتني بسرعة رغم وجود المشاهدين إلى حد أنه توجّب سريعاً على هذه الجميلة أن تكبحني هي نفسها، لأنني كنت نشوان أو على الأصح غاضباً. وعندما رأتني في الحالة التي تريدها، أضافت شيئاً من الاعتدال في مداعباتها، ولكن ليس في حيويتها، وعندما طاب لها أن تفسر لنا السبب الحقيقي أو المزيف لكل هذا النزق، أخبرتنا أنني أشبه إلى حد الالتباس السيد دو بريمون مدير الجمارك في توسكانا، وأنها كانت مولعة بهذا الرجل وأنها لاتزال مغرمة به، وأنها تركته لأنها كانت حمقاء غبية، وأنها ستجعلني مكانه، وأنها ترغب في حبي لأن ذلك يلائمها، وأنه ينبغي علي، للسبب نفسه، أن أحبها طالما يلائمها ذلك، وأنه عندما ستتركني فجأة، سأصبر على ذلك كما فعل عزيزها بريمون، وما يقال سيُفعل. وقد امتلكتني كأنني رجل لها، وكلفتني الانتباه لقفّازيها، ولمروحتها، ولتسريحتها، وكانت تأمرني بالذهاب إلى هذا المكان أو ذاك، وأن أقوم بهذا العمل أو ذاك، وكنت أطيعها.

عند المغادرة، أخذت موعداً للغد، ووافيتها فيه فوجدتها في ثوب بيتي لطيف جداً، لا يُعرف إلا في البلدان الجنوبية ولن أتلهى في وصفه، مع أني أذكره جيداً. وسأقول فقط أن حواشيه واستدارة الرقبة مطرزة بخيط حريري مزين بشرّابات ذات لون وردي. وقد علمت على الأثر أن تلك هي الموضة في مدينة البندقية، أما أثره فقد كان خلّاباً فاتناً إلى حد أنني دهشت لأن هذه الموضة لم تنتشر أبداً في فرنسا. ولم أكن أمتلك أبداً فكرة عن السعادة التي تنتظرني. لقد تحدثت عن السيدة لارناج (M^me de Larnage)، في الهذيانات التي عاودتني فيها ذكراها أحياناً، ولكن كم كانت عجوزاً وبشعة وباردة بالقرب من فتاتي Zulietta! ولا تحاولوا أن تتخيلوا مفاتن هذه الفتاة الساحرة ولطافتها،

إذ ستبقون بعيدين جداً عن الحقيقة؛ فعذارى الأديرة الشابات أقل نضارة، وجميلات البلاط أقل حيوية، وحوريات البحر أقل إثارة. ولم تقدم أبداً متعة لذيذة مثلها إلى قلب وحواس رجل فانٍ محظوظ. آه! على الأقل لو عرفت كيف أتذوقها كاملة ومترعة لحظة واحدة! لقد تذوقتها، ولكن دون سحر وفتنة؛ وأنهكت كل بهجتها، قتلتها كما قتلت اللذة. لا، لم تُعدني الطبيعة قط للتمتع. فقد وضعت في رأسي السيّىء سم هذه السعادة التي لا توصف، وضعت الشهوة لها في قلبي.

إذا كان في حياتي حالة تصوّر جيّد لطبيعتي، فهي هذه الحالة التي سأرويها. فالقوة التي أتذكر بها في هذه اللحظة موضوع كتابي ستجعلني أحتقر هنا اللياقة الزائفة التي ستمنعني من ملئه، ولتكن من تكون أنت الذي تريد معرفة رجل، تجرأ على قراءة الصفحتين أو الثلاث الصفحات التالية: وستتعرف في الصميم على جان ـ جاك روسو.

لقد دخلت إلى غرفة فاتنة، كما لو أنني في محراب الحب والجمال. وخلت فيه أنني أرى الملكة شخصياً، وما كنت لأعتقد أبداً أنه يمكن، دون احترام ولا تقدير، الشعور بشيء مماثل لما جعلتني أشعر به وأكابده. فما كدت أعرف، منذ المداعبات الأولى، ثمن هذه المفاتن وهذه الملاطفات، حتى أردت خوفاً من فقدان ثمرة ذلك، الإسراع إلى قطفها. وفجأة، بدلاً من الأحاسيس الملتهبة التي كانت تجتاحني، شعرت ببرد مميت يسري في عروقي، واصطكت ساقاي وأنا على وشك الشعور بالسوء، فجلست وبكيت كطفل.

من يستطيع أن يحزر سبب دموعي، وما كان يدور في رأسي في تلك اللحظة؟ لقد قلت لنفسي: هذا الشخص الذي أمتلكه هو تحفة الطبيعة والحب. الروح، الجسم، كل شيء كامل، وهي كذلك طيبة وكريمة بقدر ما هي محبوبة وحلوة، والكبار، الأمراء ينبغي أن يكونو عبيدها، والصولجانات ينبغي أن تكون عند قدميها، ومع ذلك، ها هي عابثة بائسة مسكينة، معروضة

للجميع. قبطان سفينة تجارية يتصرف بها، لقد أتت لترتمي عليّ، عليّ أنا النكرة الذي لا يساوي شيئاً، علي أنا الذي قيمته، التي لا تستطيع معرفتها، ينبغي أن تكون تافهة في عينيها. هناك شيء غير معقول ولا يمكن تصوره. فإما أن قلبي يخدعني، ويفتن حواسي ويجعلني مخدوعاً بفاتنة عظيمة، وإما أن بعض العيوب السرية التي أجهلها تدمر تأثير مفاتنها وتجعلها كريهة في أعين أولئك الذين ينبغي عليهم أن يتنافسوا عليها، وشرعت أبحث عن هذه العيوب بتركيز فكري فريد ولم يخطر ببالي أنها تسهم فيها.

إن نضارة جلدها، وتألق رونقها، وبياض أسنانها، وعذوبة نَفَسِها، ومظهر الطهارة المنتشرة على مظهرها كله كل هذه الأمور أبعدت عني تماماً هذه الفكرة التي ما تزال تراودني عن حالتي منذ البادوانا. وترددت وخفت أن لا أكون سليماً بشكل كافٍ بالنسبة إليها، وكنت مقتنعاً جداً بأن ثقتي بهذا الشأن لا تخدعني أبداً.

إن هذه الأفكار، الموظفة جيداً، أثارتني إلى حد البكاء. أما زوليتّا، التي كان موقفي بكل تأكيد مشهداً جديداً كلياً عليها، فقد وقفت مذهولة، ولكنها إذ دارت في غرفتها، ومرت أمام مرآتها، فهمت، وأكدت لها عيناي، أن النفور لا علاقة له بهذا الإخفاق. ولن يكون صعباً عليها شفائي منه، ومحو هذا الشعور الصغير بالخجل، ولكن في اللحظة التي كنت فيها مستعداً للتهالك على عنق بدا لأول مرة قادراً على تحمُّل فم رجل ويده، تبينت أن لديها نهداً ضامراً. فاندهشت، وتمعنت، فاعتقدت أن هذا النهد ليس ملائماً مثل الآخر. وأخذت أفكر كيف يمكن أن يكون هناك نهد ضامر، وإذ اقتنعت أن هذا الأمر يعود إلى عيب طبيعي جسمي، ومن فرط ما قلبت هذه الفكرة وأعدت تقليبها، ورأيت بوضوح كالشمس أنني من هذه المرأة الأكثر سحراً التي استطعت تصور صورتها لا آخذ بين ذراعي إلا نوعاً من المسوخ، فضالة الطبيعة والرجال والحب. وانسقت في الحماقة إلى حد سؤالها عن هذا النهد الضامر، فنظرت إلى هذا الأمر أولاً بمزاج وهزل، وبطبيعتها اللعوب قالت وقامت بأشياء جعلتني أموت من الحب، ولكني إذ أحتفظ بشيء من القلق الذي لم أستطع إخفاءه، رأيتها

في نهاية المطاف تحمرّ، فتصلح ثيابها، وتنتصب قائمة، ودون أن تقول كلمة واحدة، تجلس إلى نافذتها. فأردت الجلوس إلى جانبها، فانسحبت، وجلست على أريكة، ثم نهضت بعد لحظة، وأخذت تتمشى في الغرفة وهي تروّح بمروحتها، ثم قالت لي بلهجة باردة ومحتقِرة: زانتو سيعود وهو يدرس الرياضيات.

وقبل أن أودعها، طلبت منها موعداً آخر في الغد، لكنها أجلته إلى ما بعد الغد، مضيفة بتنهدة ساخرة أنني أحتاج إلى بعض الراحة. فأمضيت هذا الوقت منزعجاً، القلب ممتلىء بمحاسنها ونِعَمها، شاعراً بهوسي وغرابتي، لائماً نفسي على ذلك.متأسفاً على اللحظات التي أسأت استخدامها، وأنه لم يكن غيري مسؤولاً عن رفض ما هو أكثر لطافة وعذوبة في حياتي، منتظراً بنفاذ صبر هائل الوقت الذي أعوض فيه الخسارة، ومع أنني كنت ما أزال قلقاً، ورغم ما أحس به من جراء التوفيق بين كمال هذه الفتاة الرائعة وشناعة حالتها، ركضت، طرت إليها في الموعد المحدد. ولا أدري ما إذا كان طبعها الحاد أكثر غبطة بهذه الزيارة، وكرامتها غير مجروحة على الأقل، ووجدت مسبقاً متعة لذيذة في أن أظهر لها بكل طريقة كم أنني قادر على إصلاح أخطائي. لكنها احتفظت لي بهذه المحنة. فصاحب الزورق الذي أرسلته إليها عند رسو الزورق، أخبرني أنها رحلت الليلة الماضية إلى فلورنسا. وإذا كنت لم أشعر بكل حبي بامتلاكها، فقد شعرت بذلك بقسوة كبيرة عند خسارتها. ولم يتركني قط أسفي الجنوني. فهي، هذه المحبوبة، هذه الفاتنة في نظري، كيف أستطيع أن أعزّي نفسي بخسارتها، ولكن عمّا لا أستطيع تعزية نفسي، أعترف به، إنه كونها لم تحمل عني إلا ذكرى محتقرة.

إن تحققنا من أن روسو كان عاجزاً مع امرأة، ليس ناتجاً من لغته التي يستعملها «الشيء الأنثوي»، أي العضو الجنسي، الذي يجذبه ويسحره، بل من «النهد الضامر» أي النهد الذي يشبه عضو الرجل. وهكذا كان يخسر دائماً، لصالح منافس ما، كل النساء اللواتي يهتم بهن. إنه يتصرف كرجل مخصي معنوياً. أكان يريد أن يعيد إلى أبيه ما اكتسبه بلا تعمُّد؟ أكانت ذاته الخارقة

توقفه في نموه الرجولي وهل توصلت إلى تحطيمه نهائياً؟ ينبغي التساؤل عن ذلك.

إن هذا الخصاء، المفروض على روسو كعقاب، يفسر حاجته في عرض ردفيه للناس. فهذه النزعة الاستعرائية تمثل، لديه، تسوية بين الرغبة الجنسية الطبيعية والحاجة إلى العقاب التي ولّدتها الذات الخارقة التي تتهم الرغبة الطبيعية بأنها فاحشة دنسة. ويظهر خصاؤه على المستوى النفسي كما على المستوى الأخلاقي. نجد في ما يلي كيف يصف الخصاء المعنوي في اعترافاته :

«إن شيئين متنافرين تقريباً قد اتّحدا في ذاتي دون أن أستطيع تصور طريقه ذلك: مزاج حاد جداً، أهواء متواثبة متهورة، وأفكار بطيئة الولادة مترددة، لا تظهر أبداً إلا بعد فوات الأوان. ويمكن القول إن قلبي وذهني لا ينتميان إلى الشخص نفسه. فالشعور، الأسرع من البرق، ينبثق مالئاً روحي، ولكن بدلاً من إضاءتها، يحرقني ويبهرني، فأشعر بكل شيء ولا أرى شيئاً. إنني نزق ولكنني أحمق، وينبغي أن أكون متمالكاً نفسي لأفكر، والمدهش أنني في حين أمتلك الحساسية الأكيدة للجماع، وحتى للنعومة واللطف، بشرط أن أنْتَظر، فأقوم بارتجال قصائد ممتازة على مهل، ولكنني لا أقوم بشيء أبداً على الفور ولا أقول شيئاً ذا قيمة. وأنا قادر على القيام بمكالمة رائعة بوساطة البريد، كما يقال إن الاسبانيين يلعبون الشطرنج. وعندما قرأت مقطعاً عن الدوق دو سافوى الذي التفت إلى الوراء بسرعة ليصرخ «سأقطع عنقك يا تاجر باريس!» قلت: «ها أنذا».

إن هذا البطء في التفكير مضافاً إلى هذه الحيوية في الشعور، لا أمتلكهما فقط عند التحادث إلى الآخرين، بل أعانيهما حتى عندما أكون وحيداً وعندما أعمل. وتنتظم أفكاري في رأسي بصعوبة لا يمكن تصورها، فهي تسري فيه خفية، وتضطرب فيه إلى حد إثارتي وإهاجتي، وتعريضي لخفقانات واختلاجات، وفي وسط كل هذا الانفعال، لا أرى شيئاً بوضوح، ولا أحسن

كتابة كلمة واحدة: فينبغي أن أنتظر. وتهدأ رويداً رويداً هذه الحركة الكبيرة، ويتوضح التشوش، ويأتي كل شيء ليحلّ محله، ولكن ببطء، وبعد اضطراب طويل ومبهم.

وتأتي من هنا الصعوبة القصوى التي أجدها في الكتابة، فمخطوطاتي مشطّبة، ملطخة مشوشة، صعبة القراءة والفهم، تشهد على المشقة التي كلفتني إياها. وليس هناك واحدة منها لا يتوجب عليّ نسخها أربع أو خمس مرات قبل دفعها إلى المطبعة. ولم أستطع أبداً المباشرة بالكتابة قبالة الطاولة وأوراقي. ففي النزهة، ووسط الصخور والغابات، في الليل وأنا في سريري، وأثناء أرقي أكتب في عقلي: ويمكن التخيل بأي بطء، وخاصة بالنسبة الى رجل مفتقر تماماً إلى ذاكرة شفهية، الى رجل لم يستطع في حياته حفظ ستة أبيات غيباً. وفي بعض الأوقات، كنت أدير الفكرة في رأسي وأديرها خمس أو ست ليالٍ قبل أن تصبح في حالة صالحة لوضعها على الورق. ومن هنا أيضاً يتفق أنني أنجح في الأعمال التي تتطلب إعمالاً للفكر وتعباً بشكل أفضل من تلك التي تتطلب بعض الخفة كالرسائل مثلاً، وهو الفن الذي لم أستطع أبداً اتقانه، وكان القيام به يعذبني. ولم أكتب قط رسائل عن أصغر المواضيع التي تكلفني ساعات من التعب، وإذا ما أردت كتابة ما أشعر به بالتتالي، لا أعرف كيف أبدأ ولا كيف أنتهي؛ وتكون مليئة بحشو طويل وغامض، لا تكاد تُفْهم عندما تقرأ.

ولا تتطلب مني الأفكار فقط أن أسلّمها، بل تتطلب مني أيضاً أن أتسلمها. لقد درست الناس، وأعتقد أنني باحث جيد إلى حد ما، ومع ذلك لا أحسن رؤية شيء مما أراه، ولا أرى جيداً إلا ما أتذكره، ولا أكون نبيهاً إلا في ذكرياتي. ومن كل ما يقال، من كل ما يفعل، من كل ما يجري في حضوري، لا أشعر بشيء، لا أفهم شيئاً ولا أكتشف شيئاً. فالإشارة الخارجية هي كل ما يؤثر فيَّ. ولكن كل هذا يعاودني على الأثر، فأتذكر المكان، والزمان، والنغمة، والنظرة، والنهج، والمناسبة، فلا شيء يفوتني. إذاً في ما يفعل ويقال، أجد ما فُكِّر به ونادراً ما أخطىء.

ولست سيد فكري عندما أكون وحيداً مع نفسي، إلا قليلاً، ليرتأى ما يجب أن أكون في الحديث، عندما ينبغي للتكلم في الوقت المناسب التفكير وفوراً بألف شيء وشيء في الآن نفسه. ولا شك في أن تصور العديد من المجاملات التي أثق من نسيان بعضها على الأقل وحده يكفي لإحساسي بالخجل. إذ لا أفهم حتى كيف يجرؤون على الكلام والتحدث في مجلس: لأن عند كل كلمة ينبغي استعراض جميع الأشخاص الحاضرين، وينبغي معرفة طباعهم جميعاً، ومعرفة تاريخهم لكي يكون المرء واثقاً من عدم قول شيء يمكن أن يسيء إلى أحدهم. وبناء عليه، فإن أولئك الذين يعيشون بين الناس يتمتعون بحسنة كبيرة: فبمعرفتهم أن من الأفضل السكوت يكونون أكثر ثقة بما يقولونه: ومع ذلك تفلت منهم أحياناً بعض الحماقات. ولنحكم على ذاك الذي ينذهل هنا، فإن من المستحيل عليه تقريباً التحدث دقيقة واحدة دون اقتراف سوء ما. وفي الحديث الثنائي سيئة أجدها الأسوأ، إنها ضرورة التكلم دائماً: فعندما يُتحدَّث معك ينبغي أن تجيب، وإذا لم يُبدِ الآخر أية كلمة ينبغي إحياء الحديث. وهذا الإكراه الذي لا يطاق، وحده، يقززني من المجتمع. ولا أجد ضيقاً قط أكثر إزعاجاً من واجب التكلم فوراً ودائماً، ولا أعرف ما إذا كان هذا يعود إلى اشمئزازي البالغ من كل قهر وإخضاع، ولكن يكفي أنه ينبغي حتماً أن أتكلم، «لكي أتفوه بحماقة بكل تأكيد». كبح الفكر، كبح في العمل، كبح الكلام. غياب كل عفوية وكل قدرة على المبادرة، هكذا يظهر لدى روسو هذا الخصاء المعنوي.

أما الخصاء المادي، فنعرض في ما يلي كيف أحس به روسو بعد موت كلود آنيه الذي تركه دون منافس بالقرب من السيدة دو وارنس، وها هي القصة.

إن «والدة» جان - جاك روسو قد منحت صداقتها وعطفها شاباً شعر روسو تجاهه دائماً باحترام كبير، مع أنه على ما يظهر، لم يقم للسيدة دو وارنس إلا بأعمال الخادم الفرّاش. وهذا الرجل الذي كان يتحلى، بحسب روسو، بنبل نادر، أصبح بالنسبة إليها موضع ثقة وكاتم أسرار وصديق. وفي الواقع كان يهتم

بإدارة أعمالها، وثروتها ويقدم إليها أجلّ الخدمات، وقد قرر أن يكمل دراساته يشجعه على ذلك أستاذ عالم، فشرع في تعلُّم علم النبات بشغف. وعلى إثر رحلة قصيرة، أصيب ببرد ومات بعد بضعة أيام، تاركاً السيدة دو وارنس وحدها مع جان ـ جاك روسو. ولم يشعر جان ـ جاك بأنه مكبوح جداً في علاقاته مع السيدة دو وارنس ما دام كلود آنيه حياً وكل شيء يتم بين الثلاثة وفق أحلامه. وقد أعطانا الوصف التالي لوضعهم.

«وهكذا نشأت بيننا نحن الثلاثة ألفة ربما لا مثيل لها على الأرض. فكل أمنياتنا وكل عناياتنا واهتماماتنا، وقلوبنا كانت مشتركة. ولم يكن يحدث شيء منها خارج هذا المجلس. فعادة العيش معاً والعيش هكذا فقط أصبحت من الكبر بحيث إننا، إذا نقص أحدنا في وجبة من وجباتنا أو زاد منها رابع، تضايقنا وفسد حالنا، وعلى الرغم من صِلاتنا الخاصة، فإن الاجتماعات الثنائية كانت أقل عذوبة من الاجتماع الكلي. وما كان يقيناً من الإزعاج هو ثقة قصوى متبادلة، وما كان يقينا من الضجر هو كوننا كلنا مشغولين جداً».

ولكن بعد اختفاء كلود آنيه تغير كل شيء. فشرع روسو في القيام برحلات عدة، وبدّد ثروة السيدة دو وارنس الصغيرة، متذرعاً بحجة أن المال سيذهب بدون هذه الطريقة إلى نصّابين ومحتالين. وفي الوقت نفسه، نتبين ظهور علاقة مرضية غريبة لديه. فهو لم يبدد فقط مال «والدته» في رحلاته غير المجدية، بل سرق منه وخبّأ ما سرقه منها، مظهراً هكذا بوضوح حاجته إلى أن يُعتبر لصاً، مجرماً. ثم إذ استاء من نفسه، أنّبها بشدة لأنها «فكرت في الاستفادة من أطمار صديقه» وبدأ بالتعرض لأغرب الأمراض التي وصفها على هذا الشكل:

«إن تلف صحتي يؤثر في مزاجي ويخفف من حدة نزواتي. وأنا إذ أشعر بالضعف أصبح أكثر اطمئناناً وأفقد شيئاً من ضراوة الرحلات. وإذ أكون أكثر استقراراً وإقامة لا يتغلب عليّ العدو، بل الكآبة؛ وتعقب الأبخرة الأهواء، ويصبح ذبولي حزناً، فأبكي وأتنهد بلا سبب! وأشعر أن الحياة تفر مني دون أن أكون قد تذوقتها، فأئنّ وأتحسر على الحالة التي تركت فيها أمي المسكينة،

على حالتها إذ رأيتها على وشك السقوط؛ وأستطيع القول إن هجرها وتركها تشتكي كان أسفي الوحيد. وفي نهاية المطاف، سقطتُ مريضاً تماماً، فاعتنت بي كما لم تعتني أم بولدها أبداً، وهذا الأمر يحسن إليها هي نفسها، بقيامها بتحويل مشاريعها وبإبعاد أصحاب المشاريع. وكم سيكون ناعماً هذا الموت إذا جاء الآن! وإذا تذوقت قليلاً نِعَم الحياة فقد شعرت قليلاً بتعاساتها. وتستطيع روحي الهادئة الذهاب دون الشعور القاسي بظلم البشر الذي يسمم الحياة والموت. وسيكون لديَّ العزاء بأنني أحيا في النصف الأفضل من ذاتي، وسيكون هذا بالكاد موتاً. ودون مشاعر القلق التي تتملكني على مصيري، سأكون ميتاً كما لو أنني استطعت النوم، وسيكون لمشاعر القلق نفسها هدف ودودٌ وحنونٌ يخفف من مرارتها. وكنت أقول لها: «ها أنت مؤتمنة على وجودي كله، فتصرّفي بشكل يجعله سعيداً». ومرتين أو ثلاث مرات، عندما كنت الأكثر سوءاً، حدث أنني نهضت في الليل وحبوت إلى غرفتها لأعطيها نصائح بخصوص سلوكها، وتجرأت على قول الكثير من الحق والمعاني، لكن الاهتمام الذي أوليته لمصيرها تميز أكثر من أي شيء آخر. كأن الدموع غذائي ودوائي. وكنت أتقوى بتلك الدموع التي أسكبها بالقرب منها، معها وأنا جالس على سريرها وممسك يديها بيدَيّ. وكانت الساعات تمضي في هذه المحادثات الليلية دون أن نشعر وأستعيد فيها أفضل حالاتي: وإذ أشعر بالسعادة والسكينة من جراء الوعود التي قطعتها لي، من جراء الآمال التي منحتني إياها، كنت أنام من جراء ذلك والسلام في قلبي مستسلماً لهذه العناية الإلهية، وبعد العديد من أسباب كره الحياة، وبعد العديد من الاضطرابات التي أثرت في صحتي وأحالتها إلى عبء علي، سيكون الموت الذي سينهي حياتي قليل القسوة كما يبدو لي الآن إن شاء الله.

إن هواء الريف لم يُعد اليّ صحتي الأولى. فقد كنت واهناً، وصرت أكثر وهناً فلم أستسغ الحليب، وتوجّب علي تركه. وكانت طريقة المعالجة بالماء شائعة، فشرعت في ذلك، بقليل من الرصانة كي تشفني ليس من آلامي وأمراضي، بل من الحياة، فكل صباح عندما أستيقظ أذهب إلى النبع حاملا

قدحاً كبيراً، فأشرب من مائه بشكل متواصل مقدار زجاجتين أثناء نزهتي، وتخليت كلية عن الخمر في وجباتي. وكان الماء الذي أشربه ثقيلاً إلى حد ما وصعب الهضم، مثله مثل معظم مياه الجبال. باختصار، عملت بكد بحيث استطعت في أقل من شهرين اتلاف معدتي كلياً، مع أنها كانت جيدة وسليمة في ذلك الحين، وعندما لم تعد تهضم الطعام، علمت أنه ينبغي عدم الأمل في الشفاء. وفي هذا الوقت نفسه، تعرضت لحادث فريد في ذاته وفي نتائجه التي لن تنتهي إلا بانتهائي.

فقد كنت ذات صباح مريضاً كعادتي، وحاولت وضع طاولة صغيرة مقلوبة على قوائمها، فشعرت في كل أنحاء جسمي بهيجان مفاجىء ولا يمكن تصوره. وليس هناك أفضل من تشبيهه بنوع من العواطف التي تهبّ في دمي وتكتسح فوراً كل أطرافي. وبدأت شراييني بالخفقان بقوة كبيرة بحيث لم أشعر بخفقانها فقط بل سمعته، وخاصة خفقان الشرايين السباتية. وانضم إلى ذلك طنين هائل في أذنيّ، وكان هذا الطنين أو الضجيج مثلثاً بل رباعياً: طنين غامض ومخنوق وهدير أكثر وضوحاً كهدير الماء الجاري، صغير حاد جداً، والخفقان الذي ذكرته للتو والذي أستطيع بسهولة عدَّ ضرباته دون جس نبضي ولا لمس جسمي بيدي. وكان هذا الضجيج الداخلي كبيراً إلى حد أنه انتزع مني رهافة السمع التي كنت أمتلكها سابقاً، وجعلني ليس أصمَّ كلية بل ذو أذنين ثقيلتي السمع منذ ذلك الوقت.

ويمكن تصور دهشتي وذعري، فقد اعتقدت أنني متُّ، فجلست في السرير، ونودي على الطبيب الذي رويت له حالتي وأنا أئن وأتأوه وأؤكد أن لا علاج لها. وأعتقد أنه فكر في الأمر نفسه أيضاً، ولكنه يقوم بواجبه. فقد روى لي استنتاجات مطولة وتحليلات لم أفهم منها شيئاً، ثم بدأ، انطلاقاً من نظريته العظيمة، العلاج الاختباري الذي رغب في تجربته. وكان هذا العلاج شاقاً جداً، ومقززاً وقليل المفعول إلى درجة أنني أقلعت عنه سريعاً، وبعد بضعة أسابيع إذ رأيت نفسي كما كنت، لا أفضل ولا أسوأ، غادرت السرير واستعدت

حياتي الطبيعية مع خفقان شراييني والطنين الذي لم يتركني منذ ذلك الوقت، أي منذ ثلاثين سنة.

لقد كنت حتى ذلك الوقت محباً كبيراً للنوم. وقد قام الحرمان الكلّي من النوم الذي ينضم إلى كل هذه المظاهر المرضية والذي رافقها باستمرار، بإقناعي بأنه تبقى قليلاً من الوقت للعيش. وقد طمأنني هذا الاقتناع لفترة على عناية الشفاء. ولكني إذ لا أستطيع إطالة حياتي، عزمت على الحصول من القليل الذي تبقى لي على كل الفائدة الممكنة، وهذا ممكن بوساطة تفضيل خاص للطبيعة التي أنقذتني في ظرف مشؤوم جداً من الآلام التي بدا أنها ستجذبني. لقد كنت منزعجاً من هذا الضجيج، ولكنني لا أتألم منه، إذ لم يكن مترافقاً مع أي ضيق عادي غير الأرق طوال الليل، ودائماً يصحبه نَفَس قصير لا يصل إلى حد الربو، ولا يتم الشعور به إلا عندما أريد الركض أو التحرك بقوة.

إن هذا الحادث، الذي كان ينبغي أن يقتل جسدي، لم يفتك إلا بأهوائي، وأحمد السماء على ذلك كل يوم، على الأثر السعيد الذي أحدثه في روحي. وأستطيع أن أقول بكل ثقة إنني لم أبدأ بالعيش إلا عندما اعتبرت نفسي رجلاً ميتاً. وأنا إذ منحت الأشياء التي سأتركها قيمتها الحقيقية، بدأت بالاهتمام بأمور أكثر نبلاً، كتوقُّع تلك الأشياء التي ينبغي علي أداؤها قريباً، والتي أهملتها كثيراً حتى ذلك الحين. وقد حرّفْت الدين غالباً على طريقتي، لكني لم أكن قط دون شعور ديني بتاتاً. ويكلفني قليلاً الرجوع إلى هذا الموضوع، المحزن جداً للكثير من الناس، لكنه لطيف جداً بالنسبة إلى أولئك الذي يصنعون منه مادة تعزية وأمل. وقد كانت أمي، بهذه المناسبة، أكثر فائدة بكثير من كل علماء اللاهوت بالنسبة إلي».

لقد رأينا كيف توصل روسو، بوساطة هذا الخصاء، إلى قتل أهوائه لكي يستفيد من إضمار منافسه كلود آنية، أو والده إذا صح القول. وقد جعل من نفسه مزعجاً لا يطاق، وأرغم، بسلوكه هذا، السيدة دو وارنس على طرده. ثم

نجح في تعريض نفسه للإصابة حتى في شرايينه وقلبه وفي انتزاع نفسه من الواقع بوساطة صمم وطنين متواصل في أذنيه، اختطف منه إلى حد كبير الفرح الذي كان يمنحه النوم والأحلام.

لقد انتقل إلى مونبيلييه[١] (Montpellier) حيث عولج من مرض خيالي وهمي؛ وتفاقمت حالته واشتكى من ورم في القلب «ينبغي اجتثاثه». وهكذا عبّر رمزياً عن رغبته في أن يرى نفسه مخصياً ومتخلصاً من رجولته.

وكانت نتيجة هذه السيرورة النفسانية نمواً فريداً لقدراته الاستئثارية[٢]. وقد أتقن اجتذاب جمهوره بوساطة أدبه، وقليلون هم المؤلفون الذين كان لهم، في حياتهم، تأثير في معاصريهم. لكن هذه القدرة على الاجتذاب لم تتوقف هنا، فقد عانى إمساكاً متواصلاً واحتقان البول. وكان يحتاج إلى طبيب كي يفتح المجرى. ويمكن التساؤل عما إذا كان هذا الاحتقان لا ينجم عن انكماش مجرى البول، كما يُلاحظ غالباً على أثر تعقيبة[٣]عولجت بشكل سيّىء. غير أن هذه الفرضية تبدو لنا مستبعدة، فقد أنكر روسو دائماً أن يكون قد أصيب بأمراض زهرية ولسبب وجيه، إذ نعرف إلى أي حد كان عاجزاً، وإلى أية درجة كانت نزعته الشاذة جنسياً، التي جهلها على الأرجح، في شبابه على الأقل، ترغمه على القيام بمعادلات لاحقاً. إذ أليست عملية ثقب مجراه محاولة كي يقوم حتى النهاية بالدور الأنثوي تجاه رجل ما؟

على كل حال، يبدو مؤكداً أن شذوذه الجنسي قد ظهر في نهاية المطاف بوساطة أفكار اضطهاد نموذجية جداً. فالرجال هم الذين يعذّبونه وليس النساء، وهم الذين يلازمون الوحدة التي قادته إليها سلبيته ونقص قدرته على القتال

---

(١) مونبيلييه مدينة فرنسية مشهورة بجامعتها.

(٢) الاستئثارية نزعة عامة للاستئثار بالأشياء وبعطف من يحيط بنا.

(٣) مرض زهري يترافق مع سيلان أبيض.

والنضال. فمن الواضح أن جسمه قد ثار، تحت ضغط معاناة ما، في وجه تعذيب جائر في الحقيقة فُرض عليه وكأنه بالفعل سبب موت أمه، في حين أن والده في الحقيقة هو الذي سبّب، بعلاقاته مع امرأته، السيرورة التي أفضت إلى موتها وتعاسة ولده. ومع ذلك، ورغم ثورته، ورغم أفكاره الذُهانية الاضطهادية، فإن حالة روسو ليست حالة مريض ذُهاني بشكل نموذجي. فقد جعل منه الكثير من العناصر مخلصاً فادياً. إنه مخلص فادٍ كذلك عندما يأخذ على عاتقه الخطأ الذي يمكن لوم والده عليه، والده الذي كانت حياته في القسطنطينية طوال سنتين بعيداً عن زوجته ولا تزال لغزاً بالنسبة إلينا. وهو مخلّص فادٍ كذلك أيضاً عندما سعى إلى تحسين مصير البشرية، عبر كتابه (أميل) الذي أراد الإفادة فيه من تجاربه المؤلمة. وأخيراً هو مخلص فادٍ خاصة عندما يتحمل مسؤولية معاناته في **اعترافاته** ليتيح لعصره مواجهة البؤس البشري ورؤيته عن قرب، موضوعياً ودون أفكار أخلاقية مسبقة. ولكن لا يمكن القول إن روسو يقوم بدوره عن طيب خاطر، ولا أنه قد رضي بقدره. ويبدو أنه قد استفظعه كثيراً، وأن مثال الافتداء ليس مثال تطلعاته الفطرية. وهكذا وُلِد بلا شك النزاع الذي قسمه وشقه والذي توجَّب عليه أن يرى فيه اضمحلال تفكيره.

بفهمنا أعراض الفشل هذه نتوصل إلى إدراك قيمة نتاج روسو ودلالته فضلاً عن دوره الاجتماعي. وربما من الصعب مع توالي الأيام أن نتصور كيف أن رجلاً معقداً بهذا الشكل ومريضاً إلى هذا الحد ومستضعفاً أمكنه أن يصبح المرشد الروحي لجيل كامل قبل الثورة الفرنسية. ولكن ألم يكن روسو مبتلياً بذات خارقة أبوية كانت تشله؟ وألم تجد فرنسا نفسها مبتلاة، بتراث إقطاعي متخلف وبملك لم تكن تستطيع بعد التخلص منه؟ أولم يصبح كذلك الناطق بلسان عهد ما قبل الثورة بكامله الذي لم يشك بمشاعره ولكن أفكاره لم تمتلك بعد قوة الظهور على شكل أفعال؟ أولم يغر سحره النخبة الارستقراطية في زمنه؟ أولم يُعْد، بوساطة شعوره بالإثم الذي أحدثته أفكاره «النبيلة»، طبقة النبلاء للافتداء الأكبر، للثورة الفرنسية التي ستكون هذه الطبقة ضحيتها الرئيسة؟

****

روبسبيير[1] والفشل

إن الثورة الفرنسية مثال مفيد جداً يظهر لنا كيف تم خلال قرن تقريباً استبدال تقاليد نظام قائم منذ مئات السنين بتقاليد نظام جديد، ويبيّن بأية مراحل مر هذا التحول قبل أن يصبح نهائياً. فتقاليد النظام القديم، بالرغم من أنها معقدة جداً، هي تقاليد الإقطاعية. وقد تطورت في زمن كان البشر فيه، مثل الماشية والأراضي، يشكلون جزءاً من ممتلكات السيد الإقطاعي. وحتى الثورة الفرنسية، كانت القوانين تصدر عن الملك مرفقة بالصيغة التالية: «هذه هي إرادتنا المطلقة». وكانت هذه الطريقة في الرؤية طريقة عصر أبوي كان السيد الإقطاعي فيه، مثل رئيس العائلة يعتبر الأشخاص في إقطاعيته أطفالاً يمتلك حق ملكيتهم.

لقد كان لهذا العرف العديد من المساوىء بالنسبة إلى حرية معظم الأفراد الذين يعيشون في ظل السيد الإقطاعي الذي كان يتصرف بهم بحسب «إرادته المطلقة»، بطريقة تعسفية في أغلب الأحيان. ومن الصحيح أن هذه المساوىء

---

(١) مكسميليان دو روبسبيير (١٧٥٨ - ١٧٩٤ م) محامٍ فرنسي وعضو في الجمعية التأسيسية الوطنية، وهو أحد اليعاقبة وقد وجّه في الواقع وقاد الحكومة الفرنسية الثورية بدءاً من كانون الأول ١٧٩٣. وقام باستبعاد الهبرتيين ثم الدانتونيين. جرى انقلاب عليه في ٢٧ تموز ١٧٩٤، وأُعدم بالمقصلة. كان يريد نشر الفضيلة، وعاداته التي لا يمكن إعابتها حملت إليه لقب «النزيه».

لم يُشْتَكَ منها خلال أجيال وقرون. فهذا الوضع يتوافق تماماً مع الحالة الطفولية لذات جماعية كانت تبحث، من أجل الشعور بتوازنها، عن دعم وحماية الأسياد القادرين أو الإكليروس (رجال الدين) المطلقي السلطة. فقد كان النبلاء ورجال الدين، وخاصة كبار رجال الدين، إذاً، ممثلي هذا العرف الأبوي وأصحاب الامتيازات فيه. وأنّى مارسوا حقوقهم كانت تتجمع حولهم عائلات العبيد الأقنان والمخلصون الذين كانوا يفوضون أمرهم إليهم كما يفوض المؤمن أمره إلى الله. إلا أن الذات الجماعية نمت وكبرت ففقد الأسياد الإقطاعيون دلالتهم الاجتماعية القديمة ليصبحوا حاشية للملك. ومنذ ذلك الوقت بدأ نظام الإقطاع يلبي بشكل متناقص الحاجة العاطفية لجماعة انتهت إلى اعتباره مصيبة، بدءاً من اللحظة التي بدا فيها المتمتعون بالامتيازات طفيليين غير نافعين. وقد شُعِر قبل الثورة الفرنسية بوقت طويل بالحاجة إلى تقاليد جديدة في جميع الأوساط. وتناقص عدد المدافعين عن التقاليد القديمة، وأصبحوا بشكل خاص أقل إقناعاً بعدالة قضيتهم. ويوم استدعى الملك مجلس نواب الدولة، في نهاية كانون الثاني ١٧٨٩، كانت الجموع الشعبية الفرنسية ناضجة لثورتها الكبرى.

ولكن ما هي التقاليد الجديدة التي حلت محل التقاليد القديمة؟

لنترك الكلام لرجل أسهم إلى حد كبير في إنشائها وتحويلها إلى قوانين: إننا نعني روبسبيير. وهذا ما قاله في تقريره عن مبادىء علم الأخلاق السياسية التي ينبغي أن ترشد الجمعية التأسيسية وتوجهها.

«إننا نريد أن نُحِل في بلدنا الأخلاق محل الأنانية، والنزاهة محل التسلط، والمبادىء محل العادات والأعراف، والواجبات محل اللياقات، وسيادة العقل محل طغيان العادات الجارية، واحتقار الرذيلة محل احتقار التعاسة، والفخر محل الوقاحة، وعظمة الذات محل الزهو، وحب المجد محل حب المال، والأشخاص الطيبين محل الأصحاب الطيبين، والجدارة محل الدسيسة، والعبقري محل الظريف، والحقيقة محل الروعة، وسحر السعادة محل هموم الشهوة، وعظمة الإنسان محل ضآلة الكبار، وشعباً شريفاً قادراً سعيداً محل

شعب لطيف طائش وبائس - أي كل الفضائل الجمهورية وجميع معجزاتها محل كل عيوب الملكية وجميع نقائصها».

لقد حوّل إعلان حقوق الإنسان التقاليد الجديدة إلى قوانين، وقد اقترح روبسبيير في خطابه بتاريخ ٢٤ نيسان ١٧٩٣، أن تضاف إليه البنود التالية:

«البند الأول: إن الأفراد في جميع البلدان إخوة، ويتوجب على الشعوب المختلفة أن تتعاون بحسب قدراتها، مثل المواطنين في الدولة نفسها.

البند الثاني: من يضطهد أمة يعلن نفسه عدواً لجميع الأمم.

البند الثالث: إن أولئك الذين يشنون حرباً على شعب ما لإيقاف انتشار الحرية وإهدار حقوق الإنسان ينبغي أن يلاحقهم الجميع، ليس كأعداء عاديين، بل كقتلة وأشرار عصاة.

البند الرابع: «إن الملوك، والأرستقراطيين، والطغاة مهما كانوا، هم عبيد ثائرون في وجه سيد الأرض وهو الجنس البشري وفي وجه مشرِّع العالم وهو الطبيعة».

ويوم الاحتفال بعيد الرب، حضر شخصياً ممثلو التقاليد الجديدة، أعضاء الجمعية التأسيسية. وكانوا يرتدون لأول مرة زيهم الرسمي بألوانه الجديدة: الثوب الأزرق والسروال القصير، والوشاح والقبعة ذات الرياش المثلثة الألوان. وكان روبسبيير على رأسهم، وفي مدرّج واسع صعد إلى المنصة وقال أشياء كثيرة منها «إن الرب لم يخلق قط الملوك ليلتهموا الجنس البشري، إنه لم يخلق قط القساوسة لكي يربطونا، كحيوانات حقيرة، إلى عربة الملوك ولكي يضربوا للناس مثل الدناءة والسفالة، والكبرياء، والخداع والفجور والكذب، بل خلق الكون لكي يظهر قدرته، وخلق الإنسان لكي يتعاون ويتحابّ بالتبادل، وللوصول إلى السعادة من طريق الفضيلة...».

إننا نعرف جميعاً مصير هذه التصورات الجديدة، التي استعادها لاحقاً بابوف[1] (Babeuf) والاشتراكيون الذين استندوا إلى أفكار روبسبيير. وظهر نجاحها وحدّتها حتى في الإيديولوجيات الشيوعية التي ادعت في جماعات وطنية أخرى أنها تتابع الثورة الفرنسية. ونعرف بأية سيرورات حلت التقاليد الجديدة محل التقاليد القديمة وكيف أن ممثلي هذه التقاليد القديمة، خلال عهد الرعب[2]، قد جُرِّدوا من سلطتهم، وكيف أن الملك والملكة قد تعرّضا للسخرية وحكم عليهما بالموت وقُطِع رأساهما. ونعرف أيضاً الرجل الذي استدعته الجماعة لهذه العملية، الرجل الذي يعتبره بعضهم وحشاً، ويراه بعضهم مرشداً عفيفاً، الرجل الذي جسد السلطة الثورية وقادها إلى النصر. فلندرسه عن قرب لنتعرف إلى الشخصية التي اضطر الشعب الفرنسي أن يعهد إليها بمهمة إحراق ما كان يعبده.

لقد رسمه بسيون[3] (Pétion) الذي ارتبط معه في مدينة فرساي، في عهد الجمعية الوطنية والذي كان يعرفه جيداً، وصوّره على الشكل التالي:

«إنه يرى في كل مكان مؤامرات وخيانات وورطات، ولا يعذر أبداً مسّاً بالكرامة والكبرياء، ويهتاج لأدنى شك، معتقداً دائماً أن الآخرين يسعون لاضطهاده...».

وتكلم لونوتر (Lenôtre) في كتابه **روبسبيير ووالده الرب** على «ريبته العنيفة التي تقارب هذيان الاضطهاد».

---

(١) هو فرنسوا إميل بابوف الملقب غراشوس (Grachus) (١٧٦٠ ـ ١٧٩٧ م) ثوري فرنسي يعتبر رائد الشيوعية. تآمر على حكومة المديرين فحكمت عليه بالموت.

(٢) عهد الرعب عهد ثوري أسسه الأعضاء الأكثر نفوذاً في الجمعية التأسيسية بقيادة روبسبيير وانتهى بمقتل روبسبيير.

(٣) جيروم بسيون دو فيللنوف (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤ م) سياسي فرنسي. مختار باريس سنة ١٧٩١.

محامٍ بسيط في آراس[1] (Arras) اتُّهم بأن لديه بلاغة مهذارة ومماحكة. وقد وصفه لونوتر كمحامٍ «مجدّ، مثقف، ذي حياة متقشفة ونزاهة دقيقة، لكن تصلُّبه وتعاظمه أفقداه الكثير من التعاطف والود. إنه لا يستطيع إخفاء ثقته بتفوقه، ويبتسم للذكريات المرضية التي يحتفظ بها عن نجاحاته المدرسية. ويعزو خيباته الذاتية إلى سوء نية زملائه، وقد تخمّر نزقه الطفولي في الثانوية وتحول الآن إلى ريبة شرسة عند أقل شك بالسخرية».

لقدشكّلت له هذه الطباع بطبيعة الحال العديد من المشاكل منذ بداياته في آراس. ويستشهد لونوتر بما يلي:

«أدخله صديقه بويسار إلى الأكاديمية الملكية للآداب في آراس، وقد استقبل فيها بإكرام ونال حظوة، ومنحه زملاؤه، حتى في العام ١٧٨٦، شرف الرئاسة، وها هو يقدم، في الجلسة العامة التي تلت انتخابه، مطالعة عمل من جانبه عن هذا الجزء من القوانين التي تحكم مصير «الأبناء غير الشرعيين». لقد تكلم طوال ساعتين تقريباً ولا نكاد نسمع كلمة شكر من الأكاديمي الجديد الذي ينبغي أن يعلن في ذلك اليوم شكره لتسليمه المنصب الجديد. وقد اعتقدت الأكاديمية، إذ خشيت من أن يصبح هذا المثال الخطير للإطالة معدياً، أن من الحذر تزويد نظامها ببند يحدد مدة المطالعات بنصف ساعة. فرأى روبسبيير في ذلك نقداً، فاختتمت رئاسته بإظهار استياء، وسيعتذر بخشونة بسبب «أعماله وصحته» وطوال سنتين، لن يظهر إلا ثماني مرات في الجلسات الأسبوعية، فنستنتج من ذلك أن «الصف الأول وحده هو الذي يلائمه». ثم ذكر لونوتر بعد عدة صفحات ما يأتي: «ولاحقاً، في العام ١٧٨٨، اجتمع المحامون في مؤتمر واستبعدوا روبسبيير من هذا الاجتماع، فقام روبسبيير الذي أعماه الغضب بإرسال رسالة غير موقعة تشكل «إعلاناً حقيقياً بالحرب» على زملائه في النقابة والوكلاء العامين الذين اعتبرهم شركاءهم والمتواطئين معهم، ويحتوي هذا النص على الفكرة التالية:

---

(١) آراس مدينة فرنسية.

إن من الصعب جداً، مهما كانت الفلسفة التي نعتنقها، التألم طويلاً، دون أن تفلت منا بعض الشكاوى، والمريض يثور في وجه القدامى الذي ابتلعوا كل القضايا، وأغلقوا باب المحكمة في وجه المبتدئين الذين لا يبذلون جهداً لإرضائهم أو الذين لا يستطيعون النجاح في ذلك. وقد أظهر نفسه كضحية لهم عندما أضاف: مهما كانت الموهبة التي وهبتهم إياها الطبيعة، ومهما كان ميلهم إلى العمل، فإن هؤلاء ينبغي أن يظلوا متأكدين من العيش بخمول دائماً... خيار تعيس بلا شك بالنسبة الى الشبان المهذبين جداً، فإما أن يكونوا معرضين لعدم القيام بأي شيء... وإما أن لا يدينوا بعنائهم وكدّهم إلا إلى مساعٍ مخزية. أليس قاسياً جداً، في الواقع، الذهاب لاستجداء قضية من مكتب وكيلٍ عام تبدو هيئته ولهجته المتكلفة اللطف تقولان: «أنا أرعاك؟...».

لقد كانت سمة الكبرياء الثائرة هذه تستحق توقيعاً؛ وفضلاً عن ذلك لا يتحيرنَّ أحد في معرفة مصدر هذا النقد اللاذع. فالسيد ليبورل (M. Liborel) الأكثر كفاءة للإجابة عن هذه الرسالة. فهو الذي قدم روبسبيير، منذ عهد قريب، إلى مجلس مدينة أرتواز (Artois) ـ عرف كاتبها فوراً وقال قبل أن يجف مدادها: «إننا لا نستقبل قط بيننا النمّامين والخبثاء الأشرار الذين لا يبثون إلا الحقد... فتعساً ثم تعساً لكم، أنتم الذين لا تشعرون بنبل المهنة التي تدّعون القيام بها! إن المصلحة الدنيئة والجشع الوضيع يخيمان في أعماق قلبك والغيرة الدّابة تحملك على محاولة أن تشد إلى مستواك رجالاً مجربين مستنيرين ومتشرعين نزيهين لا يدينون بالثقة الشعبية إلا إلى مواهبهم وعلومهم ومعارفهم... فليس لديك ما تشكو منه؛ وإذا كان ما تقوله صحيحاً، فلديك أكثر مما يجب للنجاح، إذا لم يكن يتوجب من أجل هذا إلا الدناءة...».

وإجمالاً إذا كان روبسبيير لم يترك مدينة آراس بعد نجاحه في أن ينتخب نائباً في الجمعية الوطنية، فإن وضعه كمحامٍ قد تعرَّض على الأثر للمشاكل العديدة التي أثارها ضده. فقد كان منذ بداية نشاطه صاحب خُلُق متصلب ومتزمت. ففي فرساي، في مجلس السلطات الثلاث، لم يكن يشرب إلا

الماء، على حد قول أصدقائه. ولم يعرف له أحد مغامرات نسائية، والروايتان اللتان تناولتا حياته ووصلتا إلينا، تبدوان عذريتين على نحو مثير للرثاء.

في آراس، نجح في أن يجعل فتاة من عائلة ميسورة تحبه، وهي الآنسة ديزورتي (Mlle Désorties). ولكنه تذرّع بواجباته كنائب كي يوقف تطور هذا الأمر، وبعد بعض الوقت، سلته الآنسة ديزورتي وانتقلت بعواطفها إلى شخص آخر. كما أن علاقات روبسبيير مع الفتاة البكر في اسرة دوبلاي (Duplay) معروفة. فقد كانت خطيبته لبعض الوقت، ولكن أحداً لم يسمعه، وحتى المقرّبون منه، يتحدث إليها بحب. لقد كان يتذرع بالفضيلة وأمور الدولة؛ ويرى أن الزواج سيتم لاحقاً، عندما ينتهي كل شيء وتنقذ فرنسا. وفي الواقع، كان يبدو عاجزاً مع النساء. ولكي نفهمه، ينبغي دراسة سوابقه، شبابه الأول عن قرب.

إن مكسميليان دو روبسبيير كان أول أربعة أولاد: صبي ثم فتاتان ثم صبي آخر. وهناك ولد خامس لم يعش، كما أن ولادته كلفت أمه حياتها. إذاً ماتت والدة روبسبيير مثل والدة جان ـ جاك روسو. وقد ولد مكسميليان بعد أربعة أشهر من زواج والديه، السيد فرنسوا دو روبسبيير، المحامي في مدينة آراس، الذي لم يكن من النبلاء ومع ذلك صدّر اسمه بالأداة (دو) (de) الخاصة بهم؛ والآنسة كارّو (Mlle Carrault)، ابنة بائع جعة صغير في مدينة آراس. وقد تم الزواج في ٣ كانون الثاني ١٧٥٨، بعد إعلان عنه قبل العشية. ولم يحضر أي من والدي العريس إبرام العقد ولا الحفلة الدينية.

ويبدو أن والد روبسبيير كان شخصاً غريب الأطوار. ويبدو أن زواجه قد فرضته الظروف، إذ تمّ لمنع فضيحة، فالآنسة كارو كانت حبلى. ومن المرجح أن يكون الولد غير مرغوب فيه وأنه سيُعتبر، منذ ولادته، مصدراً للتعاسة بالنسبة إلى العائلة. ونحن نجهل كل شيء عن أمه. وقد وصفتها شارلوت، أخت روبسبيير، في مذكراتها بأنها ودودة جداً. لكن شارلوت كانت في السنة الرابعة من عمرها عندما ماتت أمها، وهي ذات ثمانية وعشرين عاماً. فماذا كانت

تستطيع أن تعرف عما كان يجري بين والديها؟. لقد روت لنا بسذاجة أن هذا الموت سبّب تعاسة كبيرة لوالدها، وأنه، لكي ينسى حزنه، قام برحلة ولم يعد أبداً. ما هي الحقيقة؟. إننا لا نعلم إلا النادر من الأمور عما جرى، ولكن هذا القليل يقول أشياء كثيرة. ولندع الحديث للكاتب لونوتر:

«إن مأساة غامضة قد أحاطت بالموت المبكر للسيدة دو روبسبيير: فقد امتنع زوجها عن توقيع شهادة الوفاة في سجل كنيسة مدينة سانت ـ أوبر (Saint - Aubert)؛ ولم يحضر المأتم ولا الدفن في الكنيسة. فإما أن يكون حداده قد أضاع رشده، وإما أن يكون تأثير زوجته قد كبح حتى ذلك الحين غرابة طبيعية صارت من الآن فصاعداً مطلقة العنان، فقد كف عن الترافع، وعاش في بطالة طوال عدة شهور، وغادر آراس تاركاً أولاده الأربعة دون ما يقوم بأودهم ليستقر في قرية سوشي ـ كوشي، بالقرب من مدينة ماركيون (Marquion) حيث عمل في خدمة قاضي السيد الإقطاعي في ذلك المكان. وبعد ستة أشهر، عاد إلى آراس، وعاش فيها بعض الوقت، بلا عمل، وقد اقترض سبعمئة ليرة من أختيه أولالي (Eulalie) وهنريت (Henriette) الورعتين جداً والتقيتين اللتين لا تملكان إلا القليل جداً من المال، ثم اختفى مجدداً طوال سنتين دون أن يكون من الممكن اختراق لغز اعتزاله العمل. وسنراه مجدداً، في تشرين الأول من العام ١٧٦٨، يطلب بإلحاح مساعدة مالية من جدته، المنزوية منذ ترملها في دير سيدات السلام، وقد حصل عليها بكل تأكيد لأنه في هذا التاريخ نفسه تخلى شخصياً هو وأبناؤه عن حقوقهم بأي ميراث مرتقب. وبعد أن جازف بهذا الشكل بمستقبل أولاده هاجر فرانسوا دو روبسبيير واستقر في مدينة مانهايم (Mannheim) في ألمانيا».

إذاً، لم يبالِ والد روبسبيير كلياً، بأولاده بعد موت زوجته، وقد ربّت هؤلاء الأولاد عائلة أمهم. وقد عاد إلى آراس، ورافع فيها في عدة دعاوى، لكنه لم يحاول أبداً رؤية أولاده.

فما هو هذا الاتحاد الذي تم بين مثل هذا الأب وأم روبسبيير؟

لقد بدت قبل موتها تعيسة ولاسيما أن فرانسوا دو روبسبير على ما يبدو لم يتوصل إلى مواجهة واجباته المادية ولا واجباته الأخلاقية. ونشعر أنها كانت ضحية مثل أولادها، وأن الأب قد هجرها كلياً على الأثر. ونعلم أن الأختين أولالي وهنرييت هما اللتان تعهدتا البنتين الصغيرتين، شارلوت ذات الأربعة أعوام، وفرانسواز ذات الثمانية عشر ربيعاً، أما الصبيّان فقد أخذهما والد أمهما الذي اهتم بمكسميليان وعمره عشرة أعوام وأوغوستان ـ بون الملقب بون بون وعمره ثمانية عشر شهراً. وما إن تعلّم مكسميليان القراءة والكتابة حتى تابع دراسته في الصفوف الثانوية حيث يعلّم القساوسة بإشراف الأسقف، أطفال المدينة مجاناً. وقد تحدث لونوتر عن روبسبيير في هذه المرحلة فقال: «كشف رفاقه طباعه البغيضة ولم يتحملوا رغبته المفرطة في السيطرة، ولكنه تحلّى، إلى جانب هذا الغرور المبكر، بحماسة كبيرة للعمل وبنوع من العناد لاحتلال المركز الأول. وفي الحقيقة، كان روبسبيير يعاني الشفقة التي يثيرها بؤسه. وربما لأن جدته (والدة أمه) السليمة النية ولكن الكثيرة التأنيب، كانت تحثه صراحة بحماستها للدراسة على الاعتراف بالتضحيات المفروضة عليها. وإذا كان الولد، بشدة تأثره بالمراقبة الراصدة، قد اكتشف بعض هذه التبرّمات والمساومات المألوفة في الأسر الصغيرة التي تثقل ميزانيتها المتواضعة أية نفقة إضافية، فإن هذا الأمر يفسر مزاجه النكد المبكر وميله العنيف إلى العزلة. ولم يكن لديه أُمٌّ لتلاحظ ما يعانيه من مشقة ولتزيلها بملاطفة ومداعبة».

إذاً، كان روبسبيير وحيداً، وقد دخل بفضل منحة إلى ثانوية لويس الكبير في باريس، وتابع فيها دراسته. وقد وصف لونوتر طباعه في الثانوية الباريسية على الشكل التالي: «مهما كانت صعبةً قراءة قصة حياة تلميذ يقدّمه بعضهم كظاهرة لطف وطاعة، ويقدّمه بعضهم كشاب فظ وشرس يحلم بالدم، يسن أسنانه لتمزيق أولياء نعمته، فإن من الأكيد أن مثابرة روبسبيير على العمل لم تفتر يوماً واحداً طوال السبع سنوات التي تابع فيها دراسته في الثانوية الكبرى الباريسية، وأن نجاحاته، فضلاً عن ذلك، تشهد على مثابرته. وكان يعلم أن فظاظة طبعه لا تكسبه صداقة رفاقه ولا ثقة أساتذته، فكل شيء صحيح في

مذكرات أحد هؤلاء الأساتذة، الذي نشر، في المهجر، باسم مستعار، حياة روبسبيير، بشكل متحيز مثل قرار الاتهام. لقد أظهر لنا الولد المجدّ المثابر المتبجح بتفوقه الشخصي، ويظل على مبعدة من رفاقه، وغالباً، خلال فترات الاستراحة الخاصة في قاعات الدراسة، كان يُترك وحيداً وكانت لديه القدرة على البقاء في هذه الحالة ساعات كاملة، متظاهراً بالاكتفاء بنفسه ومفضلاً على التسلية الصاخبة أحلام اليقظة القاتمة والنزهات المنفردة.

وإذا دُعِي في صفه إلى الموضع الأول، توجه ليجلس فيه دون عجلة متمهلاً كأنه المكان الوحيد الذي يناسب مواهبه. كان يتكلم قليلاً، ولا يقوم بذلك إلا عندما يصغى إليه، ويتكلم دائماً بلهجة حاسمة. وربما تخفي هذه الكبرياء الخزي الذي يعانيه من فقره؟ ومن يعرف ما إذا كان المسكين المخذول لم يتألم من كونه ليس كالآخرين، وما إذا كان لا يحمرّ خجلاً من ثيابه الممزقة وحذائه المهترىء؟ لم يفكر في ذلك غيره لأنه يخشى الإهانات».

أصبح روبسبيير طالباً مجدّاً، طالب مجد، وسيكون كذلك في كل مكان يتوجب عليه فيه إخفاء مشكلة أو حرج أو دونية. وسيكون المنطق، تعويضه الكبير ووسيلة عمله الكبيرة، السند الذي يدعمه في نضاله ضد بؤسه الداخلي. فكيف تظهر حالته من وجهة النظر التي تهمنا؟

إن مكسميليان ولد لم يكن والداه يرغبان فيه. وقد سبق أن رأينا بأي شعور عضال بالدونية يتصرف ولد لم تحبه أمه. إنه يشعر دائماً بأنه مكروه. وعلاوة على ذلك، انحازت ذاته الخارقة ضده لإرهاقه وإذلاله، معيدة إنتاج موقف الوالدين. فلا شيء يثير العجب في أن يصبح روبسبيير، الطفل المهمَل، كائناً منعزلاً يدفع الآخرين إلى تركه، وإلى اضطهاده. والحق أنه كان يقاوم هذا الخطر. إذ سيسعى دائماً إلى كسب من يحيط به وإلى تدارك عداوتهم. وأصبح حكيماً وفاضلاً ليكتسب الأشخاص، وليستر عن عيونهم التمرد العميق والكره،

والادعاءات التي بوساطتهـا سيردّ بشكل عنيف على بؤس طفولته، وهجر والده. وسيجهد نفسه لكي يبدو مسالماً ونزيهاً، رغم كل الادعاءات المتراكمـة. ولن يطالب أبداً بأي شيء، مهما كان، لنفسه، وسيترافع دائماً في قضايا الآخرين، التعساء، المحرومين، المهجورين الذين يجد فيهم ذاته، دون أن يعرف ذلك، ومحاولته الدفاع عنهم ضد الملوك والآباء الساقطين، هي تتويج بالنسبة إليه.

وهكذا أصبح الناطق بلسان الطبقات البائسة التي تخلّى عنها نظام لم يعد يحمل وظائفه على محمل الجد، ولم يعد يقوم بدوره الأساسي. لقد أصبحت ثـورته الـلاشعوريـة ثـورتهم، وقضيتـه قضيتهم. وبتعـظيمـه الفضيلة، وسلطة الشعب العليا منح نفسه بعض الشجاعة، وبجعله الأسياد الإقطاعيين يرتجفون اطمأن إلى مشهد قدرته، وباستخدامه سلاح الرعب كان يعاقب نفسه للتقليـل من إثمه الذي سببه نجاحه ونجاح رفاقه. وذاته الخارقة العنيفة بكل تأكيد هي التي حكمت عليه بهذه الحيـاة المتقشفة ومنعتـه من تذوّق السعـادة البشريـة. فصديقه ديمولان (Desmoulin) ومعاونه دانتون (Danton) اللذان تزوجا حـديثاً تمـردا على الديكتـاتور الفـاضل فسلّمهمـا إلى الجلاد مثلهمـا مثل أصحـاب الامتيـازات الذين كـان لا يرى فيهم إلا أشخـاصـاً فـاسـدين ينبغي إبـادتهم. والحكومة التي كان يحلم بها هي حكومة متزمتة صارمة، عدوّة لكل تنازل ولكل فرح، فنعثر هنا بكل تأكيد على هذه القوة التي يبدو أنها أفشلت حياة روبسبيير الجنسية. إذ لم يكن لدى هذا المتعصب للثورة إحساسٌ غير الإحساس الذي يثيره فيه كره الحياة. وعندما كان يتوجب عليه الظهور بشكل رقيق، كان ينصح، أو أيضاً يتصنع، كـاذباً على نفسـه كما على بلده. ويفسّـر هذا الأمـر لماذا لم يستـطع أي شيء إبقـاءه في عمله على استئصـال أصحـاب الامتيـازات، أنّى وجدوا فيها، ولماذا كان يحلم كذلك لكل فرد بمسـاواة في الحقوق والملكيـة لكي يبيد كل امتياز، وكل تفـاوت، ومع ذلـك هذا التفـاوت واضح جـداً في الحياة المميزة والحياة الجنسية.

إن تصوره للعالم وطبقات المجتمع يتحدّد إلى حد كبير في المستوى الشرجي من النمو العاطفي، مترافقاً مع مركّب فمّي قوي، منكراً على الناس التمتع بخيراتهم. وروبسبيير نفسه، قبل أن يُعدَم بالمقصلة بوقت طويل، كان قد دين من قبل ذاته الخارقة. ومن المؤثّر أن نرى كيف انتهى بشكل شرس، وكم كان من المستحيل عليه الإفلات من الطوق الذي يمنعه من الانتصار والذي سيجد فيه الموت. مع أنه حاول مرات كثيرة الإفلات منه. وربما يفسر هذا الأمر المعنى الحقيقي لعلاقاته مع عائلة دوبلاي، فقد كان من الطبيعي من شخص مثله حُرِم من العائلة منذ طفولته الأولى أن يفتش عن عائلة تتبناه. وقد أصبح بالفعل، في باريس ابنهم بالتبني. وقد قدّم إلينا لونوتر وصفاً رائعاً لمنزل هذه العائلة:

«مع أن حالة البناء قد تغيرت قليلاً، فإن مظهره يختلف بشكل ملموس عن مظهره في السنة الثانية من الثورة الفرنسية، فالبيت، فضلاً عن البيوت المجاورة، لم يكن يتألف في ذلك الحين إلا من طابق واحد في حين ينوء الآن بطوابقه الخمسة؛ والفناء الضيق الذي نراه اليوم معتماً جداً كان مسرحاً للهواء وأشعة الشمس، بفضل الحدائق الواسعة التابعة للدير الذي كان يجاورهم، ولعائلة دوبلاي باب خروج عبرها مازالت آثاره قائمة. وفي هذا الفناء كانت فتيات العائلة يعتنين بحديقة صغيرة - حوض أزهار - يحيط بمشغل النجارة، وكان العمال، طوال النهار، ينشرون الخشب، ويصقلونه، ويدمجون بعضه في بعض بضربات المطرقة الصاخبة، تحت نافذة روبسبيير، الذي كانت غرفته الصغيرة تغرق برائحة الخشب الجديد الريفية وبالنشارة الطازجة.

كانت غرفة روبسبيير قاعة ضيقة، تسبقها حجرة صغيرة ضيقة، وفيها بعض الكراسي المصنوعة من القش، ومكتب متواضع جداً، وسرير من خشب الجوز تغطيه ستارة زرقاء كانت سابقاً ثوباً للآنسة دوبلاي؛ وخزانة مسندة إلى الحائط تُستعمل كمكتبة. وكان الدرج المؤدي إلى هذه الخلية يبدأ من غرفة الطعام الموجودة في الطابق الأرضي القائم في عمق الفناء، ويمكن الوصول

إلى هذه الخلية كذلك بوساطة الدرج الكبير الأساسي للبناء، ونجده إلى يسار الباب الخارجي ومازال موجوداً حتى الآن. وينبغي في هذه الحالة اجتياز غرفتين ضيقتين يشغل إحداهما الابن الأصغر في عائلة دوبلاي التلميذ الثانوي، ويشغل الأخرى ابن عمه سيمون الذي كان يعمل أحياناً كسكرتير لروبسبيير. وسيمون دوبلاي هذا، تطوع في الجيش من تلقاء نفسه وجرح في فالمي[1] جرحاً خطيراً أدى إلى بتر ساقه، وكان يدعى غالباً: دوبلاي ذا الساق الخشبية.

وكان روبسبيير يخرج عادة باكراً، بعد تناول القهوة إلى مائدة العائلة، إذ تفتتح جلسة الجمعية التأسيسية عادة عند الساعة العاشرة صباحاً وتمتد حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر. وتخصص الأمسية لليعاقبة[2] الذين لا يعطلون إلا نادراً. إذاً يتم تناول العشاء نحو الساعة الخامسة بعد الظهر. وقد ازداد عدد الأشخاص الذين يتناولون الطعام منذ أن آوت العائلة الرجل الكبير، فكل يوم تقريباً تجد السيدة دوبلاي مدعوين إضافيين. والأشخاص الذين يترددون على المنزل غالباً هم بيير فوجوا (Pierre Vaugeois)، وشقيقه النجار دو شوازي (de Choisy)، وفيليب لو با (Philippe Le Bas)، نائب آرتوا[3] (Artois) الشاب، الجميل الصورة، وذو النفس الأبية والمفعمة بالحماسة، وقد كان كاتب محامٍ قبل الثورة الفرنسية في مكتب النائب العام بوردون (Bourdon) الذي أصبح نائباً عن مقاطعة اللواز (l'Oise)، وبيوناروتي (Buonarotti) أحد أحفاد ميكل

---

(١) فالمي (Valmy) مدينة فرنسية جرت فيها معركة استطاع الفرنسيون فيها إيقاف تقدم البروسيين.

(٢) اليعاقبة: منتدى ثوري كان يعقد جلسات في دير اليعاقبة في شارع سانت أونوريه في باريس، وكان روبسبيير أحد خطبائه الرئيسيين.

(٣) مقاطعة في شمالي فرنسا.

آنج[1]، وهو إيطالي حصل على الجنسية الفرنسية بوساطة اقتراح رسمي للجمعية التأسيسية، وهو مولع بالمساواة وسيساعده طوال حياته وسيبقى حتى شيخوخته أميناً لشعائر روبسبيير، وديدييه (Didier) صانع أقفال في مدينة شواسي وصديق فوجوا، وغرفييه (Gravier) وهو مواطن من مدينة ليون، يعمل في التقطير وكلا الاثنين يسكنان في شارع سانت أونوريه في المنزل المجاور مباشرة لمنزل دوبلاي، ورسام إيطالي، شييتّي (Cietty)، المولع بصناعة الأوراق الملونة في مونتروي (Montreuil)، ودافيد الذي يعتقد أنه سياسي كبير لأنه رسام كبير، ولكي يعاشر روبسبيير، تفضل بالتنازل عن عليائه وتردد على النجار. ونلتقي هناك أحياناً لوهييه (Lohier) وهو بقّال شارع سانت أندريه للفنون الذي يموّن منزل دوبلاي. . .».

إذاً، هذا هو إطار حياته الباريسية، وفي هذا الوسط احتُرِم روبسبيير، وكان يهيمن، كلّي القدرة. لقد وجد أصدقاء حقيقيين في هؤلاء الأشخاص البسطاء، الخالين من الخبث، بين أشخاص شرفاء، وآباء عائلات شجعان وسيدات فاضلة، وفتيات باسلات. وفي هذا الوسط تفتّح وازدهر، وحتى توصل، بعض لحظات الاسترخاء النادرة إلى المطالعة. فقرأ روسو، وكورناي[2]، وراسين[3] على أصدقائه، فيما يمسك بيوناروتي بالقيثارة ليرافق لوبا الذي يعزف على الكمان.

وفي الحقيقة كانت لحظات العفوية هذه قليلة، إذ يكون عادة مرهقاً

---

(١) ميكل آنج الرسام الإيطالي المشهور والنحات الخالد ولد سنة ١٤٧٥ وتوفي سنة ١٥١٤ زيّن كابيلا سكستين وترك منحوتات رائعة مثل داوود وموسى.

(٢) بيير كورناي (١٦٠٦ - ١٦٨٤) شاعر درامي فرنسي، كتب مآسي عدة منها: السيّد، وهوراس، وسيّنا، أول من أبدع أبطالاً أولوا المؤامرات اهتمامهم.

(٣) جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩) شاعر فرنسي، ألّف عدة مآسٍ أشهرها أندروماك، تقيد بقواعد المسرح في زمنه.

بالعمل. فعمله وذاته الخارقة لا يسمحان له بالعيش. فإلى أي حد وصلت عاطفته نحو إليانور دوبلاي (Eléonore Duplay) التي كانت تعتبر خطيبته؟ إننا لا نعلم شيئاً محدداً، ولا نستطيع القيام إلا بافتراضات. فمن المرجح للغاية أن هذه العلاقة، إذا استطعنا تسميتها علاقة، لم تكن إلا واجهة، مظهراً خارجياً، وحديقة للمسكينة إليانور ولنفسه أيضاً.

ويظهر لنا التحليل النفسي إلى أي حد يعجز الأشخاص الذين يملكون طبيعة مثل طبيعته عن إظهار أية دلائل عفوية على الإحساس الرجولي. فقد كان روبسبيير يحب ما يمكن أن يفكر فيه الآخرون عن حقيقة علاقاته مع إليانور. إذ كان يتيح له ذلك إخفاء خواء قلبه دون اضطراب، عن النيات الطيبة، بكل تأكيد، التي لم يكن يثيرها أي صدى، وأي حمية. وربما أتاحت له مودة أولئك الذين يحيطون به استعادة قليل من الثقة بنفسه. إذ يبدو من المؤكد أنه لم ينجح في التعبير عن نفسه وفي إظهار نفسه كما هو في الحقيقة، وفي الاسترخاء. غير أنه لم يستطع إلا بهذا الثمن التوصل إلى العيش بمودة وحنان. ولكن توجّب عليه قبل كل شيء الظهور بمظهر رجل كبير كلّي القدرة، فاضل وذي طيبة فائقة. لقد كان متعلقاً هو نفسه، على الأرجح، بهذه الأسطورة، لكي لا يغرق في يأس العدم الذي خلفه موت أمه وتخلي والده عنه. لقد كان أناه الخارق يردد بشراسة على مسامع هذا اليتيم أنه وحش مخيف لا يستطيع أي إنسان أن يتعلق به، أنه شيطان صنع، منذ لحظات وجوده الأولى، تعاسة الآخرين. إن إدانة الأنا الخارق هذا، جهر بها آلاف الأشخاص في وجه الرجل الذي كان يقول عن عهد الرعب، في تقريره عن مبادىء الأخلاق السياسية التي ينبغي أن تقود الجمعية التأسيسة ما يأتي:

«إذا كان محرّك الحكومة الشعبية في السلم هو الفضيلة، فإن محرك الحكومة الشعبية في الثورة هو في الآن نفسه «الفضيلة والرعب»، الفضيلة التي من دونها يكون الرعب مضراً مشؤوماً، والرعب الذي من دونه تكون الفضيلة عاجزة، إذ ليس الرعب شيئاً مختلفاً عن العدالة العاجلة، والصارمة والقاسية،

فهـو إذاً تعبير عن الفضيلة وانبعـاثها، وهـو نتيجة للمبدإ العام للديمقـراطيـة المطبقة على أكثر حاجات الوطن إلحاحاً، أقل مما هو مبدأ خاص ومستقل.

لقد قلنا إن الـرعب كان محـرك الحكومة الاستبـدادية. فهـل يشبه رعبكم الاستبداد في هذه الحالة؟ نعم، مثلما يشبه السيف الذي يلمع في أيدي أبطال الحرية، السيف الذي تسلح به أتباع الطغيان. فليحكم المستبد بوساطة الرعب رعـاياه المخبـولين، فهو محق كمستبـد؛ أخضعوا بـالرعب أعـداء الحـريـة، وستنتصرون كمؤسسين للجمهورية. فحكومـة الثورة هي استبـداد الحريـة في وجه الطغيـان. ألم تُصنع القـوة إلّا لحمايـة الجريمـة؟ ألم تخصص الصاعقـة لضرب الرؤوس المتعجرفة؟»

لقد وصف لنا الكاتب لونوتر تأثير الرعب الذي عمل روبسبيير على نشـره في فـرنسا: «في تلك الآونـة، جذبت ضجـة فصيلة من الفرسـان في الشارع النساء إلى النوافذ؛ فنظرن إلى الجنود يمرون وقـالت إحداهن: لعلهم أولـئك الجنود الذين سيحرسون في الملحمة الوطنية. وساد الصمت في الغرفة: فهذا التذكير بالمقصلة جمّد التمجيد الروحاني للأشخـاص الأكثر حماساً، وفكّر الجميـع في التعساء الـذين، في تلك الساعـة نفسها، كمـا في كل أيـام ذاك الصيف المخيف في العام الثاني للثورة، كانوا يقاسون أهوال العذاب، ويعانون القلق الفـظيع في هـذا السيـر (البطيء، في العـربـة، من السجن إلى منصـة الإعدام. وسمع ايرون (Héron) فتاة شابة تعبّر عن أفكار الجميع بقولهـا وهي ترتعش: إذا ذهبت إلى منصة الإعـدام يومـاً، فسأودّ أن أكـون أول من يُعدم. فكُتب هذا القول في المحضر الرسمي كحادث لا قيمة له: غير أن التفسير كان هناك، والتبرير نفسه للمشهد الهزلي الذي كان الشاهد عليه، فعندما كان أكثر من ثمانية آلاف تعيس، محكوم عليهم بالإعدام، يملأون السجـون، وعندمـا كـانت الزيـارات المنزليـة تنهب ساكني المنـزل كلهم، من أجـل زهـرة زنبق محفورة على عقرب ساعة حـائط، من أجل تـاج مطبـوع على غلاف كتـاب؛ عندما كان الناس يرتجفون من ضجة عربة خيل تسير على بلاط الشـارع، من ضربة مقرعة الباب، من خطى مجهول يصعد الدرج، عندما لم يعد يجرؤ أحد

على النوم، على الخروج، على الكلام، على فتح صحيفة، خشية أن يقرأ فيها، في زاوية المحكمة الثورية اسم صديق أو قريب تركه الليلة الماضية، وأُخذ، وحوكم، ودين، وذبح في أربع-وعشرين ساعة - وعندما يُرهقون كثيراً من الكابوس المزعج، يهرع الأشخاص المساكين الذين جعلهم عهد الرعب محرومين من تشجيع الصلاة وتعزيتها، إلى عرّافة شارع كونتر سكارب: فهذه، على الأقل، تنبئهم أنهم لن يصابوا بسوء، وتكلمهم على السعادة والسلام، على الشباب الدائم، والخلود وعدم الموت!».

ولكن، أليس من هذا الرعب، من هذه الملحمة، قد سعى روبسبيير عبثاً إلى الإفلات بنفسه، بإسقاط ثقل رعبه الشخصي وجرمه على الآخرين، وفق طريقة الذُهانيين؟ فهو لم يستطع أبداً حضور إعدام واحد، مادام المنظر يجعله يرتجف من الخوف. وقد نعتته قارئة كف كان يتردد عليها بالجبان لأنه كان عند رؤية تسعة البستوني يصبح أخضر، ويجتاح قلبه قلقٌ فظيع. لا، لم تكن السعادة البرجوازية الصغيرة والشريفة عند عائلة دوبلاي لواحد مثله. فقد كان من اللطيف الحلم بها، التصور أن حياته كان من الممكن أن تكون مثل هذه الحياة، لو أنه في طفولته رعت إحساسه، أم حنون وأب عادل ومنصف، من اللطيف التفكير أن حياته، المكرّسة للانتقام، كان من الممكن أن تقوم بخلق سعادة حقيقية، ومنزل سعيد، وأن يده، التي كانت تكتب، ليل نهار، بأسلوب مماحك، تقارير غير مفهومة لإرسال آلاف الضحايا إلى منصة الإعدام، كان بإمكانها أن تستقر على رأس طفل له لو أن أنا - خارقاً شرساً لم يقرر خلاف ذلك.

إن آل روبسبيير ستبيدهم هذه الحتمية القدرية. إذ لن يتزوج أي منهم. فبون بون سيتبع ماكسميليان إلى الموت، وشارلوت، الحادة والفاضلة ستبقى عازبة، وستموت فرانسواز شابة، وهي ذات اثنين وعشرين عاماً.

وراثة بسيطة؟ ربما. ولكن ألم يُقضَ على سلالة روبسبيير في اليوم الذي تخلى الأب بنذالة عن أولاده بحرمانه من إرثهم المنتظر؟ وهنرييت دو روبسبيير

نفسها، أخت هذا الأب الرديء، ومع أنها أسهمت في تربية الأولاد، ألم تفعل فعل أخيها؟ ألم تتزوج في سن متأخرة من طبيب اسمه روت (Rut) وقد قام هذا الطبيب بكل شيء لتجريد الأولاد من الإرث الذي قد تتركه عمتهم لهم؟ بالفعل، لم يكن لهؤلاء الأولاد حظ مع أسرتهم، ونستطيع التساؤل عما إذا لم يسهم هذا الأمر في تطوير شراسة روبسبيير تجاه كل من كان نبيلاً أو يدّعي أنه كذلك.

وهكذا، بدلاً من الوصول والنجاح، هل كان روبسبيير مرغماً على قيادة نفسه إلى الإعدام في اللحظة نفسها التي كان يستطيع فيها الأمل بالانتصار على كل الخطوط، وبأن يصبح رئيس فرنسا بلا منازع، ويحل محل الملك. كيف جرى كل هذا الأمر؟ ومرة أخرى، سندع الكلام للكاتب لونوتر الذي تلمّس برهافته الفريدة مأساة روبسبيير:

«بماذا كان يحلم، إذاً؟ إننا لا ندري ذلك. ولكن هل عرف هو نفسه بما كان يحلم؟ ها هو الآن في الذروة، يمسك بالجمعية التأسيسية، باليعاقبة، بكومونة باريس، بالجيش الباريسي، بالهيئة الانتخابية، بكل أندية فرنسا بالجمعية الوطنية الثورية التي «طهّرها» خفية، بحياة وثروة كل المواطنين: يصغى إليه الآن باحترام ـ أو بتخاذل، لأن الأزمان البطولية قد انتهت. وجاء دوره أخيراً ـ أخيراً: ـ ليرى الآخرين يزخفون، وها هو، في هذا الصمت الكبير الذي فرضه الموت حوله، مأخوذ بنوع من الخوف. فإلى جانبه، شريكان أمينان: سان جوست (القديس العادل)، ديك المدينة، الجميل، الباسل صاحب الحكم، الرؤيوي ـ وكلوتون، ذو العقل المحدود والثاقب، الذي أقعده شلل نصفي قديم، رجل لطيف ومرعب «شارب الدم» ذو وجه «ملائكي»، مقيد بحمية مقتصرة تقريباً على شراب اللوز وحليبه. هذان «المتعصبان» الاستثنائيان، الأول مصاب بنقرس القدم والآخر في الجيش غالباً، إذاً العزلة مطلقة حول ذاك الذي يمسك بصولجان الموت والذي مظهره وحده يقلق كلغز ملحّ.

كان يُنتظر ظهوره. كيف سيستخدم سلطته؟ ماذا ستكون النتيجة، خاتمة العديد من المجازر، الكثير من الدم الذي يستمر في النيلان كل يوم؟ ودام الانتظار شهراً. وأخيراً، في السابع من أيار ١٧٩٤، في بداية الجلسة، صعد إلى المنصة، وفي الصمت الثقيل، الذي يحدثه الآن ظهوره، بدأ قراءة تقرير. ومنذ الكلمات الأولى، أوضح أن فرنسا في قمة السعادة فقال «في الازدهار يتوجب على الشعوب أن تستجمع قواها لتصغي إلى صوت الحكمة... صوت الحكمة، لقد كان هذا الصوت صوته، أما الازدهار... فقد تم في باريس، في الليلة الماضية قطع ٢٤ رأساً وسيقطع ٢٥ رأساً هذا النهار.. وتابع روبسبيير كلامه، بعصبية أشد من المعتاد: التشنج الذي يقلص وجهه المجدور، عزف أصابعه الرديء المحموم على خشب المنصة يفضح اضطرابه. فقط بعض البصاق على أعدائه المجندلين، على كوندورسيه[1]، الأكاديمي الذي تحتقره جميع الأحزاب، وعلى دانتون[2]، الأكثر تصنعاً بين المتآمرين، إن لم يكن الأكثر تخاذلاً بينهم... والخطاب، المعتنى به جداً، ظل في طبقات الماورائيات العليا؛ لقد كان فعل إيمان بالرب وفعل اعتقاد بالحياة الأزلية، وقد بلغت بعض المقاطع الفصاحة الرائعة؛لكن مسار الخطاب كان متعرجاً مراوغاً، وتطوره مبهم إلى درجة أن المستمعين لم يتبينوا إلى ما سيفضي. فكانوا يصفقون كلما استطاعوا ذلك. واستخلص روبسبيير، بتقديم مرسوم يعترف بوساطته الشعب الفرنسي بوجود الكائن الأسمى وبخلود الروح، ما لا يسمح بإحداث نوع من الدهشة والذهول».

فماذا يعني هذا الإظهار لإيمان غير متوقع من جانب رجل ثوري؟ ما هو هذا الكائن الأسمى الذي سيعلن روبسبيير نفسه، على الأثر، كاهناً كبيراً له،

---

(١) أنطوان كاريتا، مركيز كوندورسيه،(١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) فيلسوف وعالم بالرياضيات وأحد أعضاء الجمعية التأسيسية، كان يهتم بشكل خاص بتطور التعليم الرسمي.

(٢) جاك دانتون، عضو الجمعية التأسيسية الفرنسية (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤) مؤسس المحكمة الثورية وعضو هيئة السلامة العامة، اتهمه روبسبيير بالخيانة والاعتدال وأعدمه بالمقصلة.

في حين كان الجميع يتوقعون منه أن يظهر كرئيس دولة؟ لماذا هذه الاهتمامات الماورائية لدى هذا المرشد لثورة دموية ولهذا القرار من الجمعية التأسيسية الذي وفقه ستعترف فرنسا بوجود الكائن الأسمى وخلود الروح؟ لماذا في اللحظة التي لم يتبقَّ له فيها إلا الجلوس على العرش وحكم شعب لا يطلب إلّا الرجوع إلى سلطة حازمة وحقيقية، أكان يختلق وجود رب جديد كي يعلن نفسه علانية كاهنه الأكبر؟

في لحظة الوصول والتمتع بانتصاراته، في اللحظة التي نجح فيها بأن يعهد بالمراكز الأكثر أهمية إلى أصدقائه ومساعديه، في اللحظة التي تمّت فيها تصفية ممثلي التقاليد القديمة واستبدالهم بخدّام التقاليد الجديدة، في هذه اللحظة تراجع. ألم يستطع أن يرى نفسه حرّاً، وهو الذي طالما تكلم على الحرية؟ ألم يستطع التنكر للطاغية الذي جندله ـ لأنه اختلق وجود طاغية أسمى؟ ألم يستطع إحساسه متابعته في مشاريعه اللاشعورية؟ أصرخ به «ليس هذا ما أريده، لم تخلق أنت للانتصار، أنت عبد الكائن الأسمى، أنت مقدّر لك الفشل والزوال!». كيف أخفى خوفه من النصر، واضطرابه به ورعبه الذي يمنعه من ارتقاء العرش المقدم إليه؟ واليانور، خطيبته التي كان يشعر بإعجابها غير المحدود، إعجابها كأمَة لا تطلب إلا خدمة سيدها، ألم يسعَ كثيراً إلى وقفة، إلى وضع لإخفاء خوفه، وارتجافه وعجزه أمامها؟ أَوَجَدَ يوماً الشجاعة ليعترف لهذه الفتاة الباسلة بأن أية امرأة لم تستطع إثارته؟ هل اعترف يوماً أن الأهواء الوحيدة التي تلازمه هي تأكيد قدرته وسلطته والميل إلى الكره والمعاقبة والانتقام والتعذيب؟ هل باح يوماً لأحد بالأفكار التي ترهقه في لحظات الاسترخاء النادرة؟ إنه لم يهمس بكلمة عنها لأحد، ومع ذلك توجّب عليه، هو الدقيق جداً وذو الذكاء الثاقب جداً أن يضطرب بشكل عميق من جرائها. ولم يتبقَّ له وسيلة لتبرير ضعفه إلا ملهاة كاهن مخصي ومجرد من الرغبة. وسيستعيد الحركات الكبرى والمآسي الكبرى والقرارات الكبيرة ليخفي عدم قدرته على اتخاذ أي منها، وسيرتدي قناع البطل الذي يذهب إلى حد التضحية، إلى حد التضحية الكلية بحياته من أجل عمله، لكي لا يعترف أبداً، لا لنفسه، ولا

للآخرين بأن الخوف يمنعه من تكريس نفسه فعلاً لذلك. وهو إذ يفر حتى النهاية، أمام العرش الفارغ كما أمام المرأة والحب، لا يتبقى له لتعزية نفسه في ضيقه إلا وهم كائن أسمى سيتيح له التكفير عن أخطائه بالتصفية بحياته.

لقد أعدَّ روبسبيير اعتقاله الخاص وإعدامه. ولكن من هو الذي سيحمله على إسقاطه؟ أعداؤه قليلو العدد ويرعبهم الخوف من أن ينجح في اكتشاف أمرهم. هناك طبعاً ڤادييه (Vadier) وفوشيه (Fouché)[1] وكورنا (Cornat)، لكن مثال دانتون ودومولان مازال قائماً هناك ويحملهم على التفكير. ولكن لعل هناك وسيلة لإثارتهم بجمعهم في احتفال مثير للسخرية.

سيحتفل روبسبيير بعيد الكائن الأسمى. وسنترك الكلام للكاتب لونوتر ليحدثنا عن ذلك: «والحال أنه فيما ينتشي المتسكعون، يتذمر عدد من أعضاء الجمعية التأسيسية ضمناً، فالمفكرون والجاحدون لمصلحة ذاتية أو عن اقتناع يغتاظون من الاختلاط بهذا «التعصب»، بهذا التراجع الفاضح نحو خرافات الطغيان. لقد صفقوا كلهم لروبسبيير، بكل تأكيد، لكي لا يبرزوا كأعداء لمثل هذا الرجل، إلا أنهم قلقون من شعبيته الهائلة، وأكثر من ذلك أيضاً مما ينذر بباباويته المقبلة.

ويُعدّ من ضمن هؤلاء المستائين ڤادييه، الرجل المهم في هيئة الأمن العام، إنه رجل ذو أنف طويل، وسحنة شاحبة، طويل القامة، نحيف جداً، مخلّع المشية مثل مهرج عجوز. وفي الجمعية التأسيسية المؤلفة إلى حد كبير من الشبان، يعتبر ڤادييه مسناً، لأن عمره ثمانية وخمسون عاماً. إن لهجته الغسكونية المرعبة وارتجالاته الغامضة، وسخريته الفاسدة، وسنواته الستون الحامضة التي يفتخر بها في كل مناسبة تمنحه هيئة نوع من المهرجين، كان

---

(١) جوزيف فوشيه (١٧٥٩ ـ ١٨٢٠) سياسي فرنسي وأحد أعضاء الجمعية التأسيسية. وزير الشرطة في عهد الأمبراطورية.

مجلس النواب يسرّ به أحياناً، وقد شهد كتائب البدايات الشاقة لروبسبيير الذي يناقضه بشكل خاص. إنه جنوبي ساخر لا يستطيع إمساك لسانه، ولم يكن يتعاطف مع هذا الرجل الشمالي المنكمش على ذاته، البارد، المجدّ الذي لم يره قط أحد يضحك أبداً؛ ومع ذلك قاما معاً بضرب حزب الجيروند (Gironde). ومن الجدير بالذكر أن ڤادييه، الذي يتملكه الوهم فيما يخص أهميته، التي ظهرت بوضوح في النضال ضد دانتون، ومع أنه لم يأخذ على محمل الجد الرجل النحيل الذي رآه، في عهد الجمعية التأسيسية، والذي لا يملك قرشاً، ويحاول التقدم، رغم التهكم والإهانات.

والآن، فيما ينصب هذا التلميذ البائس لروسو نفسه «كاهناً أكبر» ويعيد خلق الكائن الأسمى الذي تمّ إلغاؤه، لا يكفّ هذا الغاسكوني العجوز المعجب بڤولتيرعن التهكم، وهو إذ يحتدم من عبثه الشخصي يقرر أنه ينبغي قطع الطريق على هذا المتدين المتزمت والتخلص من هذه الزمرة من الأغبياء الذين يريدون الشروع بترتيل القداس».

لقد كان ڤادييه، من غير أن يدري، يستطيع الاعتماد على مساعدة شخصية مميزة. فروبسبيير الذي يغدو من الآن فصاعداً قليل الثقة به، أخرق ومثيراً للسخط سيسهل المهمة عليه. لقد اعتمد طريقة مسيئة إليه جداً، إذ شعر قبل أن تتم مهاجمته بالحاجة الى أن يترك علانية وصيته في الجمعية التأسيسية. ففي الثامن من تشرين الثاني ١٧٩٤ ألقى خطاباً شهيراً، وسيكون هذا الخطاب خطابه الأخير. لقد حرص منذ عدة أسابيع على عدم الظهور في هيئة السلامة العامة، الأمر الذي سمح لخصومه بتنظيم صفوفهم في أمن وطمأنينة. ووضع ڤادييه يده على قصة والدة الرب واستخدمها لمهاجمة ضحيته. والحال أن بلاغة خطاب روبسبيير جازفت بكل شيء، ألم يبدُ أنه يتطلع إلى الموت كنصر أسمى؟ لقد قال حرفياً ما يأتي:

«أيها المواطنون، أزيلوا من القبور هذه الحكمة التي حفرتها أيد مدنسة، والتي رمت لباس الحداد الكئيب على الطبيعة، وأوهنت عزم البراءة

المضطهدة، والتي هي إهانة للموت. ومن الأصح أن تحفروا فيها هذه الحكمة: الموت بدء الخلود».

لقد اختار إذاً الخلود بدلاً من الحياة. وصار جميع ضحاياه خالدين أيضاً، وقد سكن من جراء ذلك شعوره بالإثم بكل تأكيد. لكن الموت كان أيضاً، بالنسبة إلى هذه الروح المعذبة، بلا منفذ نحو الحياة، وسيلة فعل سامية. فالموت من أجل نتاجه هو رفض للموت، رفض للبؤس، رفض للعجز الأكثر شمولية لفرد ما وتحويل له إلى قدرة كلية. لعل هذه طريقته في حمل ذنب فرنسا الثورية كله على كتفيه، فرنسا المذنبة لأنها قطعت رأس ملكها. تلك تضحية بالنفس للتكفير عن الجريمة العامة، ذاك إنقاذ لشعبه على طريقة المخلصين الفادين.

إننا نعرف التتمة وكيف تصرف نواب الجمعية التأسيسية تجاه خطابه الذي لم يفهموه والذي نجح فضلاً عن ذلك في إثارة أعدائه ضده. وها هو الكاتب لونوتر يصف أثر ذلك الخطاب في النواب فيقول:

«عند قراءة هذه الخطبة المملة المدهشة، نفهم أنها أحدثت في أولئك الذين استمعوا إليها، شيئاً من الذهول. فهذه الطريقة الغريبة في التأرجح، المخصصة لطمأنة البعض بتهديد البعض الآخر، دون الإشارة إلى أي شخص، تؤدي إلى نوع من الذهول والاندهاش. فهناك من كل شيء في هذا الخطاب ما عدا النقطة التي يرتكز عليها. لقد صبَّ روبسبيير فيه جام غضبه على الرجال الذين أهانوا ىي يوم الكائن الأسمى، وسط الحبور العام، رئيس الجمعية التأسيسية الوطنية الذي يخاطب الجمهور المتجمع. «آه! إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذه اللحظة ولا في هذا المكان». وهكذا لم يُسمِّ أيضاً ذاك الذي قدّم إلى أصحاب النية السيئة «لكي يضاعف المستائين» نبأ مؤامرة مزعومة يقوم بها بعض الحمقى الورعين، ووجد فيه «مادة لا تنضب للتهكم الفاحش والصبياني». وبعد أن لمَّح إلى ڤادييه، رمى إلى كارنو (Carnot) وبريور (Prieur) ولكن دون أن يعلن اسميها: إن المصلحة العسكرية تتغلف بسلطة

مشبوهة؛ ولمّح حتى إلى أنه يتواطأ مع العدو: «إن بريطانية التي طالما أسأنا إليها في خطاباتنا قد صانتها أسلحتنا». وسيعترض بعضهم بأن فرنسا منتصرة وأن روبسبيير يغتاب النصر: إنها لا تقوم إلا بتسليح الطموح، وتنويم الوطنية، وإيقاظ العجرفة، فتحفر بأيديها الماهرة قبر الجمهورية! وقطعت هذه الحكم المذهلة بمناجاة مثالية: «لا يا شومت (chaumette)، لا يا فوشيه (Fouché)، ليس الموت نوماً أزلياً!» أو بدفقات تكشف مرارة قلب يعتقد أنه حنون وهو ليس إلا متقرحاً: «لقد توصلوا إلى شحني بكل القلقين، بكل الصعوبات التي تتطلبها سلامة الوطن... وكل رجل سينهض ليدافع عن الأخلاق العامة سيكون مثقلاً بالإهانات وسيبعده المحتالون». والخلاصة هي: زعزعة نير الهيئات، وتطهيرها، أي استبعاد جميع المجرمين الآثمين المعادين لروبسبيير منها، وإنشاء وحدة الحكومة تحت السلطة السامية للجمعية التأسيسية».

لقد ارتكب في هذه المناسبة خطأ أخرق يتعذر إصلاحه: لقد ظن أن من الذكاء التظاهر باللطف مع السماح برؤية مخالبه الكامنة، وأن يحمِّل آخرين، مجهولين، مسؤولية عهد الرعب، متناسياً قانونه الذي فرضه في الشهر التاسع من الثورة، ومظهراً أنه بريء منه كليةً، لكن حذر المستمعين إليه الذين كانوا أكثر تنبهاً من أن يأخذوا ويستسلموا إلى هذا النهج، وعندما طوى أوراقه ونزل من على المنصة، كان الأثر الذي تركه خطابه القاتم الغامض مختلفاً كلية عما كان ينتظر. إذ كان مجلس النواب متردداً محتاراً: ماذا يفعل؟ هل سيتذلل أيضاً، أو يطلب «إيضاحات»؟ فبدلاً من تهدئة مشاعر القلق، قام روبسبيير بتأجيجها، وتعرّف عدد كبير منهم إلى أنفسهم في الصور التي خطّها؛ أينبغي محاولة ملاطفته، أم يعتبرون أنفسهم فوراً عدواً محدداً؟ وقد جرب لوكوانتر (Le Cointre) وباريز (Barère) الوسيلة الأولى وتساءلا عن «مغزى الخطاب». لكن الاقتراح استقبل ببرود. وزايد كوتون (coutton) فلم يطالب بمغزى الخطاب بل أيضاً بإرساله إلى ٤٤ ألف كومونة[1] في الجمهورية، نتيجة طبيعية

(١) الكومونة: العامية، والكومونة أيضاً أصغر وحدة في التقسيم الإداري يشرف عليها مجلس بلدي.

للاستحسان الإجماعي، فخضعت الجمعية التأسيسية وأطاعت، ظاهرياً وبدون حماسة. لكن ڤادييه لم يقر له قرار منذ أن سمع روبسبيير يصف تقريره عن والدة الرب بالصبياني والبذيء، فاندفع إلى المنصة، بقامته الطويلة، الهزيلة، الخطيرة والهزلية وأبلغ زملاءه بلهجة واثقة عن دهشته المؤلمة. وكيف أن هذا التقرير الشهير المتعلق بكاترين تيوس (Catherine Théos) لا يتعلق إلا بتهريج مثير للسخرية. وأن هذه المتآمرة لن تكون إلا امرأة للاحتقار فقاطعه روبسبيير إنني لم أقل هذا؟ ولأول مرة منذ زمن طويل بدا روبسبيير يتراجع أمام المعارضة، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التراجع الذي سيكلفه جزءاً من كبريائه، حدث في ما يتعلق بالبنية. وتابع ڤادييه المحتقِر: إنه يدافع عن تقريره المركّب بهذه اللهجة من السخرية المخصصة لتضليل التعصب، لكنه يعدو أكبر من ذلك أيضاً: «لقد جمعت منذ بعض الوقت وثائق كثيرة، وسأعمل على إدخال هذه المؤامرة في إطار أكثر وقاراً.. سترون، سترون فيها ذكراً لجميع المتآمرين القدماء والحديثين».

وها هو كامبون (Cambon) الذي شجعه موقف ڤادييه ينهض بدوره ليقول: لقد حان وقت قول الحقيقة كاملة: رجل واحد يشل الجمعية التأسيسية، وهذا الرجل هو روبسبير، فعلا التصفيق بشدة. فأراد روبسبيير أن يناقش الأمر مطالباً بحرية قول رأيه. فتعالت صرخة من جميع أنحاء القاعة: وهذا ما نطالب به كلنا!. وألحَّ بانيس وقد خارت قواه أن يخبروه عما إذا كان مهدَّداً، فتدخل بيو ـ فاران (Billaud - Varenne): فليعرض الخطاب الذي سمعناه للتو على اللجان قبل طباعته... فأنّ روبسبيير قائلاً! آه ماذا! تريدون عرض خطابي على الأعضاء الذين أتهمهم ليدرسوه: ووسط الهمهمات التي دوّت، ارتفعت صرخة: سمّهم إذاً!... وألحت عدة أصوات قائلة: نعم، نعم. لكن ماكسيمليان تمسك برأيه وتلعثم. فتمرّد هذا المجلس الذي قاده حديثاً بالعصا. يغضبه ويبلبله. فاحتج بخضوع أو بغضب أو باحتقار بأنه لا يريد المشاركة فيما يقررونه لمنع إرسال خطابه. وفيما ترك المنصة وذهب ليجلس إلى جانب كوتون وأخذ يتحدث معه وعلى وجهه بعض مظاهر القلق، هاج بعض الممثلين. وبدا

أن الجمعية التأسيسية تستيقظ؛ وكل أولئك الذين تكلموا ضد روبسبيير، ضد دواعي كبريائه الجريح، صفقوا وَرُدَّ الاقتراح، ولن يرسل الخطاب إلى المحافظات. فكان ذلك هو الفشل عينه. إن النزيه، الذي وقف منتصباً لحظة التصويت، ارتمى على مقعده، وسمعه ماليه (Mailhe) القريب جداً منه يتنهد قائلاً: «لقد ضعت».

ثم حدثت مأساة الليلة العاشرة من الشهر الحادي عشر من تقويم الثورة. إذ أوقف روبسبيير مع أخيه، ولوبا وسان جوست وكوتون وهنريو (Hanriot)، حاكم باريس. ووقع حادث غير متوقع كان ينبغي أن يفشل كل شيء. فقد أطلق الجمهور روبسبيير وقاده إلى دار البلدية. وروى الكاتب لونوتر هذا الحدث على الوجه التالي:

«أسرع مديرو الشرطة عند وصول العربة وفتحوا بابها، فقفز روبسبيير خارج العربة، بدون أن يلمس مرقاتها كرجل ضائع: «كان يمسك بمنديل أبيض يغطي به فمه ويندفع في الباحة، لقد كان ممتقعاً وخائراً تماماً. أما مديرو الشرطة فقد استقبلوه بأعظم آيات الصداقة، وبعد أن عانقوه، قادوه وهم يدافعون عنه إلى مكتبهم. وسمع موظف كان يقف عند النافذة أحدهم يقول: «اطمئن الآن! ألست مع أصدقائك!» وسُجن رجال الدرك الذين أوقفوه سريعاً، واتُّهموا بأنهم رفعوا يدهم في وجه صديق الشعب».

لم يعد روبسبيير يريد الآن الخروج من هذا الملجإ الآمن؛ فقد أرسلت إليه الكومونة وفداً حاملاً دعوة مستعجلة: إننا بحاجة إلى نصائحك، احضر فوراً. ولكن عبثاً، إذ رفض روبسبيير أن يتحرك من مكانه: فمن أجله ثارت باريس، وادعى أنه ينتظر، بعيداً عن الخطر، المخرج القانوني للأحداث. فألحت الكومونة: من الظاهر أن الرغبة الكبرى للجميع هي توزيع المسؤوليات والمخاطرة شخصياً بأقل ما يمكن. كما أرسلت مفرزة كبيرة من الفرسان لإخراج سان جوست من السجن، وجيءَ به إلى دار البلدية. والآن روبسبيير هو الذي يريدون رؤيته: فامتطى هانريو المتبجح الذي لا يتعب صهوة جواده، وأسرع

إلى دار البلدية، وانتزع النزيه وقاده إلى الكومونة، حيث أحدث دخوله هتافات جنونية ومعانقات عديدة. ولم يعد ينقص إلا كوكون الذي كان مطمئناً كذلك في سجنه والذي لم يطلب إلا أن «يُتَناسى أمره»، فأرسل روبسبيير للبحث عنه والإتيان به قال: الدرك الذين توجب عليهم التفاوض ربع ساعة كاملة مع هذا العاجز ليقنعوه، وأخيراً نقلوه وهو كثير الانزعاج إلى دار البلدية نحو الواحدة والنصف صباحاً.

مستبدون تافهون، ما إن أصبحوا هناك حتى بدأت حيوية الجسم البلدي التي كانت قوية جداً في بداية الصراع، تضعف، وستكون تلك حالة «الهجوم المباغت» ولكن لم يُقم بأي عمل. وألقى روبسبيير خطاباً، وهو جالس في مقعده إلى جانب العمدة لسكو ـ فلوريو (Lescot - Fleuriot). وتلقى قَسَم مختلف وفود الفضائل والقطاعات، وتذرّع بالعديد من الخطب المملة. وتم أيضاً تبادل بعض اللطمات العنيفة: وكان هناك تاجر الأمتعة القديمة جونو (Juneau)، الذي سمح لنفسه بأن يشير إلى أن الجمعية التأسيسية ليست مؤلفة فقط من مجرمين غادرين، فمزقت ثيابه، واقتيد إلى روبسبيير الذي حكم عليه بإيجاز: اقتلوه! اقتلوه! وكتب إلى قطع الجيش التي كانت بعيدة وغير مهتمة جداً، لحسن الحظ، بما يجري في باريس. ثم شعر روبسبيير بالتعب فطلب الانسحاب إلى الصالة المجاورة مع أصدقائه. فاجتمعوا فيها للتشاور دون أن يقرروا شيئاً. أينتظرون النهار ليسيروا إلى الجمعية التأسيسية؟ هل أمّلوا أنها لن تستطيع الامتناع عليهم وأنها ستنحلّ من تلقاء نفسها، أو أن الشعب سيقوم وحده بالمهمة؟ الشعب؟ إنه مثل خادمه المواطن لسكو (Lescot): إنه يرى جيداً أن هناك صخباً كثيراً، لكنه لا يميز قط أسبابها. وكيف سيختار من بين الحزبين اللذين يدعوه كل واحد منهما إلى مقاتلة المتآمرين، الطغاة، أعداء الحرية، كلمات استهلكها التعسف ولم تعد تؤثر في أحد. ثم لا شيء سيقرر، فهذا الدوس والمرواحة بلا هدف من ميدان الفروسية إلى ساحة غريف[1] Grève.

---

(١) غريف، في الأصل الإضراب، وهو اسم الساحة التي كان يتم فيها تنفيذ أحكام الإعدام.

فهذه المحطة اللامتناهية أمام مجلس البلدية.

تبلبل الأشخاص الأكثر حزماً، فماذا كانوا ينتظرون؟ لقد حاولوا استبقاءهم بتوزيع الخمر عليهم، فشرب رجال المدفعية على نفقة هنريو، عند صاحب مطعم شارع موتون (Mouton)، ولكنهم كانوا مرهقين، وفضلاً عن ذلك لن يحدث شيء قبل انبلاج الصباح، وشيئاً فشيئاً، تفرقوا بشكل فردي في البداية، ثم جماعات جماعات، وبعد ذلك فصائل فصائل، وهكذا عاد معظم المواطنين المجندين إلى أحيائهم. وفي الواحدة ليلاً، خرج هنريو من مجلس البلدية ليشجع جنده، فوجد الساحة خالية تقريباً، فأطلق بعض الهتافات المتداولة وعاد إلى الداخل دون أن يقلق ويتدارك تفرُّق إخوة السلاح البواسل أما روبسبيير المحرَّر والمسيطر على الكومونة وعلى حامية باريس، فقد أمضى الليل كله دون أن يتحرك أو يقوم بأي عمل. لقد كان باستطاعته التغلب على جميع أعدائه. لكنه أبقى عليهم، ونعرف اليوم لماذا فعل ذلك. أما أعداؤه، فاستعادوا أمام هذا الخمول غير المفهوم، شجاعتهم. وأوقفوا روبسبيير نهائياً في اللحظة التي كان يوقّع فيها، بعد صراع مرعب مع ذاته، مرسوم حل الجمعية التأسيسية ليعلن الدكتاتورية، وبذلك ينقذ نفسه وأصدقاءه.

لقد حاول الانتحار، لكنه فشل حتى في انتحاره. فبدلاً من أن يفرغ مسدسه في صدغه، لم يقم إلا بتحطيم فكه، وهذا أمر غير مميت لكنه سيحرمه بكل تأكيد من أفضل أسلحته: الكلام. لقد ظهر على الشعب للمرة الأخيرة لكي يتوجه إلى المقصلة، مغطى بالدم، وفمه فاغر مثل جرح كبير، وفكه متدلٍ وعاجز. ثم كانت النهاية. وللمصادفة، كان يرتدي، في المناسبة، الثوب الأزرق الذي كان يرتديه يوم عيد الكائن الأسمى.

فيمَ نفكر تجاه هذا الفشل المؤكد الذي مُني به روبسبيير؟ إننا نعلم، بعد ما جرى سابقاً أنه ربما كان محتوماً، إلا إذا كان من الممكن تحريره من قلق وبؤس داخلي ولن يكون هو نفسه من دونهما. وإذا كان صحيحاً أن ثورة ما لا تستطيع النجاح إلا بالقضاء على ممثلي التقاليد القديمة لاستبدالهم بآخرين، فإن

روبسبيير قد أسدى لوطنه خدمة جليلة هي قيامه بهذا العمل بلا رحمة. لقد كان القائد الذُهاني الذي تحتاج إليه فرنسا في تلك المرحلة.

إن القائد الذُهاني لا يستطيع من جراء قسوة طباعه وعجزه عن القيام بشيء آخر غير خلق رعب ما، فلا يمثل إلا مرحلة انتقالية. وعندما تتوجب العودة إلى التوازن الطبيعي، يكون عاجزاً عن تحقيق ذلك، ويخلي مكانه للحياة، وتدينه الجماعة إلا إذا بقي المرحلة العابرة وتابع القيام بدور اللاتوازن لينقذ نفسه. إنه لا يستطيع أن يمثل إلا اتجاهاً يكون هو الناطق الرسمي له، ويختفي معه عندما تتجاوز اتجاهات أخرى. ولذلك يختفي، مهما كانت القوة التي يجسدها ، فيكون مشابهاً لأشخاص الحلم الذين يلازمون الإنسان طوال الليل. ففي صيرورة الجماعة، هل الثورة شيء آخر غير كابوس مريع ينبغي الاستيقاظ منه، للتفرغ للمشاغل اليومية؟ إن أولئك الذين تعلموا من الحلم تصور الأجيال والتفكير فيها، ويعرفون النزاعات الحتمية في التطور البشري وترقّي الشخصية يفهمون مصير الأفراد المميزين الذين تضحي بهم الثورة، إن بعض أنواع الفشل ضرورية للتوازن الذي تسعى إليه الجماعة في هذا الاتجاه أو ذاك.

****

نابوليون والفشل

إن نابوليون، بلا شك، هو الرجل الأكثر تمثيلاً للثورة الفرنسية. لقد كان القائد الذي نجح في إقامة نظام جديد على أنقاض الملكية، وفي قيادة الجماعة إلى الاستقرار الذي ظهر أنه نهائي اثر بعض ردات الفعل العابرة. ويبدو لنا اليوم أيضاً اصطلاح نابوليون كصرح قوي ومؤثر يرمز إلى النظام الجديد الذي كرّسه.

نابوليون! نحن جميعاً نعرف منحنى حياته الكبير: صعوده، نجاحه العجيب ونهايته في جزيرة القديسة ـ هيلانة[1]، بعد فشله في موسكو وفي واترلو[2]، وسيكون من المهم والمفيد في نطاق هذا العمل دراسة دور هذه الشخصية الفريدة ودلالة فشلها، من زاوية فردية وجماعية.

لقد رأينا في الفصول السابقة أن القادة الذين تستنجد بهم جماعة ما، في فترات الانتقال من نظام إلى نظام، هم بالضرورة بعيدون عن القاعدة، وليسوا قادرين على القيام بدورهم إلا بفضل بعض الظروف التي كوَّنت طباعهم، وتحكمت بنجاحهم، فضلاً عن فشلهم. وقد فهمنا أن بعض أنواع الفشل

---

(١) جزيرة بريطانية في المحيط الأطلسي. من المشهور أن نابوليون نفي إليها.

(٢) بلدة في بلجيكا جرت فيها معركة شهيرة في ١٨ حزيران ١٨١٥ خسرها نابوليون أمام القائدين ويلنغتون الانكليزي وبلوخر الألماني.

الفـردي تبدو حتميـة، وخاصة عندمـا يأخـذ القائـد، على طريقـة المخلص الفادي، على عاتقه ثقل الذنب كله الذي تتضمنه ثورة ناجحة.

ونحن نعرف أن الصراعات التي تقسم أمة ما في مرحلة الثورة تتطور ليس في الجماعة فقط، بل في كل فرد أيضاً، في حين أن هذا الفرد كان يعتقد أنه قـادر على أن يكون في هـذا الجـانب أو ذاك من المتـراس. وهكـذا اكتشفنـا ساحات معارك يجهلها المؤرخون، وتتواجه فيها القوى نفسها التي تجابهت في مـارنغو[1] وأوستـرليتز[2] وبـورودينو[3] (Borodino). وقـد تمثّلت ساحـات هذه المعارك بأرواح الرجـال التي يتلاعب بهـا الحزب بصمت، قبـل أن تدركهـا الجماهير العريضة بزمن طويل بوساطة إعلانات الحرب، وضجيـج المدافـع، وأنين الجرحى والأموات وعار المغلوب وانتصار الغالب، العابر غالباً.

لقد كان نابوليـون أحد هؤلاء الـرجال. ونـود أن نعرف كيف كـان مصيره محكوماً بالصراعات الجارية في عهده تقوده وتوجهه، وكيف استطاع أن يصبح نقطة تثبيتها، الأداة التي بوساطتها يعدّ ليس مصيره الشخصي فقط، بل مصيـر إنسانية أيضاً يتعلق قدرها بانتصاراته وهزائمه، بنجاحاته وفشله.

الأسباب التحليلية النفسية لفشله؟ قليل من الناس طرحوا هذا السؤال على أنفسهم حتى الآن. صحيح أنه كان من الصعب إدراك كيف استطاع نابوليـون نفسه السعي إلى الفشل من غير علمه، في حين أن نجاحاته كانت تبدو خارقة جداً ومؤكدة تماماً. ويبدو أن تولستوي لامس، على طريقه، المسألة التي نهتم بها في روايته الشهيرة **الحرب والسلم**.

---

(١) مارنغو (Marengo) بلدة في إيطاليا جرت فيها معركة كبيرة تغلّب فيها نابوليون بونابرت على النمساويين سنة ١٨٠٠ م.

(٢) أوسترليتز (Austerlitz) بلدة في مورافيا في تشيكوسلوفاكيا، جرت فيها معركة تغلّب فيها نابوليون بونابرت على النمساويين والروس سنة ١٨٠٥.

(٣) بورودينو بلدة في روسيا بدأت فيها معركة موسكوفا سنة ١٨١٢.

«لقد دخل نابوليون موسكو بعد معركة باهرة، ولم يكن النصر مشكوكاً فيه لأن ميدان المعركة بقي للفرنسيين فيما تراجع الروس وسلّموا المدينة. وكانت موسكو ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة والثروات الهائلة، وكل ذلك كان في متناول نابوليون وبين يديه. ولم يقم الجيش الروسي الضعيف بمحاولة هجوم واحدة طوال شهر. وكان وضع نابوليون من أكثر الأوضاع لمعاناً. وبدا أنه بعد كل ذلك لا يتطلب الأمر أن يكون المرء عبقرياً ليرتمي بقوى مضاعفة على بقايا الجيش الروسي ويدمرها، ليؤمن لنفسه سلاماً نافعاً، أو أيضاً للقيام بحركة تهديد لمدينة بطرسبرج، أو في حال عدم نجاح هذا التحرك، ليلتف نحو مدينة سمولنسك أو مدينة فيلنا، إلا إذا بقي في موسكو ليحافظ على هذا الوضع الباهر الذي حققه وتمتع به، في ذلك الوقت، الجيش الفرنسي. ومن أجل هذا ينبغي القيام بالأمر الأكثر بساطة وسهولة؛ وهو عدم السماح لفرق الجيش بالانصراف إلى السلب والنهب، وتحضير أماكن سكن كافية للجيش في موسكو خلال الشتاء، وجمع المؤن اللازمة لأكثر من ستة أشهر، وهو أمر كان ممكناً جداً، في نظر المؤرخين الفرنسيين. لكن نابوليون الأكثر عبقرية بين كل العباقرة، نابوليون المسيطر على الجيش كله، لم يقم بشيء من هذا.

ولم يقتصر الأمر على أنه لم يقم بأي شيء، بل على العكس من ذلك، استخدم كل طاقته ليختار من بين جميع الإمكانات المطروحة أمامه، الأمر الأكثر حماقة والأشد خطورة...

«لو كان هدف نابوليون هو أن يسخر جيشه، لما كان بإمكانه ابتكار وسائل أخرى، قادرة بكل تأكيد وبعيداً عن العمليات الروسية، على إضاعة الجيش الفرنسي بفعالية».

ماذا جرى؟ لقد اكتشف المؤرخون، لدى نابوليون، تردداً مثيراً، وخاصة بعد معركة بورودينو. وقد عزاه بعضهم إلى زكام، وآخرون إلى البواسير التي يعاني منها الأمبراطور. ولم يخطر ببال أحد أن من الممكن أن يوجد نوع من تقاطع الطرق، وأن هذا التردد قد يكون من نمط تردد روبسبيير، عندما انتهى إلى اختيار أمر مضاد له ومفيد لإدانته.

عندما ندرس حياة نابوليون عن قرب، ندرك أن النضالات الخارجية المذهلة جداً التي كان مجبراً على خوضها باستمرار، قد تضاعفت بمعركة أخرى، صامتة هذه المرة، ليس فيها طرف آخر غيره هو نفسه. ونحن جميعاً نعرف بأية شجاعة وبأية عبقرية قام نابوليون بدوره كأمبراطور وكرجل دولة، وكيف أنه اندفع، بطبيعته المتّقدة المشبوبة، في دوّامات الثورة الفرنسية، وانساق مع الحركة التي حملته حتى عرش ملوك فرنسا. ونعرف كيف أصبح الضابط الصغير الآتي من فالانس[1] صهر أمبراطور النمسا، والند للملوك الذين كانوا يحكمون أوروبة في تلك الحقبة، والذين كانوا يرتجفون أمامه. ولكن عدداً قليلاً جداً تساءل كيف تفاهم، خلال هذه المغامرة العجيبة، مع إحساسه الخاص، وأية مجادلات جرت بينه وبين هذا الإحساس. لقد درست كثيراً حياته العاطفية، ومغامراته المتنوعة، وكتبت آلاف الصفحات عن حياته الخاصة، ولكن نادراً ما تم النجاح مع الاقتراب من الرجل كما كان حقيقة تجاه نفسه ووعيه، وفي اختراق أحجية مظهر خارجي بُني بقوة وعبقرية من أجل أسطورته.

إن الفشل، بعلاماته المميّزة، محفور منذ شباب نابوليون في مصيره المحتوم. لقد كتب هذا الرجل في شبابه، في مذكراته بتاريخ أيار ١٧٨٩ قائلاً: أي اندفاع يحملني على أن أرغب بتدمير نفسي؟ وما العمل في هذا العالم؟ والموت الذي ينتظرنا لا محالة، ألا يعادل الانتحار؟

ليست هذه الملاحظة عَرَضية فهو يعود إليها غالباً. فعند إلقائه خطاباً في أكاديمية ليون[2]، تناول فيه قدر الطموحين أمثال الإسكندر، وكرومويل[3]

---

(١) مدينة في إسبانية، فيها مرفأ على البحر الأبيض المتوسط.

(٢) مدينة في جنوبي فرنسا. مركز صناعي كبير وتجاري معروف. فيها جامعة شهيرة.

(٣) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) رجل دولة انكليزي. زعيم الثورة التي أطاحت بالملك ريتشارد الأول (١٦٤٩) على منصة الإعدام. وحل محله كرومويل وأعلن نفسه حامي بريطانيا.

(Cromwell)، وريشليو[1](Richelieu)... الخ، قال:

آه! أنا أشفق على المنكود الحظ. إذ سيكون موضع إعجاب وحسد رفاقه والأكثر بؤساً وتعاسة بين الجميع. فالتوازن مفقود. وهو يعيش تعيساً. آه! نار العبقرية! ألا نقلق، ذاك نادر جداً!... كم من السنوات تمضي دون أن تستثمرها الطبيعة! «إن الرجال العباقرة نيازك مقدر لها أن تحترق لتضيء عصرها». وقد أضاف مادلان (Madelin)، مؤرخ نابوليون الكبير، إلى هذا الكلام قائلاً: «ألا يمكن أن يقال إن الشاب، يناقش نفسه، بنوع من الشعور المسبق، حول هذه العبقرية التي ستحكم عليه، ذات يوم، ووسط إعجاب رفاقه وحسدهم، بالتلف، وبالاحتراق لإضاءة عصره».

وأضاف نابوليون لاحقاً، في الخطاب نفسه، عند متابعته الكلام على الطَمُوح المحدَث النعمة: قد يقوم بأمور جيدة! وهل هناك شيء أكثر تعزية للعقل من القدرة على القول: «لقد أمَّنْت للتو سعادة مئة عائلة! لقد اضطربت، لكن الدولة بخير، وتسير بشكل أفضل، وسيعيش أبناء وطني مطمئنين بفضل قلقي، إنهم سعداء بفضل حيرتي، فرحون بفضل همي وحزني». أهو المخلّص الفادي المقبل في جزيرة القديسة هيلانة الذي، قال منذ ذلك الحين هذه الأسطر التي خطها الشاب ذو العشرين ربيعاً؟

يبدو أن الطبيب الجنرال ر. برايس (R. Brice) قد أدرك جيداً هذا الجانب من المسألة. وطرح المشكلة المثيرة في كتابه **سر نابوليون**. لقد تأثر برايس بسلوك نابوليون المتناقض. إذ بعد نجاحه في فرض معاهدة صلح أميان (Amiens)[2] على النمسا وبريطانيا، وهي معاهدة رائعة سمحت له بإكمال إنهاض فرنسا في جميع الميادين، قام نابوليون بكل ما يستطيع للمجازفة

---

(١) الكاردينال ريشليو الشهير، رجل الدولة الفرنسي (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢)، رئيس وزراء الملك لويس الثالث عشر. أسس الأكاديمية الفرنسية.

(٢) عاصمة مقاطعة بيكاردي (Picardie) في فرنسا، تمّت فيها، عام ١٨٠٢، عقد معاهدة صلح بين فرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا، وهولندا.

بمآثره، بسعيه إلى الحرب التي تغلّبت في نهاية المطاف عليه وعلى جهوده. ولفهم ما كانت تمثله هذه الحرب الحمقاء من فشل لكل العمل البنائي الذي قام به بونابرت، ينبغي أن نستعرض الفعالية الرائعة التي انتهت بها.

لقد تميّز عمل القنصلية بإنهاض خارق لفرنسا. فالمعاهدة البابوية[1]، التي أُجريت رغم جميع العوائق، أوقفت انقسام النفوس في الميدان الديني، والإصلاح المالي وتنظيم مصرف فرنسا أعادا إلى البلد ثقتها في الميدان الاقتصادي. وقانون نابوليون، الذي تم إعداده خلال المناقشات العديدة بين نابوليون ومستشاريه، أثبت قيمته وبدا مسبقاً كعمل تجديدي ضخم في أبعاده ونافع في نتائجه وآثاره. ولم يعد ينقص سعادة فرنسا شيء إلا السلم والصلح. ومع معاهدة الصلح في أميان أعطى نابوليون كل دلائل عبقريته، وبرهن إلى أي حد يفهم روح الفرنسيين وحاجات بلده. وأخيراً فُتح أمامه هذا العهد من السلم الذي التمسه دائماً ليعمل في الهدوء والاستقرار، وليتيح نضج ثمار الإصلاحات العميقة التي عرفت عبقريته كيف تفرضها على بلد وصل إلى الفاقة الشديدة.

ولكن هذا السلم، بالتحديد، الضروري ليتيح لنابوليون النجاح، هو الذي توجّب على هذا الأخير المجازفة به، وقد وصف برايس، بعد أن تبين أن نابليون، قام لأسباب غامضة، بإفشال كل مبادرات بريطانية للسلم، حالة الأمبراطور وهو على وشك الاستسلام إلى أعدائه. وهذه هي ملاحظاته:

«لقد انتصرت بريطانيا، واستسلم إليها نابوليون دون شروط. فلماذا يظهر ثقة مثل هذه بعدوه الشرس؟كان بإمكانه أن يطلب ملجأ من حميه فرانز جوزيف الأول ملك النمسا، أو من صديقه القديم إسكندر، القيصر الروسي. وكان من الممكن أن يحاول الذهاب إلى الولايات المتحدة، إن كان قبطان دانمركي يعرض نقله إليها. إن هذا الحل الذي يتلاءم مع رغبته في حياة هادئة، بعيدة من الآن فصاعداً عن الأحداث السياسية يحمله على التردد. لقد ادعى أنه استبعده لأن المغامرة تبدو له خطرة. وكلمة «خطرة» لا تليق كثيراً عندما يتعلق

(١) تمّت هذه المعاهدة بين نابوليون والبابا بيوس (Pie) السابع في ١٥ تموز ١٨٠١.

الأمر بذاك الذي جابه قبل أربعة أشهر، بعزم كل مخاطر العودة من جزيرة ألبا[1] (Elbe).

لقد كان القرار بوضع نفسه بين أيدي البريطانيين القرار الوحيد الذي يستطيع نابوليون اتخاذه، ليس لأنه «يتلاءم مع المعنى الفني لمجده» كما قال جاك بانفيل بظرافة كبيرة، بل لأنه يتعلق، مثل أي رجل آخر، بقدره الداخلي».

فهل هذا القدر الداخلي هو الذي حكم على نابوليون، بشراسة، أن يكون في نهاية المطاف ضحية بدلاً من أن يكون منتظراً؟ ولنتذكر أنه كشف هو نفسه للحلفاء، في العام ١٨١٤، خطة الحرب، في اللحظة التي كان فيها على وشك رمي العدو خارج البلد إثر انتصارات مشهورة. لقد كتب، في هذه الفترة، إلى ماري لويز[2](Marie - Louise) أنه سيمضي للالتفاف نحو نهر الراين[3](Le Rhin)، بهدف جذب أعدائه إلى فخ نصبه لهم، وأنه يأمل كثيراً أن ينجح في ضربته. إن هذه الرسالة من الرجل الذي يعتنق مبدأ عدم البوح بأي شيء من خططه مهما كان، وخاصة إلى امرأة، قد سقطت بين أيدي النمساويين وسببت هجوم الحلفاء على باريس. لقد أحبطت خطة نابوليون نهائياً ووصل مع جيشه متأخراً أربع ساعات كاملة لإنقاذ العاصمة.

لقد صُدم العديد من الأشخاص بالسهولة التي استسلم فيها الأمبراطور إلى فشله النهائي. ففوجىء لاس كازس[4](Las Cases) بالخفة التي علم بها نابوليون، في مرسى بلايموس[5]، عام ١٨١٥، بنبأ إبعاده إلى جزيرة القديسة ـ هيلانة. وكتب

(١) ألبا جزيرة إيطالية صغيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق من كورسيكا، نفي إليها نابوليون أولاً في العام ١٨١٤.

(٢) ماري لويز الفتاة الثانية للأمبراطور النمساوي، وهي الزوجة الثانية لنابوليون بونابرت.

(٣) مقاطعة مكونة من جزء من منطقة الألزاس،وتقسم إلى قسمين الراين العليا والراين السفلى.

(٤) لاس كازس (١٧٦٦ ـ ١٨٤٢) مؤرخ فرنسي رافق نابوليون إلى جزيرة القديسة هيلانة ونشر الميموريال.

(٥) مرفأ عسكري في جنوبي بريطانيا.

في صحيفة الميموريال[1](Mémorial) : «واستعاد منذ تلك اللحظة (بعد اعتراض مبدئي) مظهراً هادئاً وحتى فرحاً، وانتقل إلى مواضيع بعيدة تماماً عن وضعنا».

وروى الكابتن مورتلاند دو بللاروفون (Mortland du Bellérophon) في مذكراته: «لم يكن ضجراً كما اعتقدت أنه سيكون. وعند العشاء، تحدث كالعادة، وفي الحقيقة، بعد هذه المحن، وهذه الخيبات، فوجئنا برؤية المرونة التي استعاد بها مزاجُهُ بشاشته المعهودة».

إن الفرصة ستسنح لنا للعودة إلى هذا الجانب من المسألة. أما الآن، فإننا نود أن نتفحص عن قرب أعراض الفشل في مشاريع نابوليون. يعلم الجميع أن نابوليون سعى مرات عديدة إلى الموت في المعارك، ويمكن القول إنها ليست غلطته إذا لم ينجح فعلاً في أن يودي بنفسه ونجد الأمر نفسه في بعض وُجوه الفشل التي يبدو أنه سعى إليها، دون التوصل إليها، لأن الأشياء في معظم الأحيان، وبشكل أعجوبي، تنتظم رغماً عنه، كما هي الحال مثلاً في عودته من مصر. إذ لولا طالعه السعيد، لكان ضاع مرات عديدة. ولعل هذا الطالع السعيد كان ضرورياً له لتحقيق نجاحات يبدو أنه كان لا يجرؤ، لاشعورياً، على فرضها على نفسه. وإحدى حالات النجاح هذه أو الفشل وليسمّها المرء ما يشاء، كانت معركة جسر مدينة أركولي[2](Arcoli). فالجنرال بونابرت، إذ أجبر على مقاتلة الماريشال النمساوي ألفانزي، بجيش قليل العدد بالنسبة إلى جيش عدوّه، إتجه نحو جسر مدينة أركولي ليبطل تفوّق خصمه، فهنالك يمكن أن تدور المعركة فقط في الطرق والحواجز الممتدة عبر بلد مليء بالمستنقعات. ويعطينا وصف المعركة الذي قام به مرجكوفسكي التوضيحات اللازمة لتقدير القيمة الحقيقية لـ«نجاح» بونابرت. إذ سنتبين منطقياً أنه كان ضائعاً خاسراً، فألفانزي كان متغلباً عليه، ومن المعجزات حقاً أنه لم يهلك في المستنقعات.

---

(١) صحيفة محاورات نابوليون بونابرت الأول مع لاس كازس سنة ١٨٢٣ في جزيرة القديسة هيلانة.

(٢) مدينة ايطالية.

لكن حسن طالعه، فضلاً عن الانطباع الذي أحدثته جسارة الجنرال الشاب المتهورة على عدوّه، وحدهما يسمحان بتفسير سبب قيام ألفانزي، ودون ضرورة عسكرية، بالتخلي عن رقعة دافع عنها بنجاح كبير.

وليس مثل هذا الأمر فريداً في قصة نابوليون، فمعركة مارنغو[1] مثال آخر على ذلك. جرت هذه المعركة ضد قوى الجنرال النمساوي ميلاس (Mélas)، وتم فصل نابوليون عن مؤخرة جيشه بعد أن اجتاز ممر سان برنار[2] المعروف أنه وعر ويستحيل على أي جيش عبوره. وهكذا وجد الفرنسيون أنفسهم مجبرين على التخلي عن مدفعيتهم، التي حجزت في شعاب الممر الذي دافع عنه حصن بار. وهكذا لم يكن بونابرت يمتلك، في صباح معركة مارنغو، إلا ٢٤ مدفعاً في مواجهة ٢٥٠ مدفعاً لدى النمساويين، و٢٥ ألف رجل تقريباً في مواجهة ٣٥ ألف رجل لدى عدوّه. صحيح أنه كان يستطيع انتظار العدو، كما كان مقرراً في خطته الأولية، في الشعاب خلف مارنغو، الأمر الذي يسمح للجيش الفرنسي بتعويض نقصه في العدة والعدد. ولكن بدلاً من التمسك بهذه الخطة توجه نابليون إلى ما بعد الشعاب، نحو مارنغو، فاصلاً عن جيشه الضعيف فيلقين يضمان ثلاثة آلاف رجل، أحدهما بقيادة الجنرال دوسيز (Desaix)، وأرسلهما في اتجاهين متعاكسين واحداً نحو الشمال والآخر نحو الجنوب، لمهاجمة النمساويين في حال قيامهم، بدلاً من سلوك الطريق العادية، بمحاولة الذهاب إما إلى الشمال وإما إلى الجنوب من مارنغو. وهكذا كان نابوليون مرغماً على أن يواجه، بالعشرين ألف رجل الذين بقوا معه، ٣٥ ألف نمساوي. وجرت المعركة في البداية كما يتوجب أن تجري عادة في مثل هذه الظروف. فضُرِب وخسر سبعة آلاف رجل من أصل عشرين ألفاً. وكان ميلاس واثقاً من النصر الى حد أنه اعتقد، وقبل نهاية المعركة، أنه يستطيع بكل اطمئنان ترك قيادة جيشه لأحد مساعديه، كي يستريح في ثكناته. وفي هذه

---

(١) مارنغو بلدة إيطالية انتصر فيها بونابرت على النمساويين سنة ١٨٠٠.

(٢) ممر سان برنار في جبال الألب بين سويسرا وايطاليا.

اللحظة فقط تغيّر كل شيء. فجنرال نابوليون دوسيز هذا، بعد مسيرة عدة ساعات، سمع دوي المدافع، فتوقف عن متابعة الزحف، الأمر الذي سمح لرسول نابوليون بادراكه، وإبلاغه قرار العودة إلى مارنغو، وهكذا عاد دوسيز مع فرقه المرتاحة نسبياً، واستطاع استئناف المعركة مساءً ضد مساعد القائد النمساوي، وبدّل ما يتعلق بهذا النصر في باريس، فهو نصر ضروري قطعاً لتقوية حكومة القنصل الأول ودعمها. وليس من الصعب أن يستخلص أن بونابرت، في يوم مارنغو، كان أمام فشل سياسي وعسكري، ولم ينقذه إلا الجنرال دوسيز الذي دفع حياته ثمناً لعمله الشجاع.

وفي حالة أكثر أهمية بكل تأكيد من هذه أيضاً، لم يَدُن نابوليون بانتصاره إلا إلى تدخُّل أخيه لوسيان (Lucien). جرى ذلك في الثامن عشر من برومير[1] (Brumaire). كانت استقالة سييس[2](Sieyès) ودوكو[3] (Ducos) وبارّا[4] (Barras) قد نظم الديركتوار[5]، وتوجّب تأليف حكومة جديدة، وإنشاء نظام جديد لم يبدُ ثورياً، وأن يعلن «ممثلو الشعب المنتخبون» ونواب المجلسين اقتراعهم لصالحه. إذ لم يكن من الصعب الحصول على موافقة الممثلين المنتخبين مادام الرأي العام معداً للديكتاتورية. وكان يكفي توقيف أربعين نائباً من اليسار المتطرف المعروفين بتأثيرهم المشوش، وتحجيم الرجال المتعصبين للثورة

(١) برومير شهر الضباب أو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية.

(٢) أمانويل سييس (١٧٤٨ - ١٨٣٦) سياسي فرنسي. عضو مهم في جمعيات الثورة الفرنسية وهيئاتها.

(٣) روجيه دوكو (١٧٤٧ - ١٨١٦) رجل دولة فرنسي، عضو في الجمعية الوطنية والديركتوار والقنصلية في الثورة الفرنسية.

(٤) بول بارّا (١٧٥٥ - ١٨٢٩) عضو في الجمعية التأسيسية وفي الديركتوار إبان الثورة الفرنسية.

(٥) حكومة المديرين في الثورة الفرنسية.

والفوضويـة الذين يفضلون الخـواء والبلبلة على سلطة يمكن أن تصبح خـطرة عليهم. وقد نصح سييس بتوقيف هؤلاء النواب لكن بونابرت رفض. وذكر لنـا الكاتب مادلان Madelin في كتاب عن صعود نابليون بونابرت ما يلي:

«ومع ذلك، كان سييس هو المحق، والمخطىء هو بـونابـرت، فقد كـان النواب الذين حافظ عليهم من أولئك الذين حاولـوا، في الغد، وضعـه خارج القـانون، آرينـا (Arena) ودستريم (Destrem) وغـرانميـزون (Grand maison) وبريو (Brio) والآخرين. أما ساليستي (Saliceti) النائب المتطرف حينئذ، الذي سيجده بونابرت في جميع منعطفات حياته، فقد قـام بجهد كبيـر لتهدئـة هياج إخوانه وأصدقائه؛ فقد أوكـل إليه نـابوليـون تلك المهمة، لكن سـاليستي كان متأخراً جـداً. فلم يهدّىء أحـداً، فهؤلاء الأشخاص المجتمعـون للتآمـر، قد نظّموا مقاومة عظيمة لكن الوضع والحالة النفسية لم يكونا متعلقين بالنسبة إليهم بالمحافظة مع مجلس إدارة جديد على النظام الذي يقال إنه دستوري: بل كان الأمر يتعلق ببساطة بإيجاد سيف يعارض سيف بونابرت، وبإيصال عسكري آخر إلى السلطة». نحو سان كلو حيث يجتمع النواب. ولم يكن أحد يعرف تمـاماً كيف ستجري الأمور. وأهمل بونابرت اعتماد خطة معدّة جيدة، وبدا أنه ينتظر نجاحه بشكل سلبي من جانب الإرادة الطيبة للمنتخبين أو من حسن طالعه. وقد وصف مـادلان جو المنـاقشـات التي انـدلعت والتي يتعلق بهـا مصيـر فـرنسـا ونابوليون فقال:

«اجتمع القدماء[1] أخيراً، ولكن بدوا هم أيضاً مضطربين، فغياب خطة لدى «البروميريين» ترك الاجتماعات عائمة. وتقرر إرسال رسالة إلى مجلس الإدارة لمعرفة إذا ما كان لا يزال موجوداً، فأجاب السكرتير العام للحكـومة، لاغـارد (Lagarde) وهو رجل تابع لسييس فوراً برسالة معلنـاً أن غالبيـة مجلس الإدارة التنفيذي قد استقالت، وينبغي التفكير في إنشاء حكومة جديدة. لكن القدماء

---

(١) مجلس القدماء إحدى الجمعيات التي شكلها الدستور في السنة الثالثة من الثورة الفرنسية.

لم يكن لهم حق المبادرة، فأوكلوا إلى مجلس الخمس مئة[1] أن يقترح عليهم بعض الأسماء.

باختصار، لقد فتشوا وبحثوا، لكن الوجوه انكسفت أمام بونابرت. ورغب هذا الأخير في الانتهاء من هذا الأمر، فترك سييس فجأة، ودون أن يقول أية كلمة، وتوجه إلى قاعة أبولون، فاستقبله القدماء هذه المرة بتعاطف وحسن الالتفات أكثر مما استقبلوه بحماسة. فصعد إلى المنصة، لقد كان من الواجب أن يحمل إليهم التأكيد أنه بصفته المسؤول عن القوى المسلحة قد اتخذ التدابير لخنق المؤامرة اليعقوبية الشهيرة، ولكنه إذ عاوده هذا الاضطراب الذي كان يرتهنه في الحقيقة كلما أراد الكلام بإسهاب أمام مجلس، أصبح أكثر إسهاباً أيضاً وأكثر ارتباكاً مما كان في الليلة الماضية في قصر التويلري[2] (Tuiliries)، فقاطعه نائب، معارض على ما يبدو صارخاً:

- والدستور؟

لكن الجواب كان هذه المرة سريعاً وصائباً إلا أنه في غير محله:

- الدستور، أنتم أنفسكم أهدرتموه، في ١٨ فروكتيدور[3]، انتهكتموه! وانتهكتموه في ٢٢ فلوريال[4]! وانتهكتموه في ٣٠ بريريال[5]!

---

(١) مجلس الخمسمئة إحدى الجمعيات التي شكلها الدستور في السنة الثالثة من الثورة الفرنسية.

(٢) قصر شهير سكنه ملوك فرنسا، تحيط به حديقة رائعة حُوِّلت إلى حديقة عامة.

(٣) فروكتيدور (Fructidor) الشهر الثاني عشر من السنة الجمهورية (من ١٨ آب الى ١٧ أيلول).

(٤) فلوريال (Floréal) الشهر الثامن من السنة الجمهورية (من ٢٠ نيسان الى ١٩ أيار).

(٥) بريريال (Prairial) الشهر التاسع من السنة الجمهورية (من ٢٠ أيار إلى ١٨ حزيران).

وفي الواقع لم تعد الديركتوار (حكومة المديرين) ولا المجالس على اختلافها تتمتع بعد الانقلابات الثلاثة هذه بأية صفة شرعية، ولكنه وجد نفسه في مواجهة النواب الذين أسهموا، ومن ضمنهم معظم أصدقائه، في انتهاكات القانون هذه أو استفادوا منها، لقد كان أخرق بلجوئه إلى الحقيقة بخشونة. وبردت حدة المجلس أيضاً من جراء ذلك، وبعد أن دافع عن نفسه بأنه ليس كرومويل، نزل عن المنصة واستطاع ملاحظة أن هؤلاء الرجال الشجعان لن يقوموا بأي شيء، وإنما يتوجب الذهاب إلى مجلس الخمسمئة. وينبغي، كما في أركولي، الانقضاض مباشرة على العدو، متعرضاً للخطر، ولكنه كان ملاحقاً في أركولي، وينبغي التحلي بقدر أكبر من الشجاعة للدخول إلى الأرانجري [1] (Orangerie) فأخذ بعض الرماة من الجسم التشريعي ودخل بغتة إلى الأرانجري. ولم يكد يخطو عشرين خطوة حتى تعين عليه التوقف مذهولاً أمام العاصفة التي أثارها ظهوره. لقد ارتفعت صرخات عنيفة من اليسار المتطرف: فليسقط الديكتاتور! فليسقط الطاغية! الخارج على القانون! وفي لحظة ثار عليه حزب المونتانيار[2] وهاجمه وأرهقه بصياحه. وكان نابوليون، كما هو معروف، قصيراً، نحيفاً، عصبياً أكثر منه كثير العضل، محاطاً بمسدسات الجيب، وبالتحديد بدستريم العنيف، فاعتقد للحظة أن هذا العملاق نصف السكران دائماً سيسحقه. وأحاطت به هذه الأثواب الحمراء الفضفاضة فأحس بالاختناق، لكن الرماة حرروه، وحملوه مغشياً عليه تقريباً، بينما تجمّع خلفه ثلاثون نائباً تقريباً، وهم مستمرون بالصراخ بأعلى أصواتهم: خارج على القانون، خارج على القانون؟

---

(١) حديقة قصر التويلري. يقصد قاعة الاجتماعات في ذلك القصر.

(٢) مجموعة ثورية كانت تجلس في المقاعد العليا من الجمعية التأسيسية وتقترع لصالح القرارات العنيفة.

وبدا لوسيان مرهقاً في مقعده، فقد كان هو أيضاً مهدداً من قبل هؤلاء الرعناء الممسوسين، فنزل إلى المنصة تاركاً الرئاسة لشازال (Chazal) الذي يثق به، وحاول الدفاع عن أخيه. لكنه كان، في المنصة أيضاً، مرهقاً، إذ انقضّ عليه المعادون وحاولوا انتزاعه منها؛ فتشبث بها وحاول أيضاً أن يتكلم، لكن صوته كانت مخنوقاً وسط الصخب والصياح المحيط به، وتبين برعب أنه بدلاً من تهدئة الجو، كانت الصرخات «خارج على القانون» تتضخم وتقوى. والنذالة، الخاصة بالمجالس السياسية، فعلت فعلها، وبعض الخائفين، كما يحدث دائماً، انضموا إلى الصائحين صارخين بصوت أقوى من صوتهم: خارج على القانون؟ لقد كانت تلك الصرخة صرخة ترميدور[1] (Thermidor)، الصرخة التي أودت بروبسبيير».

لقد بدا أن كلّ شيء قد ضاع، إذ كان لوسيان بونابرت رئيس مجلس الخمسمئة، ففهم لأنه أكثر اتقاناً للسياسة من أخيه أن هذه الصرخة: خارج على القانون! قد تختتم باقتراع ضخم، يتم في مجلس قلبه الجو السائد كلياً وأدارته أقلية من ثلاثين إلى أربعين رجلاً أفلتوا من النواب البروميريين. لذلك ينبغي بأي ثمن تحاشي هذا الاقتراع الضخم بنتائجه على بونابرت، المحكوم بأنه متمرد عاصٍ، فطلب مساعدة حرس المجلس، واعتلى جواداً، واندفع إلى جانب أخيه. ولكن لنترك الكلام لمادلان:

«لقد صرخ قائلاً: إن رئيس مجلس الخمسمئة، يعلن لكم أن الأغلبية الساحقة في هذا المجلس هي الآن معرضة لإرهاب بعض الممثلين المسلحين الذين يحاصرون المنصة، معرضين زملاءهم للموت، وقد أثاروا التداولات الأكثر شناعة. إنني أعلن لكم أن هؤلاء الأشرار الجريئين المدفوعين بلا شك من بريطانيا (هذا هو أسلوب ١٧٩٣) قد تمردوا على مجلس القدماء، وتجرأوا على القول بوضع الجنرال المكلف بتنفيذ قراره، خارج القانون. إنني أعلن

(١) ترميدور الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية.

لكم أن هذا العدد الضئيل من المشاغبين المتمردين قد وضعوا أنفسهم بأنفسهم خارج القانون بتعدياتهم على حرية المجلس. وأنا أعهد إلى المقاتلين بالسهر على تحرير الأغلبيـة من ممثليهم. أيها الجنـرالات، وأنتم أيها الجنـود، أنتم جميعاً أيها المواطنون، لن تعرفوا بمشرِّعين في فرنسا إلا أولئك الذين سيسيرون بالقرب مني. أما أولئك الذين سيصيرون على البقاء في الأورانجري، فليطردوا بـالقوة! إن هؤلاء الأشـرار لم يعودوا ممثلي الشعب، بـل هم ممثلو الخنجـر! وكأنما لانتزاع آخر شـك من رجال الشـرطة الجمهـوريين الذين استـدعاهم، سحب سيف الجنرال نفسه من غمده، موجهاً رأسه إلى صدر نابوليون، مقسماً بحركة مستعـارة من المسرح بـ «أن يثقب هـذا الصدر إذا شعـر لحظة أن قلب طاغية يخفق فيه»!

وجـاء الجواب فـوراً إذ ارتفعت صرخـة طويلة عـالية من صفـوف شرطـة الجسم التشريعي الذين كانوا محتارين مترددين حتى هذه اللحظة، لقـد قرروا الآن تحرير الممثلين الجيدين من الأشرار الذين يضطهدونهم».

لقد أُنقِذ نابوليون، وكان ذلك الإنقاذ رغمـاً عنه. ونحن استشهـدنا بهـذا النص الوصفي التفصيلي الذي كتبـه مادلان لأنـه يتيح لنـا أن ندرك بكثيـر من الواقعية الطريقة التي توصل بهـا نابـوليون إلى جعـل الظروف مضـادة له يـوم إمساكه بالسلطة، وكيف أن تدخُّل أخيه وحده هو الذي أتاح إعادة إصلاح كل شيء.

مذا نستنتج؟ أيمكن الافتـراض لحظة واحـدة أن رجل التـاسع عشـر من بروميير قـد تصرّف بعـدم خبرة أو بنقص في الـذكاء، وأن هـذا الجنرال الـذي برهن، خلال غزو إيطاليا أو مصر، مرات عديدة، عن مهارته الخارقة فضلاً عن قدرة القرار والحسم، لم يكن بمستوى الوضع؟ أليس من الأصح أن إحسـاسه الخاص الذي رفض اتباعه في طريق صعوده. هو الذي لم يسمح له بالنجاح في ١٩ بروميير إلا بشرط أن يتحمل المسؤولية شخص آخر غيره؟ أليست هذه القوة الداخلية (أناه المتفوق) هي التي قطعت عليه الـطريق واختلقت الأسلحة التي

يجب على الأثر أن تهاجمه وتفتك به؟ إننا نستطيع أن نطرح على أنفسنا هـذه الأسئلة، ونفترض ذاك الافتراض، وخاصة عندما يبدو أن هذه القـوة تستخدم أشخاصاً مثل جوزفين[1] وتاليران[2] لخيانته، ولجعله هزأة ولتدميره.

لقـد تساءل الكثيـرون في معظم الأحيـان، عن الهـوى الـذي كـان يشـد بونابرت الشاب إلى امرأة مثل جـوزفين التي كانت بـاعترافهـا الشخصي ذات «برودة مؤيسة» معه، وكانت تخونه بمعرفة الجميع مـع ضابط شـاب وسيم هو إيبوليت شارل الذي استخدمته، فضلاً عن ذلك في أعمال مربحة. لمـاذا كل هذه المراعاة لامرأة قبلت من أجل فوشيه[3] أن تخونـه لقاء ألف فـرنك يـومياً، والتي كـانت شريكـة للصـوص الـذين نهبـوا الكنـز الـوطني؟ وكيف استـطاع بونابرت، الخارق الذكاء، والشديد الوضوح والبالغ الدقة والصفاء في أحكامه على الأشخـاص والأشياء، أن يتقبـل إلى جانبـه زوجة تخـونه بقيـامها غـالبـاً بمساعدة أعدائه؟ ألم يقل في جزيرة القديسة هيلانة أن جوزفين كـانت المرأة الوحيدة التي أحبها، هو الذي عرف الشابة النـاعمة دزيـريه كـلاري (Désirée Clary)، خطيبته الأولى التي وجدت نفسها في مواجهة هذا الإخلاص الأنثوي المطلق الذي جسدته ماري فالفسكا (Waleswka). فهل تعطينا الجواب، القصة القصيرة التي كتبها عن كليسـون (Clisson) بونـابرت الشـاب؟

---

(١) جوزفين هي أرملة الفيكونت بوهارنية تزوجت من نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٦ الذي أصبح أمبراطوراً ثم طلقها سنة ١٨٠٩ م ليتزوج ماري لويز.

(٢) تاليران (Talleyrand) (١٧٥٤ ـ ١٨٣٨ م) رجل دولة فرنسي، دعم الكنيسة الدستورية واعتنق المبادىء الجديدة، وكان وزير الشؤون الخارجية في عهد الديركتوار والأمبراطورية.

(٣) جوزيف فوشيه (Fouché) (١٧٥٩ ـ ١٨٢٠) سياسي فرنسي، عضو في الجمعية التأسيسية ثم وزير الشرطة في عهد الأمبراطورية.

كانت زوجة الكونت بوهارنيه الذي أُعدم خلال الثورة الفرنسية. وكانت ستُعدم هي أيضاً، ولم تفلت من هذا المصير إلا بفضل سقوط روبسبيير. فكانت إذاً إحدى الناجيات من النظام القديم الذي قضى عليه النظام الجديد الذي جسّده ومثّله نابوليون. ويبدو أنها أحبت زوجها الأول، الرجل الأنيق، ولكن المختل العقل والعابث الذي اعتبر المرأة الشابة التي فرضتها عائلته عليه، قروية صغيرة يثقلها المجتمع، وحاول بكل الوسائل التخلص منها. وقد أنجبت منه ولدين: أوجين (Eugène) واورتانس (Hortense) لكنها بعد الكثير من خيبات الأمل، انتهت، قبل نشوب الثورة، إلى الانفصال عن زوجها. وقد حرمتها الأحداث من المبلغ الذي يدفعه لها آل بوهارنيه ومن مكانتها. ولمجابهة ضروريات الحياة القاسية فتشت عن حماة قادرين، وعاشت مغامرات عدة إحداها مع هوش[1] (Hoche). وتنقّلت بسهولة من رجل إلى آخر، وأصبحت في نهاية المطاف عشيقة لبارّا عضو حكومة المديرين نفسه الذي اكتشف بونابرت وأطلقه. وقد عرّفها بارّا عليه، وأقنعها بأن تصبح زوجة هذا الجنرال الشاب الكورسيكي الذي اعترفت أنها لا تحبه، ولكن وضعه يعد بأن يصبح لامعاً.

والتتمة معروفة، على الأقل في خطوطها الكبرى، ولكن هناك مجموعة من التفاصيل لها أهميتها، وينبغي أن نأخذها بعين الاعتبار عندما نرغب في دراسة طبيعة العلاقة بينهما عن قرب. لم يدعُ نابوليون أفراد عائلته إلى زفافه، ووصل هو نفسه إلى قاعة الاحتفال به متأخراً، ولم تحدد جوزفين عمرها الحقيقي في عقد الزواج، ولم يفعل هو أيضاً ذلك. ويسمح كل هذا، عند الاقتضاء، بتفسيره بزواج عقلي أو زواج مصلحة. ولكن ما سبب هذه الرسائل المولّهة التي خطها بونابرت إلى جوزفين؟ أهو الحب المستحيل الذي يتكلم، الحب الذي يستنفد في خسارة صافية والذي يحتاج لكي يوجد إلى عائق، إلى فشل، إلى خيانة؟ ألم يكن بونابرت يشعر أنه في أحسن حال إلا أمام شريكة هاربة من الحب؟ ما هي الطبيعة الحقيقية لعلاقاتهما؟

---

(١) هو لازار هوش (١٧٦٨ ـ ١٧٩٧ م)، جنرال فرنسي. أخمد الفتنة في مقاطعة فانده.

لقد رأينا في الفصل الذي تكلمنا فيه على الحياة الجنسية، كم كانت الأشياء معقدة في هذا الميدان. ونعرف أنه لا يكفي أن يدّعي شريكان أنهما متحابان لكي يكونا قادرين على النجاح بشكل طبيعي في الفعل الجنسي. ولا نستطيع، فيما يخص بونابرت وجوزفين في نسق الأفكار هذه إلا تقديم بعض الافتراضات. وما نعرفه عنهما يسمح بالتأكيد أن الرجل الذي يعنى بقهر إحساسه يجعل من نفسه عدواً شرساً لكل عفوية طبيعية. لقد روى لنا، في مذكراته، قصة لقائه الأول بفتاة شابة أمام الباليه - رويال[1]، فقال: لقد تكلمت معها، أنا المقتنع أكثر من أي فرد آخر بقبح حالها، وأعتقد أنني دُنِّست من جراء نظرتها وحدها. لقد كانت فتاة مسكينة، روت له بكل بساطة تعاساتها، فتبعها، ولم يحتفظ من هذه المغامرة إلا بالقرف والاشمئزاز، أما قصصها، وحياتها البائسة فلم تترك في ذاته أية ذكرى أو شعور بالرحمة أو حتى شفقة إنسانية.

ونعرض في ما يلي بعض خواطر نابوليون بونابرت الشاب عن الحب، بشكل حوار:

- سيدي، كيف يكون الحب؟ آه، ماذا ألست مكوّناً مثل الرجال الآخرين؟

بونابرت: أنا لا أسألك تعريف الحب. فقد كنت في ما سبق عاشقاً، وبقي لي منه ما يكفي من الذكريات كي لا أحتاج إلى هذه التعريفات الماورائية التي لا تقوم أبداً إلا بتشويش الأشياء. وأعرض عليك أكثر من رفض وجوده. وأعتقد أنه مؤذٍ ضارّ بالمجتمع، بسعادة الناس الفردية، وأخيراً، أعتقد أن الحب يسبب أكثر من سوء... وستكون نعمة من الإلّه الحامي أن يحررنا منه وأن ينقذ العالم منه...

---

(١) قصر الباليه رويال (Palais - Royal) بني عام ١٦٢٩ للكاردينال ريشليو وأصبح مسكناً لدوقات أورليان.

مع هذا الموقف من الحب، نفهم أن بونابرت الشاب لم يكن إطلاقاً مستعداً للاقتراب من المرأة بشكل يختلف عن الاقتراب من الخطر. ولكن، إذن، ما هو موضوع هوى الرجل الشاب، بماذا كان يحلم، بأي نوع من اللذة يمكن أن ينغمس؟ لقد أجاب بونابرت دون تردد: النوم والمخ مملوء بأمور الدولة، والقلب متأثر بالأشخاص المحترمين الذين يشعر بأسف صادقٍ لتركهم (باولي)، هذه لذة تعرفها القلوب الكبيرة. واعترف لنا نابوليون في صحيفة المموريال: «عندما جمعت من فرط التعفف ريالين وست ليرات، توجهت وأنا فرح كالأطفال نحو حانوت بائع الكتب القائم قرب المطرانية. وكنت غالباً أزور رفوفه ممتلئاً بخطيئة الحسد! وكنت أشتهي الشراء لوقت طويل قبل أن يسمح لي كيس نقودي بذلك. هذه هي أفراح شبابي وفجوره».

ومع ذلك، هناك اعترافان لم يقم بهما نابوليون بالكلام بل بالأفعال، اعتراف خان روحاً شغوفة تمضي اندفاعاتها في اتجاه يختلف عن الاتجاه المؤدي الى المرأة. فما كاد يتزوج حتى انطلق إلى الجبهة في إيطاليا. واندفع في المعركة التي لا ترتكز فقط على قهر العدو بل على السيطرة على جسده الخاص الذي تأكله المرض. كان الهدف الانتصار على مصائبه لينصر الناس المساكين الذين تبنّاهم من كل قلبه، والذين يريد أن يقودهم إلى النصر. وإذا وضعنا في الميزان الساعات التي أمضاها نابوليون في صحبة جوزفين، والساعات التي أمضاها في المعسكر مع رجاله، ولاحقاً خلال عهد القنصلية مع مستشاريه في مجلس الدولة أو مع وزرائه، فلن يبقى شيء كبير للنساء.

امرأة واحدة فهمت أخيراً كل هذا. إنها ماري فالفسكا التي نجحت، بعد مئات الجهود غير المجدية، في الانضمام إلى الأمبراطور في جزيرة إلبا. لقد اصطحبت معها إلى الجزيرة ابنها ألكسندر، آملة أن والد الطفل، أي نابوليون، سيدرك كل ما هي مستعدة لتقديمه إليه، الآن إذ لم تعد قائمة سلطةُ الدولة وواجبها لكي تفصل الرجل عن امرأته. لكنه لم يرد أن يفهم شيئاً. وتابع التذرع بماري لويز وملك روما، ومع أنه سليم من حيث الشكل، فقد قابل ماري برفض فظ بقدر ما هو جائر ومذِلّ ومهين. وهذا ما قالته عنه في صحيفتها، ونشر

الكونت أورنانو بعض المقتطفات منه: «ولكن إذا كنت قد شاهدت الأمبراطور مجدداً، فقد كنت في عذاب، لقد أذلني غاية الإذلال. فكل هذه التحفظات وانتقاله منذ أن علم أنني سآتي، وهذا الانتظار الذي فرضه علي في الباخرة حتى حلّ الظلام، وهذا النزول الخفي من المركب الذي أرغمني على القيام به - كل هذا لماذا؟ لكي لا تعلم الأمبراطورة بزيارتي... لقد سخرت من ذلك كثيراً، هذا ما حاولت قوله له. إنها زوجة سيئة وأُم سيئة! ولو لم تكن هذه أو تلك، لكانت هنا. لقد فكرت بذلك كما كتبته.

إن مشاعري نحوه ثابتة لا تتبدل. وأفهم العديد من الأشياء التي لا يفهمها أقرب أقربائي وأفضل أصدقائي. ولا أفهم مثلاً لماذا قبلني في جزيرته إذا كان يتوجب عليه التظاهر بعدم التحدث معي قط كما في السابق. ها هو إذاً يستعيد احتراسه من النساء».

ولنضف إلى ذلك ما قاله الطبيب الجنرال ر. برايس:

لقد كان لنابوليون عشيقات كنَّ جميعهن مصنفات. عددهن قليل. ويمكن للتاريخ الفضائحي أن يتلذذ بإعطاء أسماء القارئات[1]، والوصيفات والممثلات اللواتي اجتمعن به في السرير. ويتوجب على التاريخ غير المسهب تجاهلهن. وينبغي عدم خلط الشعور الذي يتملك الرجل بنزوات رغبته الجسدية. فمعظم عشيقات نابوليون كنَّ لفترة مؤقتة. فالعلاقة مختصرة، وفي أغلب الأحيان لمدة وجيزة فريدة. ولم تتجاوز قط الوقت الذي خصصته لها التسلية الأمبراطورية، ولم يركز عليها ويطيل المكث عندها قلبه أو فكره. وكان تأثير هؤلاء العابرات في مصيره معدوماً. وفضلاً عن ذلك كان يتخفى من أي تعدٍ أو تطاول، ولم تكن أية واحدة منهن تجرؤ على التفكير في ذلك. وكانت الفتيات الأكثر اطمئناناً يرتعشن ويرتجفن عند حصول مداعباته وملاطفاته.

---

(١) يقصد بالقارئات الفتيات اللواتي يقرأن للعظماء ما يريدون من قصص أو رسائل أو ما شابه.

أما الوحيدة التي يمكن ذكرها فهي البولونية المثيرة الآنسة فالفسكا. فقد كانت تهب نفسها دون أي حماسة للحبيب، لذاك الذي كانت ترى فيه محرر الوطن وبعد أن تهب نفسها تتولع به، لقد كانت صغيرة السن ـ ثمانية عشر عاماً ـ لطيفة ورقيقة وناعمة. وقد أحبها نابوليون بحنان، لكنه اكتفى بإنجاب طفل وتقديم المال الذي لم تقلق بشأنه زوجته البولونية، كما كان يدعوها. إن قصة الكونتيسة فالفسكا هي قصة تضحية كئيبة وغير مجدية. ولكي يضمن نابوليون لنفسه صداقة القيصر اسكندر الخدّاعة تنكّر للوعود التي قطعها في لحظات العفوية. ولم تكن الأميرة النبيلة ماري فالفسكا بأكثر حظاً من إليانور دونويل (Éléonore Denuelle)، المتآمرة التي كانت تقدم عقارب الساعة لتقصّر مدة المعانقات التي تسخّر فيها، والتي ولد منها كونت ليون المزعج.

لم يخضع نابوليون أبداً للشهوة. فقد قال: «إن النفوس الكبيرة تدفعها بعيداً كما يتحاشى الملاحون صخور البحر». وكانت رغبته الملحة تخمد غالباً من تلقاء نفسها وقبل أن يحصل على وقت الفراغ الضروري لإشباعها وإرضائها. وكان يقنع بلذة قصيرة بسيطة وكان يرتضي بسهولة حرمانه منها».

ولم يتردد برايس، نتيجة لهذه الملاحظات، في التأكيد أن نابوليون «كان حذراً من المرأة». «فكان يخشى من عقليتها المتآمرة ومن مكرها الذي يشعر تجاهه أنه أعزل مجرد من السلاح. وكانت قوته تقلق من ضعف دقيق إلى هذا الحد. وكان يرى في المرأة العدو الأكثر خطراً لأنها تسعى، هي أيضاً إلى السيطرة التي يسعى إليها الرجال»..

وأضاف برايس أيضاً في هذا الشأن: «إن المرأة الخدّاعة المغناج هدفها الوحيد هو إخضاع الجنس القوي، الرجل، لذلك كانت تبدو له عدواً ينبغي عليه حمله على الخضوع. فكان يأخذ على هذه ذراعيها الطويلتين، ويأخذ على تلك تسريحتها المنحرفة، وعلى ثالثة ذوقها الرديء في اختيار ثيابها. ولكي ينتزع من الفاتنات كل وهم يخالجهن عن قوّتهن، كان يلهو بلعب دور الوغد النذل. فكان يروي لهن خيانات أزواجهن أو أحبابهن. فهل كان يعطيهن

دروس التواضع الفظة هذه بسبب رعونته وخَـرَقه؟ لقد كان يذكّر المرأة بأن من الواجب عليها أن تكتفي بدور ثانوي يتناسب مع دونيتها. وأكدت هذا التفسير مونتولون (Montholon) فقالت: «إن الطبيعة الاستبداديّة الخاصة بنابوليون كانت تنظر بشكل سيّىء إلى التأثير الذي تمارسه النساء في المجتمع».

إذاً كان نابوليون محقاً فعلاً عندما أعلن أن شهواته وفجوره كانت من نمط مختلف عن شهوات وفجور الرجال الآخرين. وحافظ على ذلك طوال حياته، مع أنه كان يستطيع القول، بعد بضع مغامرات، إنها ربما لم تكن إلا تجارب عاطفية مخصصة لخداع نفسه. إذ كيف كان يستطيع الشـك في أن حذره من النسـاء، اللواتي كـان يخلط، على الأرجـح، بينهن وبين الفضيلة، يمكن أن يكون نتيجة قلق وشعور عميق بالذنب، يمنعانـه من أي تراخٍ طبيعي. وكيف يعتقـد أن ما يشكّـل بالتحـديد قـوّته، وحـاجته إلى الانتصـار على كل أنـواع الضعف، وهذه الضرورة للنضال دائماً، من دون هدنة ومن غير انقطاع، يمكنها أن تكون نتيجة لنوع من العجز لا يسمح له بالتعلق بالنساء إلا بشكل عابر، أو من بعيد، لكي يفلت بهذا الشكل من الحب بتحويله اللذة إلى فعل مختصر، بـلا غد، كمـا يلاحظ ذلـك في بعض حالات الإراقـة المبكرة. أكـانت امرأة تقاومه؟ لقد كان يحقد عليها، لأنه لا يستطيع التخلص منها ومن الحب الذي يخشى أن يقهـره، مباشـرة، وبتشفٍ سريـع. وكانت اللقـاءات الأولى بماري فالفسكا، التي نعرف بعض تفاصيلها بوساطة مذكرات هذه البولونية مثالية بهذا الخصوص. إذ وجد نـابوليـون نفسه أمـام امرأة تعتبـره حلمها، ولم تكن على الأرجح تطلب أكثر من أن تهبه نفسها، بشرط أن يتصرف معها حسب الأصول. والحال أنه عاملها بخشونة، لذلك نحس بوجود نوع من الاغتصاب، ولـم يتغير قليلاً إلا لاحقاً، بعد أن تغلبت عليه فتنة حبيبته وروعتها، مع عدم استطاعته أن لا يفر منها كما فر من خطيبته دزيريه كلاري لأسباب مماثلة على الأرجح.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن هناك ما يخشاه مع نساء مثـل جوزفين. فمثله مثل الغبي الأبله الذي لكي لا يخاف من أن يبتل بماء المطر، يرمي بنفسه في الماء. إنه الهرب إلى الأمام، بكل تأكيد، وهو هـرب نموذجي لـدى بطل

معركة أركولي عندما يشعر بالخوف. وها هو يبوح بنفسه بما يلي: كانت جوزفين تميل إلى الترف بشكل كبير، تميل إلى الفوضى، إلى التراخي في الإنفاق، وهي أمور طبيعية لدى المولّدين في المستعمرات. لقد كان من المستحيل عدم تحديد حساباتها، ومصروفها. فكانت مستدينة دائماً. وكانت المشادّات والمجادلات الكبيرة، على الدوام، تندلع عندما تحين لحظة تسديد ديونها. وظلت على هذه الحال حتى ذهابي إلى جزيرة ألبا حيث جاءتني مذكرات جوزفين من كل أنحاء إيطاليا لتنقض عليّ. وهناك بُعد آخر مميز لجوزفين وهو إنكارها الدائم. ففي بعض اللحظات التي كانت تجمعنا، وعند بعض الأسئلة التي أطرحها عليها، كانت حركتها الأولى هي النفي. وكلمتها الأولى هي لا.

وقال لغورغو (Gourgaud) في جزيرة القديسة هيلانة: كانت جوزفين تكذب دائماً تقريباً، ولكن بلباقة. إنني أستطيع القول إنها المرأة التي أحببتها أكثر. ووصفها برايس على الشكل التالي:

«ولقد كان بإمكانها الظهور كمخلصة، والبقاء كتومة، والتظاهر بالسذاجة، والبراءة والكذب، وحتى الإجهاش بالبكاء، إذا كان من المفيد سكب الدموع، وتصنّع الاحتشام والخفر، والاحتجاجات، وعند الحاجة ممارسة الغرام لأنها تعلمت إغواء الرجال دون الانخداع باللعبة».

وبعبارة أخرى، كل شيء في مشاعر هذه المرأة، كان مزيفاً ومخصصاً للخداع ولهذا ربما كانت شريكة مثالية لنابوليون، الشريك القادر على التظاهر بالحب دون أن تكون المسألة مسألة محبة. وعندما لا يكون هناك من الحب إلا المظهر الخارجي، فمن غير المجدي والمهم الهرب منه، لأنه ليس هناك أي خطر. ومع ذلك كان لجوزفين شغف ما، وربما، في هذه النقطة، لديها شيء مشترك مع بونابرت. فهي مثله تحب التبختر والإغواء والانتصار، ليس بالأسلحة، بل بالحلى والمجوهرات، بالتبرج والتزين، رموز القدرة الكلية. «لقد اشترت، كما قال برايس، دون حساب، وخاصة دون حاجة، ما كان

يعجبها. وكان لديها حوالى ست مئة فستان في آن واحد. وهذا الإسراف دمّرها إذ لم تأخذ حذرها من ذلك. وكان يبدو لها مستحيلاً العيش دون الاستدانة. ولم تنجح إنذارات نابوليون وتعنيفاته التي كان يرددها غالباً، أبداً في إصلاحها. وكانت تتذرع برغبتها الصادقة في إطاعته، لكنها لم تفعل من ذلك شيئاً».

وذكر روجيه ريجيس (Roger Régis) في روايته التاريخية عن الأمبراطورة جوزفين أنها كانت تحب المجوهرات بشغف، وخاصة الألماس؛ وكانت تخرج أحياناً مع صديقتها الحميمة كل هذه الكنوز من علبها لتلمسها، لتداعبها، لتكدسها وتلعب بها. وعندما يتوجه الحب في هذا الاتجاه لدى امرأة، لا يبقى أي شيء للرجال، المعتبرين حينئذ في نظرها كأدوات لإرضاء هوى لا علاقة له بالحب.

ومع ذلك انتهت جوزفين إلى التعلق بنابوليون؛ وقد برهنت له عن ذلك عندما كانت على وشك أن تفقده بعد أن تقرر الطلاق. ففي هذه اللحظة، ربما كلاهما، من جراء الحب شعر بالحسرة التي خلقها الانفصال. فبكى نابوليون كما بكت جوزفين؛ وانزوى طوال ثلاثة أيام في تريانون[1] (Trianon) عاجزاً عن القيام بأي عمل.

أكان ينبغي أن يحب جوزفين التي طالما سخرت من حبه؟ أم إنه كان يخاف للغاية أن يجابه الحياة بدونها، مجرداً من الملهاة التي كانا يمثلانها معاً، أم كان يخاف من مواجهة الحرية التي لا يعرف على الأرجح ما يفعل بها؟ زد على ذلك أنه بعد الطلاق واستعادة حريته، نراه بدلاً من أن يختار امرأة مثل ماري فالفسكا، الحامل، في تلك الفترة بابنه ألكسندر، يفضل القيام بملهاة غرامية أخرى مع ماري لويز شريكته الجديدة، وسيمثل هذه الملهاة، هذه المرة، حتى موته، رافضاً أن يرى الحقيقة، لأنه لم يرغب قط في الاعتراف بأن ماري لويز قد تركته وتبرّأت منه. لقد ماتت الأمبراطورية المخلوعة في العام

(١) تريانون قصر مبني في حدائق فرساي.

١٨١٤ م، وماري فالفسكا، بعد الإهانة التي عانتها في جزيرة ألبا، قبلت الزواج من الكونت أورنانو (Ornano). ولحظة القرار الكبير، قبل الذهاب على متن بارجة بلليروفون (Bellérophon)، كان نابليون وحيداً، بدون حبيبات وبدون حب. أكان يفضل أعداءه لو استطاع القبول بأن حباً يمكنه أن ينقذه؟ ألم يكن سيختار سبيلاً آخر لو استجاب لنداء امرأة مثل ماري فالفسكا؟

إن سعادة سلام دائم كانت متعذرة أيضاً على نابوليون، المرغم دائماً على التصلب للسعي إلى المجابهة مع أعدائه بدلاً من التراخي مع أصدقائه. وكان النقص في التراخي يميز كذلك مائدته، الأمر الذي يخلق جواً شاقاً متعباً. لقد كان نابوليون يلتهم بسرعة وبطريقة شرهة بعض اللقم من أكلة ما، ثم ينهض من مكانه إلى المائدة قبل أن يبدأ مدعووه بتناول الطعام. فكانت تُقدَّم إليهم أطباق شهية ثم ترفع برشاقة وخفة، دون أن يجدوا الوقت للمسها. ونجد الحرمان نفسه في الاستسلام للنوم بشكل طبيعي. فقد كان نابوليون معتاداً على العمل إلى وقت متأخر من الليل والليل كله أحياناً، وكان يفرض هذا النظام على مساعديه، المرهقين عادة من العمل معه، وهذا ليس قولاً بسيطاً عندما يتعلق الأمر برجال ذوي حيوية استثنائية مثل حيوية جنرالاته أو أعضاء الجمعية التأسيسية القدامى، الذين أصبحوا أعضاء في مجلس الدولة.

إننا نفهم الآن أن شغف نابوليون كله كان موجهاً نحو ما يصنع قوته ومجده. وهكذا طوّر قدرة إغرائه، وفنه في إغواء الرجال، وفي التعلق بهم والسيطرة عليهم. ولنقرأ بهذا الخصوص بعض المقتطف من سيَر حياته لنقتنع بذلك. وهذا ما قاله عنه مانفال الذي عمل سكرتيراً له مدة طويلة:

«إن دراسة القلب البشري قد علمته فن اجتذاب الرجال والسيطرة عليهم. إذ كان حضوره وكلامه يثيران الحماسة. وكانت بلاغته متوثبة وسريعة، وكلماته حازمة نشيطة وعميقة وغالباً متسامية جليلة. ومظهره بسيطاً، لكن تكسبه رفعةً سمةُ العظمة واعتياد القيادة، وسحر نظرته التي يتغلغل تعبيرها العطوف والصارم إلى أعماق القلوب، يوحي باحترام ممزوج بالخشية والمحبة. ولم يعرف

التاريخ قائداً أكثر شعبية منه».

وروى نابوليون نفسه للدكتور أوميرا (O'Meara)، وهو طبيب في الجيش البريطاني كان يعالجه: «في حملاتنا، كنت معتاداً على المسير على حدود المعسكرات، وكنت أقف قرب جندي بسيط، أحادثه، أضحك وألهو معه. لقد كنت دائماً أعتز بكوني رجل الشعب».

واستخرج تَيْن[1] (Taine) هذه السمات التي تميز طباع نابوليون في الصورة التي قدمها عن الأمبراطور فقال: خشونة، وفظاظة في العادات، وابتذال في المزاح العابر عند هذا العسكري، ثم عودة إلى الطيبة والسذاجة والإلفة والمداعبات اللغوية، فن كامل من السحر والإغواء».

أما الدكتور كابانيس (cabanès) فقد قال في كتابه المهم عن نابوليون: **في الحياة الخاصة للأمبراطور**: «لقد كان معتاداً، في المعارك والاشتباكات أن يأخذ مكانه على ربوة، ليس لكي يرى بشكل أفضل، بل لكي يراه جيداً جميع الأفواج والفيالق المقاتلة عند خط النار، ومن بعيد، لم يكن بالمستطاع تمييز سمات وجهه ومعالمه، ولكن تُرَى حركة يديه، منهمكاً، ذاهباً وآتياً من اليمين ومن الشمال، مشيراً إلى ضباط مجلس القيادة، مشدداً بحركة سامية على دقة الأوامر.

لقد كان يبدو دائماً ممثلاً كبيراً، وهو بهذه الصفة لم يكن يحتقر أية وسيلة من الوسائل، حتى الوضيعة منها، التي يعرف أن من شأنها أن تكسبه التعاطف والجاذبية وثقة أولئك الذين يدعي أنه يفتنهم السحر، الأخذ بمجامع القلوب، والترويع عند الحاجة، في كل هذه الأمور، لم يكن أحد قادراً على مجاراته».

وهذا ما كتبه الجنرال الروسي دراغوميروف بخصوص قدرته على سحر الآخرين:

---

(١) إيبوليت تَيْن (١٨٢٨ - ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ فرنسي اشتهر له كتاب «أصول فرنسا المعاصرة».

«لقد كان نابليون يطبّق، بشكل مــــا،طرق الإيحـاء التي دخلت اليوم في الميدان العلمي. وكان يقوم بذلك كل يوم تقريباً، أمام الجميع. ولدعم رأيه، يستشهد دراغوميروف بهذين الحـادثين: في فريـدلاند[1] (Friedland)، عنـدما أصدر الأمبراطور الأمر الى القائد ناي (Ney) لمهاجمـة الجناح الأيسـر لجيش العدو، أمسكه من ذراعه، وأسرَّ إليه بتوصياته ونصائحه، وإذا استعملنـا تعبيراً مبتذلاً، لكنه شديد التعبير نقول «بين اثنين لا ثالث لهما»، ثم في اللحظة التي تركه ناي وانطلق، صرخ نابوليون موجهاً حديثه إلى من يحيط به، وبصوت عالٍ لكي يسمعه ناي: «انظروا إلى ناي، إنه الآن أسد» ولنتذكر أيضاً ما قاله سيغور (Ségur) عن مسلك نـابوليـون أمام مـاسينا[2] (Masséna) قبـل معـركـة أسبيـرن (Aspern) وأثناءها. . .

وأضاف كابانيس: «كان الكثيرون ينذهلون أحياناً من الإنجازات الضخمة التي يقوم بها جنود الأمبراطورية الأولى، من قوة الجَلَد التي برهنوا عن تحليهم بها، والتي تبدو للوهلة الأولى متناقضة مع ضعف الجسم البشري. وانـدهش الكثيـرون من جراء تحمّلهم المشقـات العديـدة دون شكـوى ودون ضعف أو خور، ولكونهم حطموا العـوائق التي كانت تبـدو منيعة لا تقهـر. فجميع هـذه المعجزات الغالية لم يكونوا قادرين على القيام بها إلا لأنهم كانوا تحت قيـادة وإمرة وإيحاء قائد فذ مثير للطاقة والنشاط، عرف كيف يثير حماستهم وهياجهم، بفضل إرادة قادرة أخضعهم لها، جاعلاً كل عقل تابعاً وامتداداً له».

ولكن لكي يستطيع المرء أن يثير وأن يوحي بطريقة نابوليون يتوجب وجود بعض الشـروط الخاصـة. إذ لا يكفي أن يفعل المحـرض فعله، بل ينبغي أن يتجاوب الشعب والعسكر. يتوجب وجود جو خاص كلياً لكي يتيح لنـابوليـون

---

(١) مدينة في الاتحاد السوفياتي انتصر فيها نابوليون عام ١٨٠٧ على الروس.

(٢) أندريه ماسينا (١٧٥٨ ـ ١٨١٧) ماريشال فرنسا، لقبه نابليون «الابن العزيز للنصر»، كان أفضل مخطِّط بين ضباط الأمبراطور.

اختيار طريقه، والرسوخ فيه والنجاح، ينبغي أن يكون الرجل والشعب متفقين في لحظة محدودة من تطورهما لكي يمكن أن يكرس كل منهما نفسه كلياً للآخر كما كانت الحال بالنسبة إلى نابوليون والى فرنسا.

والحال أن فرنسا النابوليونية كانت تجد نفسها عند منعطف من منعطفات مصيرها. فمنذ التاسع من ترميدور[1] الذي اتّسم بسقوط روبسبيير، لم تعد تملك سيداً. فانبثقت حكومة مديرين مؤلفة من خمسة أعضاء يتخاصمون باستمرار، ورغم شخصية بعض المديرين القوية، بدت هذه الحكومة عاجزة عن قيادة البلد في الإعصار الذي عصف به. وهوت الأمور من سيىء إلى أسوأ. لقد كان البلد في خضم المعركة مع جيرانه، تهدّده في الداخل ثورة الملكيتين، ومالية الدولة مفلسة، والأمن مفقود، وكان النهب عادة وقاعدة. لقد هجر المزارعون عملهم في الحقول، وفي المدن نرى العمال والحرفيين قد سقطوا في البطالة. باختصار لقد خلق روبسبيير باقتراعه ضد نفسه، الفوضى والبلبلة وترك البلد دون إدارة. إذاً لم يكن بلا عقاب تعرّضُ الثورة الفرنسية للتقاليد المقدسة والقديمة. وتتناظر هذه الفوضى في البلاد مع فوضى وتشوش في نفوس الأفراد المتقاذفة في هذا الاتجاه أو ذاك، والمنحازة وفق المصالح أو الظروف والأوضاع، أو الامتيازات أو الأحقاد التي حملتها على الوقوف إلى جانب الثورة أو ضدها. وهكذا انتصب الأولاد في وجه والديهم، والأصدقاء في وجه أصدقائهم، والشعب ضد الشعب، وفي هذه المعمعة التي ولّدتها هذه البلبلة، انطلقت أسوأ الغرائز، متعطشةً إلى إرضاء شهيات أو أحقاد طال كبحها. فباراً، الأكثر تأثيراً بين المديرين الخمسة، انتهى إلى بيع نفسه من آل بوربون[2] (Bourbons) لإصلاح الملكية. وبالإضافة إليه، انتهت أربعة أخماس الشعب إلى رفض الثورة والتنكر لها والرغبة في العودة إلى الماضي.

---

(١) ترميدور هو الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية.

(٢) عائلة عريقة خرج منها ملوك فرنسا بدءاً من هنري الرابع سنة ١٥٨٩.

ولم يكن يظهر في هذا الشعب المنقسم والمتنازع إلا نقطة واحدة ثابتة، إنها الجيش، وخاصة جيش إيطالية وقائده بونابرت الذي كلله المجد.

لقد سبق أن رأينا في الفصول السابقة كيف أنه في لحظة اكتئاب أخلاقي مشابه تتبيّن لدى الأفراد والجماعات الحاجة إلى قائد مسؤول، قادر على إعادة فرض النظام بشرط أن يتم استبدال التقاليد القديمة الملغاة بشيء ما جديد، وأن تختفي الفوضى البشعة وكذلك الشعور باللاأمن والخطر الذي يعاني منه أشخاص تخلّوا عن تقاليدهم. لأن المجتمع، دون دعم تقاليد ما أو أخلاقية ما، عاجز عن العيش، فيلتهم بعضه بعضاً.

من الوجهة النفسانية، يتم عادة الانتقال من نظام إلى آخر بوساطة ديكتاتورية رجل واحد قادر عند الحاجة على فرض نفسه بالقوة. وبفضل هذه الديكتاتورية يجد أعضاء الجماعة، الذين أخرجتهم سيرورة الثورة من أوساطهم وأعمالهم، مهنة، وهدفاً، ومثالاً، يستحيل عليهم العيش من دونها. ويتوجب على الديكتاتور أن يتحمل هذه المسؤولية، حاملاً بالنتيجة الوزر كله، مؤكداً قدرته الكلية، لتهدئة الرعب الذي ولّده لدى الأفراد اللاأمن الداخلي والخارجي. وسيتوجب عليه تقديم بعض الضحايا لإرضاء الشعور الجماعي بالذنب، مع احتمال تقديم نفسه في نهاية المطاف إلى المحرقة عندما تحين ساعته، ويكون بإمكان تضحيته السماح لشعبه باستعادة التوازن والسلام.

فلهذا الشعب الفرنسي المجزّأ كرّس نابوليون كل حبه، كل شغفه وعواطفه؛ ومن أجله، من أجل هؤلاء الأشخاص الباسلين السعداء من جراء عذاباته وهمومه، الفرحين بفضل ارتباكه وحيرته، ضحى بسعادته لأنه يحبهم كما يحب عائلته، أهله وإخوته وأخواته أكثر مما يحب نفسه. وسنترك الكلام للأمبراطور، ونستمع إلى ما يقوله عن جنوده في لاس كاز (Las Cases):

«لقد كان جنودي مرتاحين جداً، أحراراً جداً معي؛ وقد رأيت غالباً أن أسكت على ذلك. وعرفت بأنني رجل رهيب بين الضباط وربما حتى بين

الجنرالات ولكن لم يكن ذلك أبداً بين الجنود، لقد كانوا يملكون حس الحقيقة واللطف، وكانوا يعرفون أنني حاميهم، وعند الضرورة المنتقم لهم».

وأسرّ إلى أوميرا: «لم يُرَ أبداً هذا القدر من التضحيات من جانب الجنود إلا من جانب جنودي. ففي كل المصاعب والمصائب، لم يشتك أبداً الجندي مني، حتى الجندي المحتضر؛ ولم يسبق أبداً لأي رجل أن خدمته بـإخلاص أكبر فرق جنده. وكانت القطرة الأخيرة من الدم تنزف من عروقه مع صرخة: «ليحيا الأمبراطور».

وما لم يقله نابليون هو أنه أحبهم بالتفاني الكلي نفسه، المخبأ بحياء خلف مظاهر أنانية وقحة ليست في نظرنا إلا واجهة مخصصة لتمويه شعوره الحقيقي. وقد خصص برايس في كتابه، فصلاً قصيراً للمخلص الفادي؛ إذ رأى مرجكوسكي (Merejkowsky) الفيلسوف الروسي الكبير نابوليون مع إكليل شوك المسيح، ومنحه جميع صفات عظمة المخلّص. وتتيح لنا معارفنا اليوم اكتشاف القلب الكبير المخبّأ لهذا الرعب المرعب الذي لم يحلم إلا بسعادة الآخرين، فتوجب عليه، لتأمينها، رمي نفسه بنفسه في أسوأ التعاسات.

وهكذا جمع نابوليون في نفسه كل ما كانت تحتاج إليه الجماهير الفرنسية في عصره لكي تتم قيادتها، وسنراه يصبح أولاً ابن هذه الجماهير، «عريفها الصغير»، ثم سيّدها الأعلى، ونعرف في أية شروط وظروف بدأ قيادة جيش إيطاليا. فقد كان هذا الجيش صورة صادقة عن فرنسا كلها في عهد الديركتوار (حكومة المديرين). وهذا ما قاله ستندال عن ذلك في كتابه **حياة نابليون**: «لقد كان الجيش الفرنسي، منذ زمن طويل، خاضعاً لحرمانات فظيعة. وكان الأحياء يُنْسَوْن غالباً، وهؤلاء الجنود، الموضوعون على قمم جبال الألب، الذين كانوا يجدون أنفسهم وسط الجليد ثمانية أشهر في السنة، تنقصهم الأحذية والملابس الشتوية. فمات نصف الجنود في المستشفيات وفي ميادين المعركة. وكان البيمنتيون[1] يلقبونهم بـ «الأبطال ذوي الأسمال»... ورغم البؤس المفرط

(١) سكان منطقة جبلية في إيطاليا.

الـذي تُرِكـوا فريستـه، لم يتنشق هؤلاء الشبان الجمهـوريون إلا حب الـوطن والمعـارك. فكانـوا يضحكون من رؤيـة أنفسهم في ثيـاب ممـزقـة، ولم تكن حوالات الدفع التي تعطى للضباط تساوي عشرة فرنكـات في الشهر، فكـانوا يعيشون ويسعون كالجنود».

وبعبارة أخرى، كان جيش إيطاليا مؤلفاً من شبان جمهوريين قـادهم حب الحرية والمساواة والأخوّة، أي المثال الثوري الجـديد، إلى مـأزق. والعديـد منهم، بعـد أن ضحوا بفـرح بالأرستقـراطيين والقصـور والكنـائس في سبيـل عاطفتهم الثورية، وبعد أن تبعوا إلى أقصى الحدود دعاة الحرية، تعيّن عليهم البدء بالتساؤل عما إذا كانت هذه الحرية خديعة مخصصـة لتدبيـر لا مسؤولية القادة وإهمال الشباب: فلا شيء أكثر خطراً على شعب ما من حرية لا تقوم إلا بتغطية عناصر الفـوضى، ومن المضاربين واللصـوص الذين يستغلون سـذاجة الجماهير السليمة النية. وتعيّن على بعض هؤلاء «الأبطال ذوي الأسمال» الآن التحسـر على طفولتهم وعلى الأسيـاد الـذين ضُحِّي بهم. وتعيّن على الشـك الانزلاق إلى الأرواح المحتضرة للرجال الذين أعـطوا حياتهم وثقتهم لحكـومة الشعب العـاجزة عن تغـذيتهم وحمايتهم، والتي كـانت تبدو كـأنها قـد تخلت عنهم.

ولكن ها قد أرسِل إليهم قائد، رجل وصفه كامباسيريس[1] (Cambacérès) بعد المقابلة الأولى معه، بالشكل التالي: «دُقَّ بابي في الساعة الثامنة صباحاً، فدعوت الطارق إلى الدخول، فرأيت رجلاً قصيراً ضامراً، غير مسرّح الشعر، وضفائره السبلة مدلاة على أذنيه (كانت تلك هي الموضة) وهو مرتد ثيابه بطريقة عجيبة، جزمتاه قصيرتان جداً، ثوبه أطـول من اللازم، وربـطة عنقه مقلوبـة، وكذلك القبعـة المبينة فـرقته. ولكن عبـر هذا الحـزمة، يـد ضامـرة، بيضاء،

---

(١) كامباسيريس، جان ـ جاك (١٧٥٣ ـ ١٨٢٤) رجل قانون فـرنسي، عضو في الجمعية التأسيسية قنصل ثم مستشار الأمبراطورية.

مرسومة بروعة، وفم فاتن، وخاصة عندما تملؤه ابتسامة رقيقة، ثم عينان. . . آه! أي عينين، عينا أسد، نسر. . . ».

كان هذا الرجل القصير مسبوقاً بأسطورة، فقد كان مرتبطاً بروبسبيير وهو شاب لذلك قاد فرقة في مدينة طولون، واستعاد المدينة من البريطانيين في معركة قام خلالها، مثل المدفعي البسيط، بتدخير مدافعه بنفسه، مدافعه التي تركها الجنود الذين حصدتهم القنابل. ولكن فوق كل هذا، تشعر لديه بمعرفة بالنفس الإنسانية، بضيق الأشخاص الأخلاقي والمعنوي الذين عهد بهم إليه، وأفضل من أي شخص آخر كان يحسن شفاء النفوس وقيادتها. وهذا الرجل، الذي كُتب عنه الكثير من الحكايات الطريفة، والعديد من الكتب والروايات، والذي تجابهت كل الآراء بشأنه لتناقش قيمته كجنرال، ومدير، وأمبراطور، كان فناناً عظيماً، بقي، في نظرنا، مجهولاً من معجبيه أنفسهم.

لقد كان نابوليون يفهم أن الحرية الأكثر فائدةً للأشخاص العاطلين عن العمل تقوم على اختيار تبعيات موفقة وخصبة، أوَلم يكن، هو نفسه، ممثل شباب غير معروف ومتعطلاً يتأهب لاقتحام السلطة، وعالم، وعصر وحضارة كاملة؟ وهو الذي كان ما يزال مجهولاً بالأمس، غريباً يعتبره بعضهم لصاً كورسيكياً مسلحاً، يلبس ثياباً رثة مثل جنوده، ويرئس جيشاً يفتقر إلى الأحذية، وإلى المدافع وإلى الذخيرة، يتغذى فقط تقريباً على الكلام المعسول الذي يغدقه عليه الانتهازيون في تلك المرحلة، أوَلم يكن هو نفسه التعبير عن هذه القوى المجهولة التي تولد في بؤس الربيع البارد والوحشي والتي تشق لنفسها طريقاً نحو الحياة والشمس رغم الضعف والفقر؟.

لكنه كان شاباً، شاباً مثل الشبيبة التي كانت تتبعه، وهذه الشبيبة، كانت أفضل ضمان لنجاحه. لقد أتاحت له أن يفهم التطلعات الأزلية لجيل كامل ولد، لإنسانية تحتاج إلى الإيمان بالقوة، بالقدرة والمجد، وتحتاج إلى الاعتماد على مثال العظمة الذي أعطاه القادة والماضي. وباستعداده للتضحية بسعادته الشخصية يعطي هذا المثال الضروري لجيل قلق يوشك أن يغرق في خيبات

الأمل القاسية التي يوجدها التردد والشك والشعور بلا جدوى الحياة.

وهكذا ولد نابوليون، ليس الرجل، بل الشخصية التي انتحلها والأسطورة التي ابتكرها. لقد وُلِدَ من هذا الاتحاد بين رجل عبقري وشعب يجتاز أزمة، شعب من الرجال البواسل البسطاء المنطلقين في مغامرة مخيفة من جراء اضطرابات ثورة تبحث عن طريقها، وتتأرجح أيضاً بين الفوضى والخواء وبين تجدّد النظام الاجتماعي.

من أجل هؤلاء الرجال البواسل ضحى نابوليون بحياته، بقبوله القيام بدوره الذي سيؤديه بتفانٍ كلي، مهما كانت الآلام التي سيضطر لمكابدتها شخصه المسكين. وسيخصص كذلك الدور فن مخرج عبقري، وسيخلق أساطير أبدية. إن شعر الشجاعة، والمعركة، وشعر المجد، وكرامة الإنسان سيكتسب معنى جديداً على يديه. وسيدوّن شعر البطولة، بحروف من دم في كتاب التاريخ. وسيظهر شعر الموت والوفاء الكلي في أغاني رماة القنابل ذوي الشوارب الكثيفة. وسيكون لهذا الشعر، ولهذه الأغاني عنوان واحد، على الدوام: «إلى الأمام، عاش العريف الصغير، عاش الأمبراطور!».

لم يفهم أي شخص آخر غيره كم يحتاج الرجل المرتاب، المحروم من سيده ومن دينه، إلى رب كي لا يموت. وهذا الرب، سيرشده هو إليه. وسيكون هو الذي يتحول إليه، هو الذي سيوجد هذه القدرة السحرية التي تنعش وتقوي الخائري القوى، توقف الخائفين منتصبي القامة، تجعل بعض الناس مساكين وبعضهم أغنياء، بعضهم مرضى ومتألمين وبعضهم رجالاً سعداء. وسيتجلى آلاف الموتى ليقدم إليهم مثال خلوده، وسيتنكر لكل راحة، في الليل أو النهار، ليكرس أسطورة قدرته الكلية؛ وسيرتمي بفخر في المعركة، رغم الحمّى والهموم، وخيبات الأمل الشخصية، ليعطي شعبه البرهان على أن إرادة الإنسان قادرة على التغلب على شقاء الطبيعة وبؤسها كله. وبهذا الشكل اكتسب نابوليون النفوذ، الذي كان يتمتع به، في جموع جنوده الذين كرّس جهوده لهم. إذاً لم يكن هذا النفوذ شيئاً آخر غير التعبير عن آلام رجل ضحّى بنفسه ليصبح

سيّد شعبه، لأن هذا الشعب، رغم ثورته، لم يستطع بعد العيش دون ملك ودون سيّـــد.

بهذه العقلية بـالتحديـد سيخوض نـابوليـون ستين معركـة كبيرة وعـدداً لا يحصى من المعارك الصغيرة. لقد قُتل تسعة عشر حصاناً تحته، وجرح مرتين. في المرة الأولى بشكل خطير عند مدينـة طولـون[1]، وفي المرة الثـانية بشكـل طفيف عند مدينة راتسبون[2]. لكن موهبته في السيطرة لم تكن كافية كثيراً، له فقط، لتتيح له القيام بدوره الكبير. فكان يحتاج، بالإضافة إليها، إلى صفتين أساسيتين للقيام بمهمته: أولاً قوة القبول بمسؤوليات مرهقة وعـدم التراجع أمام أي شيء في سبيل النّجاح؛ وثانياً ذكـاء نادر تمـاماً، يتيـح له أن يفهم بشكـل حدسي وبدهي التسلسل النفساني للأشياء. وأن يعرف أنه، حتى عندما ينظم المعارك الأكثر فتكاً، ليس إلا أداة سيرورة حياة لا تكتمل من غير جرحى، من غير أموات ومن دون تدمير. وبهـذا الوعي بـالأشياء فقط يستـطيع الفـوز بهذه السكينة الرضية ورباطـة الجأش للقـائد الـذي يرى المـوت يصرع حـوله أعـز عسكرييه وأفضل أصدقائه، والذي يشعر أنه غير مسؤول عن مصيـرهم، حتى عندما يعطي هو نفسه الأمر بالمعركة التي أودت بهم. لقد كان نابوليون رجـلاً علمياً عقلانيـاً، نوعـاً من الجّراحين لم تكن الحـرب بالنسبـة إليهم إلا عملية ضرورية لسيرورة الشفاء.

لقد كان يشعر، هو نفسه، أنه موجّه بالثورة الفرنسية ومتحدر منها. فكـان يقول في أوائل العهد بالأمبراطورية: «أنا الثورة الفرنسية». وأوضح بعد معركة واترلو[3]: «لم تَشنّ القوى الأوروبية الحرب ضدي، بل ضد الثورة الفرنسية».

---

(١) طـولون مـدينة فـرنسية تـطل على حوض البحـر المتوسط وهي مـرفأ عسكـري ومركـز صناعي.

(٢) مدينة في ألمانيا تقع على نهر الدانوب.

(٣) جرت معركة واترلو في ١٨حزيران ١٨١٥وخسرها نابوليون أمام ويلنغتون وبلوخر. وواترلو مدينة في بلجيكا.

وظل اليعاقبة[1] (Jacobins) أوفياء له حتى النهاية، كما يظهر ذلك مثال الشريف كارنو[2] (Carnot). وقال آخر عنه: «إن شرف فرنسا وصالحها لا يسمحان لي بالشك في أن مآثر نابوليون هي مآثر الثورة الفرنسية في نهاية المطاف».

وقال نابوليون: «إذا كانت ثورتنا قد بدت ذات حتمية لا تقاوم، فذلك لأنها كانت هيجاناً أخلاقياً حتمياً، مثل الهيجانات المادية، بركاناً حقيقياً... أغلقت هاويته الفوضوية. لقد نظمت الفوضى، ونظّفت الثورة الفرنسية».

وقال، لاحقاً، في جزيرة القديسة هيلانة في المموريال (كتاب مذكراته): «إن الثورة الفرنسية، رغم كل أهوالها، لم تكن أقل من السبب الحقيقي لتجدد عاداتنا وأخلاقنا... كما أن أقذر الزبل يعطي أفضل المواسم. ويمكن، بكل تأكيد، إيقاف الحركة التصاعدية وإخمادها. ولكن ليس تدميرها...».

«ومن الآن فصاعداً لن يستطيع أي شيء تدمير أو محو المبادىء الكبرى لثورتنا... وستكون حقائقها من الآن فصاعداً خالدة. وستحيا في بريطانيا العظمى، وستضيء في أميركا، وهي مؤممة في فرنسا. وستكون الإيمان، والدين، والأخلاق لكل الشعوب، وسيرتبط هذا العهد المأثور بشخصي مهما قيل عنه، لأنني في نهاية المطاف أشعلت شعلته، وكرست مبادئه، واليوم أنهى الاضطهاد عملية جعلي المخلِّص المنقذ...».

وهكذا استطاع نابوليون، المسلح بموهبته وسحره وشجاعته وعلمه بشكل أفضل من روبسبيير، مجابهة مقتضيات المصير الفرنسي. وقد تلقب، هو نفسه، أحياناً بـ «روبسبيير على صهوة جواد»، وأحس إلى حد بعيد بأنه خليفته.

---

(١) اليعاقبة منتدى ثوري كان يعقد جلساته في الدير القديم لليعاقبة في شارع سانت أونوريه بباريس، وكان روبسبيير أحد خطبائه الرئيسيين.

(٢) لازار كارنو (١٧٥٣ - ١٨٢٣) عالم رياضيات وإصلاحي فرنسي، عضو هيئة السلامة العامة ومنظِّم انتصارات الجمهورية الأولى.

لقد أقدم على الجناية التي تراجع أمامها روبسبيير: فاعتلى عرش ملوك فرنسا. وأعاد تكوين تقليد العرف، إذ حكم، وأنقذ النظام الاجتماعي للفوضوية[1]، وسمح للفرنسيين بالعيش مجدداً على أسس جديدة. ولكن كيف استطاع النجاح في هذه المعجزة التي ماتزال تدهش العالم حتى الآن؟ وبأي وسائل؟

إن الثورة الفرنسية، بقلبها النظام الاجتماعي القديم رأساً على عقب، وبتدمير سلطة الكنيسة ونفوذها، وقوة الحكومة والتقاليد، والبنى القائمة، قد رمت خارج كل تنظيم اجتماعي لملايين الأفراد الذين وجدوا أنفسهم، لبضع سنوات، محرومين كلياً من ركيزتهم الأخلاقية، وقد رأينا كيف أن الإنسان، من دون هذه الركيزة، والاستعمال وبغير هدف محدد، يجد نفسه في وضع من أكثر الأوضاع تزعزعاً. إنه يخاف، وكل شيء يخيفه. ويردّ على هذا الخوف بالرغبة في إسقاطه على الآخرين، فيخلق الرعب. فهو إذ يشعر بأنه مهدد، يهدد، يضطهد، يسلب ويقتل. فينشأ توتر مفرط بين أفراد الجماعة الثورية. وتهدد هذه العدوانية بنية الأمة بالتدمير الكلي، ومن المستحيل نصح النفوس لجعلها مسالمة غير مؤذية. وينبغي إعادة خلق بنى والسماح للناس بتوجيه العنف نحو أهداف محددة، ومن دون هذا الأمر، يخشى أن يصبح هذا العنف مقدّراً على الجميع.

في هذا الوضع يتعلق الأمر أيضاً بإسقاط هذا العنف مجدداً على ضحايا قادرين على تهدئة الحيوان الثائر في النفوس. إذ تصبح الحرب الخارجية غالباً إحدى الوسائل الوحيدة المتوافرة لتحاشي الحرب الداخلية. والقائد، في هذه الحالات، لا يستطيع المحافظة على الضحايا. ويستطيع على الأكثر تعيينهم لتحديد السوء؛ فيتهم البعض لإنقاذ الآخرين. وبتحمله مسؤولية هذه العملية،

---

(١) الفوضوية نظام سياسي واجتماعي مثالي يقضي بأن يكون الفرد متحرراً من كل وصاية حكومية.

يحرر قسماً ثقيلاً من الذنب الذي يسحق جميع أولئك الذين قتلوا جارهم لإنقاذ أنفسهم. فيأخذ على عاتقه الجريمة وعقابها.

وأصبح نابوليون، بعد أن كان جندياً، المنقذَ المخلّص كما زعم هو نفسه: . . . (واليوم أنهى الاضطهاد جعلي المنقذ). لقد كان جندياً أولاً ثم منقذاً على الأثر. فاستمر دوره كجندي حتى العام ١٨١٢. وبعد الموسكوفا(١) (Moscova) غلب عليه دور المنقذ. واكتمل الاضطهاد والتضحية في جزيرة القديسة هيلانة. ونشهد، من غزو ايطاليا حتى جزيرة القديسة هيلانة، الاكتمال العظيم لمصير سيختتم بالاستشهاد. فهذه الجزيرة، من الوجهة النفسانية، هي التتمة المنطقية للمهمة التي بدأت أثناء غزو إيطاليا. ونعرف تطورات هذه الملحمة المأثورة وتواريخها. وما تم بشكل مصغر في إيطاليا، تم لاحقاً بشكل كبير، إلى أن أصبح «العريفُ الصغير» الأمبراطور، وأخيراً أسير لونغوود(٢) (Longwood).

لقد كان دور الجندي بالنسبة إلى نابوليون الدور الأكثر مجداً وإذهالاً؛ ودور الفادي المخلّص الدور الأكثر إجحافاً والأقل تقديراً. ويظهر هذا الأمر بوضوح لأن هذا الدور الأخير مرتبط بشكل أكبر بمأساته الداخلية، وهي مأساة خفية لم تظهر ملامح لها خارج نفسه. ونستطيع اليوم فقط إعادة تشكيلها بفضل التحليل النفسي.

وعندما يُضْطَلع بعمل مثل العمل الذي كرس نابوليون نفسه له، وبهذه الطريقة الخطرة، ويشكل التكفير جزءاً من المهمة ويكون محتماً، يتردد الرجل المضحى به. ذاك الذي استشف إلى جانب امرأة مثل ماري فالفسكا كيف

---

(١) لونغوود مقر نابوليون بونابرت في جزيرة القديسة هيلانة، من ١٨١٥ إلى ١٨٢١.

(٢) الموسكوفا نهر روسي يجري في موسكو. شهدت ضفافه في العام ١٨١٢ انتصار نابليون على الروس.

يكون الحب الحقيقي، ذاك الذي أحب أن يتنازل عن كل إشارات العظمة لكي يكون مواطناً بسيطاً، لكي يثرثر مع جندي ما في المعسكر، أو أيضاً لكي يختلط كشخص غير معروف بعامة الناس، ولكي يقف بالطابور عند مدخل المسارح، ذاك الذي أراد تذوق سعادة البسطاء الذين دافع عنهم بشراسة كبيرة، ذاك الرجل الذي أراد أن يكون سعيداً مثل أي رب عائلة في امبراطوريته. لكنه لم يؤمن بحقه في الانسحاب من مهمته.

لقد قتل مويرون[1] (Muiron) عند جسر أركولي[2]، وهلك الكثيرون أمام عكا[3] بالنار أو بالطاعون، وقتل كليبر[4] في مصر، ودو سيز الذي أنقذه في مارنغو[5]، وأولئك الذين قتلوا في أوسترليتز[6] وأسبارن، وفاغرام[7] وأيلو[8]

---

(١) أحد ضباط نابوليون.

(٢) بلدة إيطالية.

(٣) حاصر نابوليون عكا ولكنها صمدت في وجهه في العام ١٧٩٩ وتفشى الطاعون في جيشه فانسحب.

(٤) هو جان باتيست كليبر (١٧٥٣ - ١٨٠٠ م) جنرال فرنسي. حكم مصر بعد رحيل نابوليون وقتله سليمان الحلبي.

(٥) مارنغو مدينة في إيطاليا وقد تحدثنا عن بعض تفاصيل معركة مارنغو سابقاً.

(٦) أوسترليتز مدينة في مورافيا في تشيكوسلوفاكية قهر فيها نابوليون الروس والنمساويين في ٢ كانون الأول ١٨٠٥.

(٧) فاغرام مدينة في النمسا تقع قرب فيينا، قهر فيها نابوليون النمساويين في ٦ تموز ١٨٠٩.

(٨) مدينة في الاتحاد السوفياتي تغلّب فيها نابوليون على الروس والبروسيين في ٢ شباط ١٨٠٧.

وفريدلاند[1]، وفي روسيا ثم دوروك[2] ولان[3]. . . كل هذا الحشد من الأموات يناديه. وليس في هذا الحشد إلا الأصدقاء الذين حُرم من النجاة معهم والعيش وإياهم في السلم، وهناك الأعداء، والضحايا، ودوق أنغيان[4]، وآخرون أيضاً، جيش لا يحصى من العائدين الذين ينتظرون، من الرجل الذي هلكوا لأجله أو بسببه، أن يحترم العهد الذي يشدّه إلى المتوفين. وينبغي أن يثأر لموتهم ولكن ليس بفرنسا بكاملها، بالشعب كله الذي كان مسؤولاً عن ذلك. ونحتاج إلى شهيد مستعد للعقاب من أجل شعبه ومن أجل تحريره من الثقل الذي سيسحقه.

ألهذا أعدّ نابوليون طويلاً ذاك الذي ينبغي أن يكون خليفته الروحي، الوحيد القادر على مقاومته وتدميره، بتشكيله، في الظل أولاً، الائتلاف الرائع الذي تغلب عليه في نهاية المطاف؟ أبهذه الطريقة يفسر تساهل نابوليون تجاه تاليران[5]، الذي تكشّف أنه، بعد الأمبراطور نفسه، ليس فقط الأكثر قدرة من بين وزرائه، بل فضلاً عن ذلك الرجل الأكثر تجرداً من الوساوس عندما يبغي الخيانة؟

وتاليران، مع أنه سيد النظام القديم وأمير الكنيسة، كان ثورياً على طريقته. برع في فن السخرية من الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ساحباً

(١) مدينة في الاتحاد السوفياتي قهر فيها نابوليون الروس في سنة ١٨٠٧.

(٢) ميشال دوروك (١٧٧٢ ـ ١٨١٣) جنرال فرنسي من كبار ضباط الأمبراطور قتل قرب مدينة بوتزن بألمانيا.

(٣) جان لانّ (١٧٦٩ ـ ١٨٠٩) ماريشال فرنسا جُرح بشكل مميت في معركة أسلينغ (Essling) في النمسا.

(٤) لويس أنطوان أنغيان (١٧٧٢ ـ ١٨٠٤) أعدمه نابوليون في قصر فانسين.

(٥) شارل موريس تاليران (١٧٥٤ ـ ١٨٣٨ م) رجل دولة فرنسي. كان وزير الخارجية في عهد حكومة المديرين والأمبراطورية. التحق بملكية تموز.

في الوحل شعارات طبقته الشخصية، وكان أسقفاً، ومع ذلك مقامراً وغشاشاً، وعاش حياة ماجنة. لكنه مع قيامه بهذا الدور، برع بشكل عجيب في عدم خلطه مع شخصه. فخلف انحطاطه الأخلاقي، يخفي شخصية فخورة متكبرة ووضوحاً شيطانياً، وبعد نظر في الرجال والأحداث، وحباً حقيقاً لكل ما صنع، في كل العصور، جمال فرنسا وعظمتها. وهذا الحب الخفي، عبّر عن نفسه، بكل تأكيد، بوساطة كل ما سمح لتاليران، الرجل الروحاني الكنسي، باستئناف تقاليد عقلية فرنسا عبر الثورة الفرنسية. وعُرِف بحبه الشديد للذكاء وأيضاً بحبه نساء النظام القديم الجميلات، وحبه الكتب الجيدة والأشياء الفنية والتحف، وجعلت هذه الميول من ذاك الرجل الذي اعتبر أباً لدولاكروا (Delacroix) الرسام الشهير أحد الأشخاص الأفذاذ الأكثر فعلاً في ذاك القرن.

لقد عهد إليه نابوليون، وطوال سنوات عديدة، بالسياسة الخارجية الفرنسية؛ وهو الذي غمره بالنعم، وجعله أمير بانافان[1](Bénévent) رغم خياناته. ولا يمكن الادعاء بأن نابوليون قد عمي عن حال ذاك الذي كان من الواجب عليه أن يقول له ذات يوم جهاراً: «أنت بعض الخ... في جورب حريري»؛ بيد أنه اختاره ليطلعه على أفكاره الحميمة. وبعد أن تحقق من قوة طباع هذا المساعد الخطر ونفاقه استخدمه كوسيط بينه وبين الشخصيات الأكثر بروزاً في أوروبا. وأكثر من ذلك أيضاً، لم يدخر نابوليون شيئاً ليجعل من تاليران عدواً له. لقد أذله، وجرحه في كرامته، وحاول إبعاده عن محيطه، دون النجاح مطلقاً في ذلك، فهو الساحر الكبير وجد نفسه بدوره مفتوناً بسحره. فالأمبراطور، في ذروة مجده، اصطحب تاليران إلى إرفورت[2] حيث توجّب على هذا الأخير عرقلة خططه للسيطرة على أوروبا ببراعة لا مثيل لها. وفي

---

(١) بانافان مدينة إيطالية قرب نابولي.

(٢) إرفورت مدينة ألمانية شهدت مقابلة بين نابوليون وقيصر روسيا اسكندر الأول سنة ١٨٠٨.

إرفورت نفسها أيضاً رأى نابوليون حلمه الشهير الذي رواه كونستان والذي أوردناه في الصفحات السابقة، وهو حلم الدب الذي فتح له صدره. أكان بإمكانه الاكتفاء بتقاعد هادىء في جزيرة إلبا، تحت سماء رؤوف تجعل الحياة أكثر عذوبة وجاذبية من أي موضع آخر؟ ألم يتعيّن عليه استعادة النضال واستئنافه، ليس في سبيل النصر، بل فقط للرجوع إلى قصر التويليري كشبح يعبر ويكمل، بشكل كلي، تضحيته التي قادته من واترلو إلى جزيرة سانت هيلانة.

لقد حدّثنا برايس في كتابه سر نابوليون، فقال:

«لقد بدا أمبراطور المئة يوم[1] رجلاً آخر، لأولئك الذين رأوه مجدداً بعد سنة. فعلى وجه الإجمال، أصبح بديناً، قسماته منتفخة وسحنته مخضرّة ونظرته باهتة ومشيته متثاقلة، وكل هذا يعطي انطباعاً بـ«انحطاط عميق». ويمكن القول إنه قد استنفد جهازه العصبي في الجهد الذي توجب عليه بذله. لقد كان يكابد حاجة شديدة إلى النوم. ولم تستطع الكميات الكبيرة التي يتناولها من القهوة أن تنعشه. فكان يُرى في وضح النهار مغالباً النوم فوق كتابه وانفعاليته متوثبة. وعندما يكون وحيداً، يذرف أحياناً الدمع بغزارة. وقد فاجأه كارنو مرة وهو يبكي أمام صورة ولده. وكان نابوليون واعياً الضعف الذي فرضته عليه سمنته. فكان يتحسس كرشه ويقول محاولاً الاطمئنان على مآربه الحربية: «أيمكن القيام بحرب عندما يكون المرء ضخماً مثلي؟»».

إلا أن السمة المميّزة لحالته هي اللامبالاة، فقد كان يخالجه الشعور بأنه سيخوض مغامرة لا أمل له في النجاح فيها. ولم يعد يهتم بالدور الذي يعرف أنه قد خسره مسبقاً ولكنه سيقوم به حتى النهاية من أجل الكرامة والشرف. إنه

---

(١) هذه هي المدة الزمنية التي أمضاها نابوليون ما بين عودته من جزيرة إلبا ونفيه إثر معركة واترلو وتمتد من ٢٠ آذار ١٨١٥ إلى ٢٢ حزيران.

قرِف وتعب. ويظهر إرهاقه بوضوح خلال غزو بلجيكا. إذ تلح المذكرات المختلفة على نزوعه إلى التعب، وحاجته المتكررة إلى النوم، وخموله، وخمول ذهنه وافتقاره إلى القرار الحاسم. . .

لم يكن المظهر جموحاً، ولم يعد يشعر بنشاط سيده، إنه يجر قدميه، وتبدو له آفاته نفسها أقل احتمالاً، وقام احتقان البواسير التي يعاني منها نابوليون، في واترلو، بدور حبة الرمل في دولاب ما. إنها لا تمنع الآلة من الدوران لكنها تتعبها.

ويعتقد إجمالاً أن نابوليون، مثل تميستوكليس[1]، التمس الرحمة والعفو من أعدائه الانكليز، وطلب رأفتهم. واستطاع هو نفسه الاعتقاد بذلك في نطاق جهله الكلي بما قرنته به عبقريته. وما لم يفكر فيه المؤرخون هو أن نابوليون المخلّص قد يكون احتاج إلى إتمام مهمة تكفيره، إلى اضطهاد الانكليز وكذلك إلى خيانة تاليران، وأن هذا الاضطهاد ينبغي أن يُترجم باستشهاد ضروري لذاك الذي يريد إكمال قدره كمخلص مشابه للسيد المسيح.

لقد بحث عن هذا الاضطهاد، حتى هناك حيث الانكليز رفضوا منحه إياه. فنابوليون هو الذي أثار حاكم الجزيرة، هدسون لو (Hudsone Lowe)، بإهاناته وشتائمه الشديدة الوقع، فهدسون لو هو الذي «مشي حالو[2]» والذي أصبح وسيلة الفادي الذي يتطلع إلى التكفير عن الذنب. فقد أثار نابوليون ثائرته بالسخرية منه أمام جنوده وبرفض استقباله، فقام هدسون لو، في مواجهة هذا الخصمَ المرعب، وبدقه، بصنع ما يطلبه منه. فقد أسرًّ نابوليون إلى

---

(١) تميستوكليس جنرال ورجل دولة أثيني (نحو ٥٢٥ ـ ٤٦٠ ق.م) أبعد أريستيد وأصبح الحاكم الأول. قاد الأسطول الأثيني في سلامين. أُبعد في العام ٤٧١ فالتجأ إلى الفرس.

(٢) تعبير عامي يقصد به الشخص الذي وافق ما أراده نابوليون وساعده وإن بشكل لاواعٍ على تحقيق مراده.

الإرلندي أومير «أعتقد أنني أدين إلى حظي بكوني قد عوملت بشكلٍ سيّىء من قبل الإنكليز، وبكوني قد وقعت تحت طغيان حاكم مسلكه حقير جداً».

وأعلن في جزيرة القديسة هيلانة: «لقد ضحيت طوال حياتي بكل شيء: بالطمأنينة والمصلحة وبالمجد، في سبيل قدري».

وفي الأول من كانون الثاني ١٨١٧، أكد بفخر لمن يحيط به: «النكبة وحدها تنقص شهرتي. لقد وضعت تاج فرنسا الأمبراطوري، تاج إيطاليا الحديدي، والآن أعطتني بريطانيا تاجاً أكبر أيضاً وأكثر مجداً وروعة، إنه التاج الذي وضعه يسوع منقذ العالم، تاجاً من الشوك».

واتهامه وشكواه معروفان: «إنني أموت قبل أواني قتيلاً على يد الأوليغاركية[1] الانكليزية»... فالتكفير لا يمكن أن يتم إلا بحكم بالموت، بإعدام لا يدع مكاناً للموت الطبيعي، على الأقل في نظر نابوليون وتفكيره. وبهذا الشكل فقط استطاع الحصول على حق التعبير عن هذه الرغبة الأخيرة: «أود أن يرتاح رمادي على ضفاف نهر السين وسط «هذا الشعب الفرنسي» الذي أحببته كثيراً»! وهكذا سلم الشرف والمهمة المنجزة. وانضم إله المعارك إلى أمواته رجلاً مسكيناً كفَّر عن كل ما أخذه على عاتقه، بمصيره وحنوه: جريمة المشابهين لروسو ولروبسبيير، التي تقوم على التضحية بعالم قديم أمام عالم جديد.

إننا نستطيع اليوم أن ننصف، بفضل التحليل النفسي، أسير جزيرة القديسة هيلانة، الذي أساء فهمه كثيراً من الإيديولوجيين ذوي الميول المسالمة التبسيطية الذين لم يروا فيه إلا محارباً خطراً شرساً. ونستطيع أن نحيي المخلِّص ونعيد إليه الاحترام الذي يستحقه لاستشهاده على صخور جزيرة صغيرة ضائعة في المحيط الأطلسي، لقد تألم فيها، بعد أن هجره أولئك الذين لاموه على هزيمته وفشله اللذين أسهم بوساطتها، مع ذلك، في إنقاذ توازن الروح

---

(١) الأوليغاركية: حكم القلة المستغلة والمهيمنة.

الفرنسية. لقد دفع ثمن انبعاث وطني بوساطة نصر. ربما كان أكثر عظمة من الانتصارات في العديد من ميادين الوعي التي غُلب آخر الأمر فيها بشكل رائع جداً.

وفي الحقيقة، لقد كان الفادي المخلص، إذ ماتت فرنسا، والثورة المحبوبة منتشرة بحدّة أعقبت الملكية الحليمة بسلطان الثرثارين والفاشلين، فأسكروا البلد بكلمات جوفاء وعندما فقد رشده تركوه للأوغاد. وليس هنا مكان تقديم هذه الدعوى، فيكفي أن نذكر في بضعة أسطر نتائج الكارثة. وها هي مثلاً شهادة إنكليزي هو هنري ردهاد يورك (Henry Red Head Yorke)، الذي زار فرنسا في بداية عهد القنصلية. ولا يمكن الطعن في أقواله. فهو غريب عن الأهواء السياسية الفرنسية لذلك يعتبر مراقباً حيادياً كلياً. وقد دوّن الملاحظات التالية: إن الطُرُق المحفرة المملوءة بالمستشفيات غير صالحة للمسير. ونرى الخرائب في كل مكان ومنازل خاصة بعدد القصور والكنائس والأديرة. البؤس عام وشامل. وفي كل قرية أمواج من الشحاذين من كل الأعمار تناشد السواح الإحسان ويلتمسون الخبز. التجارة معدومة! والأراضي شبه مهجورة. ولا يرى أي قطيع في المراعي. ولكن كل واحد من الخطباء يبتهج للحكومة الجديدة التي وعدت بالمحافظة على النظام. «وقال أحدهم: لقد عشنا أوقاتاً لم يكن يستطيع فيها أي إنسان أن يثق بجاره، ولم يكن أي إنسان يملك حق التعبير عن رأيه. ويجب على الأخ أن يحذر من أخيه».

لقد أحيا نابوليون المريض المحتضر. إذ قال: حاجة فرنسا إليّ أكثر من حاجتي إليها. فأعاد إليها الروح. وجعلها تستعيد وعيها بالعدالة والشرف.

ونتساءل بدهشة عند التمعن في مصير نابوليون العجيب، عما استطاع، لدى هذا الكورسيكي، أن يحدد قدره القاسي كجندي وكمنقذ لفرنسا وكفادٍ لها. ما الذي جعله يقول إن له سيداً وإن هذا السيد ليس له أحشاء. أو أيضاً: لم أكن في الحقيقة سيد تحركاتي... ولم أكن مع نفسي تماماً... ولا أعرف أين ادعيت الوصول... إنني أشعر بكوني مدفوعاً نحو هدف لا أعرفه! وعندما

أبلغه، وما إن أكف عن أن أكون نافعاً ومفيداً، حينئذ ستكفي ذرة واحدة للتغلب علي . . .

أية قوى يطيع إذاً عندما ضحى في شبابه بأفراح عمره وملذاته في سبيل عناء ضار، في سبيل دراساته وكتبه، وطالب بتنظيم اجتماعي أفضل لكورسيكا أولاً، ثم لفرنسا على الأثر؟ ما الذي دفعه إلى ذراعي جوزفين وماري لويز أكثر مما دفعه إلى أحضان دزيريه كلاري أو ماري فلفسكا؟ لماذا هذا التحالف بين رجل الثورة الفرنسية هذا وعائلة حكّام النمسا، مع القيصر الذي دافع عن النظام القديم، ولماذا هذا الضعف أمام أولئك الذين توجب عليهم خيانته كتاليران مثلاً؟

إننا لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة كما عن العديد من الأسئلة الأخرى إلا بالفرضيات التي تقدمها لنا خبرتنا العيادية ويتيحها علم ما يزال في بداياته. إلا أن هذه الفرضيات ستمتلك على الأقل القدرة على طرح المسألة في ميدانها الحقيقي وعلى فتح آفاق لأبحاث لاحقة. ولنتذكر ما قلناه في الفصل المخصص لعلم نفس الطبقات الثورية وأعراض الفشل: «العصاب، غالباً، هو الذي سلّح قائداً للسيطرة على جمهور ثائر ولقيادته. وهناك أنواع من العصاب يتوجب على باعثها الانتصار، إذا لم يكن يرغب في الغرق في هاوية اللاشعور».

عصاب نابوليون؟ ماذا نستطيع أن نعرف عنه خارج أواليات الفشل التي تكلمنا عليها والتي توصلت، لدى الأمبراطور، إلى بتر أي حياة عاطفية موجّهة نحو تشكيل عائلة على أسس عادية طبيعية. ما هي ظلمات الروح التي توجب عليه مواجهتها قبل أن يُطلب منه مواجهة ظلمات الروح الجماعية الفرنسية لفرنسا الثورية؟ كآبة شبابه؟ تفكيره بالانتحار؟ كآبته السوداوية التي كانت تدفعه إلى البحث عن المغامرات في باريس بدلاً من الارتياح والتراخي في أحضان دزيريه كلاري بمارسيلية[1] حيث يستطيع أهله أن يوفروا له وضعاً طبيعياً ثابتاً؟

---

(١) مدينة فرنسية شهيرة تقع في جنوبي فرنسا وتطل على البحر الأبيض المتوسط.

لقد نقَّب بعض الأطباء النفسانيين في حياة نابوليون ليعثروا لدى هذا العبقري على علامات الجنون. فأجريت تشخيصات معقدة، فتكلم البعض، على نزق بسيط بسبب نوبات غضبه الشرسة والعنيفة، وذهب آخرون إلى حد تشخيص صرع [داء النقطة]، بحجة أنه قد لوحظ لديه بعض النوبات وأشهرها النوبة التي أثارت خلالها الآنسة جورج[1] (Mlle George) القصر كله وبلبلته عندما كانت في سرير القنصل الأول في حين أن هذا الأخير يتخبط أثناء حلمه. وتم الكلام على تشنجاته في مدرسة بريّان[2] (Brienne)، التي حدثت مرة واحدة بعد عقاب مذل، الخ . . .

وما هو مؤكد أننا نستطيع التثبت والتأكد من وجود طباع عصابي لدى نابوليون، من غير أن نستطيع التأكيد أن هذه أو تلك الأعراض تسود لديه، كما هو معروف في حالة الأعصبة التقليدية: الخوف[3] أو الوسواس أو الهستيريا. فهذا العصاب في الطباع كان يترجم بنزق، وبعيداً عن الأعراض التي تكلمنا عليها للتو (سابقاً) وبقابلية للتأثر والنزق خاصة جداً، وقد لاحظ رفاقه في مدرسة بريان أنه لا يحسن اللعب ولا إطلاق حجر.

وذكر كابانس عنه ما يلي في كتابه: في الحياة الخاصة للأمبراطور. «أي إحساس أكثر «تلهفاً». وهذا الجزء البسيط من جملة تاين[4] (Taine) المستند إلى مستندات عدة، يقول الكثير عن نفسيته. فإذا تلكأ خادمه في إلباسه قليلاً عيل صبره واحتد ورمى أرضاً أو في النار قطعة الثياب التي لم تكن تلائمه.

---

(١) الآنسة جورج (١٧٨٧ ـ ١٨٦٧) ممثلة تراجيدية فرنسية.

(٢) هي مدينة بريان لوشاتو Brienne - le - Château وفيها مدرسة عسكرية درس فيها نابوليون بونابرت علومه الأولى.

(٣) الخواف أو الرهاب هو هلع أو ذعر شديد مرضي من شيء معين.

(٤) هيبوليت تاين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ فرنسي مؤلف كتاب (أصول فرنسا المعاصرة).

وأيام المهرجان أو اللباس الرسمي، كان على خدّام الغرف أن يتفاهموا فيما بينهم لانتهاز اللحظة المناسبة ليرتبوا له شيئاً ما فكان ينتزع أو يمزق كل ما كان يسبب له أقل انزعاج، وذات يوم تعرض خادم مسكين، سبب له انزعاجاً عابراً، لبرهان، عنيف وعملي، على غضبه.

وفي ميدان المعركة كانت له طريقة خاصة في إظهار نفاد صبره يعرفها جيداً رجاله. فعندما لا تسير الأمور كما يرغب ويقرر، يعبر عن توتره وانزعاجه برمي قبعته أرضاً في كل لحظة؛ فيسرع مساعده إلى التقاطها، فيضعها الأمبراطور بهدوء على رأسه... ليعود إلى الفعل نفسه بعد لحظة، إلى أن تصل فرق الجيش التي ينتظرها إلى مكان المعركة.

وكانت إحدى عاداته المستهجنة المألوفة استنشاق السعوط، ولكن كانت له طريقته الخاصة في ذلك. فلكي يقوم بذلك بسرعة أكبر (لأنه لم يكن يحب أبداً إضاعة وقته بفتح علبة سعوطه وإغلاقها) كان يضع سعوطه بلا ترتيب في جيب صدرته البيضاء؛ وفي لحظة تنقض قبضته، ومن هناك يتطاير قسم بين يديه في يديه وقسم في الهواء، بدون اهتمام بمن يكون بالقرب منه؛ فيتلقى هذا الأخير بعض الحبيبات في عينه، فلا يشعر إلا بأنه يعركها؛ والفلاح البلجيكي الذي كان دليل نابوليون في واترلو على كره ومضض، اشتكى، من جهة أخرى، من أنه كاد يصاب بالعمى من جراء السعوط الأمبراطورية التي يرميها نابوليون بلا مبالاة وبحركة سريعة، بدون النظر إلى من يحيط به.

وكانت لديه عادة أخرى مستهجنة إذ كان يضرب بسكينه أذرعة المقاعد في غرفة عمله، إما سهواً، وإما عندما يكون مشغول البال، الأمر الذي يجبره على تجديد أثاث مكتبه باستمرار. وروى شابتال[1] (Chaptal) في ذكرياته أن نابليون عندما يكون منشرحاً، يمضي وقته في مجلس الوزراء، بضرب المقعد الذي

---

(١) جان شابتال (١٧٥٦ ـ ١٨٣٢) كيميائي ورجل دولة فرنسي. كان وزيراً في عهد نابوليون بونابرت.

كان جالساً عليه، بسكينه، وبما أنه يحب العمل على مادة سليمة، كان يضطر غالباً إلى تجديد الأثاث التالف. وقد حرمتنا هذه النزوة الشاذة، بلا شك، من أثاث يشكل اليوم موضع فخر للعديد من جامعي التحف وخاصة إذا كان يحمل أثر المخالب الأمبراطورية.

وأحياناً، كانت يده المخربة تهاجم التحف، فقد روى شابتال أيضاً أنه رآه يتسلى بتحطيم تحفة، قطعة قطعة، عوضاً عن تسلية خفيفة، وهي تمثال صغير فاتن لفارس يعتبر عملاً رائعاً من إنتاج المعمل القديم في سافر[1] (Sevres) وأما أيام تعكر المزاج فيرتكب مجزرة. .

وعندما تنضج الفكرة، كما روى أحد أمناء سره، يبدأ بالسير ببطء في الغرفة التي يوجد فيها، ويسير على امتداد الغرفة، ويشرع حينئذ بالإملاء بصوت رزين وبارز ولكن لا تتخلله أية استراحة. والإلهام، ما دام قائماً، يذاع بنبرة أكثر حدة وبشكل مستهجن اعتاد عليه نابوليون، إذ كان يحرك يده اليمنى، فيلويها جاذباً بيده كم ملابسه. وترد التعابير بدون جهد لتؤدي رأيه. . .

وهناك عادة مستهجنة أخرى إذ كان يقطب حاجبيه، ويتلفظ بأصوات موجزة وغير واضحة. وعندما يشعر بضيق ما، تصبح هذه الحركات في الحاجبين أكثر تواتراً، ويتسع منخرا أنفه، وتومض عيناه. وفي أوقات أخرى يعدّل نفاد صبره وفق إيقاع الطبل، أو يدندن لحناً من أيام طفولته، أو من المرحلة التي كان فيها في أحد المواقع، ويحدث له أحياناً، بعد تناول الطعام، أن يشرد بفكرة، رأسه بين يديه وعيناه ثابتتان على السماط وجامدتان، ويغمغم لحناً عازفاً نغماته بقدحه. وتصبح هذه النغمات حادة ومتسارعة إلى أن يحطم القدح إلى مئات القطع إذ يجتاحه عنف فكرة ما باطنية. فيستعيد وجهه الهدوء. وكان ذلك علامة على أنه قد تخلص من جميع الأفكار التي ترهق ذهنه.

---

(١) مدينة فرنسية على السين مشهورة بمصنع للبورسلين.

وكان الانفعال، في حالات نادرة، على جانب من الحيوية والحدة كافياً للسيطرة عليه، وفي هذه الحال، يشعر بحركة بدنية خاصة: ارتجاج في الساق اليسرى يعرفه جيداً. ولم يكن هذا الارتجاف يحدث إلا في لحظات الضيق الشديد.

وفي أوقات أخرى، كان يُرى «وهو يفرك جبهته بيديه، ثم يضع أصابعه في فمه ويعض أطرافها بالشكل الأكثر اضطراباً وهيجاناً. لكن هذه المظاهرة نادرة. وعندما يكون حسن المزاج، يظهر حبوره بشكل غريب: يشد أذنيه، يقرص حدود وأنف وذراع الأشخاص الذين يحبهم، ذاهباً إلى حد صفعهم صفعة خفيفة ليبرهن لهم عن غبطته. وبهذا الشكل كان يتصرف مع برتيبه[1] (Berthier) وسافاري[2] (Savary)، ودوروك[3] وبعض مساعديه في ساحة الميدان والمعسكرات، مغدقاً عليهم في الآن نفسه نعوتاً مثل: حيوان كبير، أحمق، وغيرهما من الكلام المهين.

وقالت عنه السيدة دو رموزا (Rémusat) التي استطاعت ملاحظته عن كثب: لم يكن من النادر رؤيته منفعلاً إلى درجة ذرف بعض الدمع، ويبدو أنه نتيجة نوع من الإثارة العصبية التي تصبح حينئذ نوبة. وكان يقول: أعصابي ثائرة جداً، وفي هذه الحالة، إذا لم يجرِ دمي ببطء متواصل، أخاطر بأن أصبح مجنوناً. وأضافت السيدة دو رموزا في مذكراتها أن كورفيزار (Corvisart) أخبرها «أن شرايينه تنبض بشكل أقل من المستوى العادي لدى الرجال».

---

(١) لويس ألكسندر برتييه (١٧٥٣ ـ ١٨٢٢) ماريشال فرنسا.

(٢) آنّ سافاري (١٧٧٤ ـ ١٨٣٣) جنرال فرنسي كان وزير الشرطة في عهد نابوليون بونابرت.

(٣) ميشال دوروك (١٧٧٢ ـ ١٨١٣) جنرال فرنسي، والماريشال الكبير في قصر الأمبراطور، قتل قرب بوتزن.

وتعطينا السيدة دو رموزا أيضاً وصفاً لمشهد آخر، شديد التعبير ومميز، حدث سنة ١٨٠٧. «كان نابوليون يتهيأ لمغادرة مايانس[1] (Mayence)، تاركاً جوزفين وتاليران. وبسبب سفره بكت جوزفين كثيراً فأمسك الأمبراطور بزوجته الملتصقة به، واقترب من تاليران ماداً له يده، فأحاطهما كليهما بذراعيه وقال لتاليران: ولكن من الصعب جداً ترك الشخصين اللذين أحبهما أشد الحب. وازداد الحنان الذي يشعر به، وهو يردد هذه الكلمات، إلى حد كبير حتى تغلبت عليه الدموع، وفي الحال تقريباً تعرض لبعض الاختلاجات والتشنجات التي أصبحت على جانب من القوة سمح لها بالتسبب بتقيّئه. فتوجب إجلاسه، وحمله على شرب بعض ماء الزهر، فيما كان يذرف الدمع. ودامت هذه الحال ربع ساعة».

وروى كابانيس في كتابه: **الحياة الخاصة للأمبراطور**، أنه بعد التنازل عن العرش في فونتنبلو[2] (Fontainebleau)، وأمام اللفتات والهيجانات التي استقبلته في بروفانس[3] (Provence)، وطوال بضعة أيام بدا وجوده المعنوي مفككاً؛ وصعدت الغرائز الحيوانية إلى السطح، فخاف ولم يفكر في الاختباء والاحتماء من ذلك. ومع أنه استعار بذلة كولونيل نمساوي، وقبعة مفوض بروسي، لم يقتنع أبداً أنه متنكر بشكل كافٍ. وفي فندق كالاد (Calade) كان يرتعد ويتغير لونه عند أقل ضجة، ووجده دائما المفوضون، الذين صعدوا عدة مرات إلى غرفته، يبكي والدموع في عينيه. وقد أتعبهم بقلقه وهواجسه وتردداته، فتارة يقول إن الحكومة الفرنسية تريد أن يقتل في الطريق، وتارة يرفض الأكل إلى المائدة خشية السم، وطوراً يفكر في الهرب عبر النافذة. ومع ذلك كان يتحدث بطلاقة ويثرثر بشكل لا ينتهي عن ماضيه، عن طباعه دون تحفّظ ودون لياقة، بل بابتذال، ووقاحة وبشكل يرهق الأعصاب. وكانت أفكاره

---

(١) مايانس مدينة في المانيا.

(٢) فونتنبلو مدينة شهيرة فيها قصر رائع وقّع فيه نابوليون تنازله عن العرش في العام ١٨١٤.

(٣) مقاطعة كبيرة في فرنسا.

مشتتة وبعضها يدفع بعضاً بشكل غوغائي مثل رعاع فوضويين وصاخبين؛ ولم يصبح متحرراً منهم ومجدداً إلا في خاتمة الرحلة إلى فريجوس[1] (Fréjus)، عندما شعر بالأمان وأنه بعيد عن وسائل العنف.

وقد أكّد كل هذه الأمور الموفد البروسي الذي كان في عداد الرحلة، والذي ترك رواية ثمينة جداً عن هذه الرحلة الطويلة الكثيرة الأحداث بشكل فريد.

ولامبروزو، الكاتب الأول الذي قرّب العبقري من الجنون، وجد أن نابوليون كان يتصرف مع النساء مثل إنسان غريب قاسٍ دون ضمير أو قلب.

وقد أوضح الطبيب النفسي الإيطالي هذا أن تين قد وصف على وجه رائع طباعه، وهو طباع صَرْعي [أي مصاب بالصرع] وهو ليس كذلك حتى في أقل عاداته المستهجنة وخرافاته التي لا يعيدها لامبروزو إلى أصول الصرع بل هي، في رأيه، عائدة إلى صرع نفسي بنزواته، وجنون عظمته وأنانيته الوقحة وافتقاده الوجه الأخلاقي.

وادعى العالم بوظائف الأعضاء، فيريه (Féré)، أن النوبة لدى بعض المصابين بالصرع كانت تطلقها إفراطات شهوانية. وفي الواقع، إننا نعرف تقريباً ما تخبرنا به هذه الإفراطات الشهوانية المتعلقة بنابوليون، ليس بحسب الخبرة التحليلية النفسية وما تتيحه من تشخيص لديه فقط، بل أيضاً بوساطة مذكرات الآنسة جورج، الممثلة الشهيرة التي كانت، طوال سنتين، عشيقته الوديعة. وكان القنصل الأول يرسل خادمهم الخاص كونستان مساءً لإحضارها عندما يرغب في وجودها. وبحسب الآنسة جورج، كان نابوليون عاشقاً «ليس في حبه عنف ولا خشونة» إذ كان يحتضنها برقة ولطف، وكلماته عذبة ومحتشمة. فنحن بعيدون، كما يقول كابانيس عن الحبيب الجموح الذي يصوّر

---

(١) ممر جبلي في جبال الألب عند الحدود الفرنسية الإيطالية.

عادة شاناً الهجوم على امرأة كما فعل على مدينة سيغزوها ويحتلها.

ويمكن أن نضيف أن هـذا الحب، لأسباب أشرنا إليها مسبقاً، كان سطحياً أكثر مما كان عميقاً، بسبب تهرب نابوليون من النساء. وكان هذا الأمر يترجم على الأرجح بعمل سريع، موجز، بتخلص سريع من السحر، بحدة متناسبة كلياً مع فورات الحب، وأخيراً بوهن ينبغي أن يزداد مع الوقت، ويثير عنده العديد من الشكوك بخصوص قدرته على الإنجاب، وهي شكوك تعهدتها طويلاً جوزفين التي ينبغي أن تحسن استخدامها بمهارة، حتى اليوم الذي أثبتت فيه الأحداث أن هذه الوظيفة لم يتم القيام بها. فبعد الانسحاب من روسيا، أمضى الأمبراطور ليلة كاملة في غرفة ماري فالفسكا، في قصر فالفسكي في بولونيا. ومع أنه كان محروماً من النساء منذ أشهر، فقد أمضى هذه الليلة بالقرب من «زوجته البولونية» دون أن يلمسها وقد أدهشها ذلك كلياً.

والطبيب الجنرال، برايس أراد تفسير طباع نابوليون بوساطة أصله الكورسيكي. صحيح أن الطباع الكورسيكية، أو وفق تعابيرنا، ذاتهم الخارقة الوطنية تحتم لدى جميع الكورسيكيين، سلوكاً خاصاً بهم تقريباً: عناد، حقد، مزاج متسلط وانتقامي وفاء في الصداقات... الخ. ولكن يستنتج ذلك أن ذاته الخارقة تلزم قسراً الكورسيكيين في اتجاه غريب كما هي حال سلوك نابوليون. ويتحتم علينا أن نبحث في ميدان آخر عن أسباب توجه حياته وطباعه. ولنرَ في أية ظروف نمت وتطورت ذاته الخارقة العائلية. وها هو ما قاله برايس عن والديه في كتابه **سر نابوليون**: «كان والدا نابوليون قليلي الاهتمام به، والده بسببلامبالاته، وطيشه، وأمه لأنه لا يتوفر لها أي وقت فراغ. المحامي شارل بونابرت، كسول، ثرثار، غير راضٍ قط يمضي وقته بملاحقة الحظوات المختلفة الأمر الذي يرغمه على التغيب باستمرار. وهو مبذرٌ يحب الشهرة إلى حد أنه انتحل لقب كونت، ولم يكن يضحي في سبيل أنسبائه إلا بالكلام المعسول. وكانت زوجته ليتيسيا مرهقة من جراء العمل المتتالي. وهي إذ تزوجت في الرابعة عشرة، أنجبت ثلاثة عشر ولداً في تسع عشرة سنة، وقد تخلى لها شارل بونابرت عن عبء المنزل. فكان اهتمامها بتوازن ميزانية زهيدة

يرغمها على العمل في تدبير المنزل. وكان نابوليون الرابع بين أولادها. ولما لم تستطع تغذيته، عهدت به إلى كاميلّلا كاربون (Camilla Carbone) وهي زوجة البحّار أغوستينو إيلاري (Agostino Ilari). وقد حلت هذه الأم البديلة محل أمه. وكانت شديدة التضحية تجاه رضيعها الذي كان من المستحيل إبعاده عنها. وكانت تدافع عن الطفل الصغير في مواجهة قسوة السيدة ليتيسيا واعتراضات الجدة سافريا (Saveria) التي تغيظها شيطنة الولد. لأن أمبراطور المستقبل أظهر، منذ الصغر، عنف طباعه وخشونته. وكانوا يدعونه «الرابوليون» (Rabulione) وهي لفظة لا يمكن ترجمتها وتعني في الآن نفسه الصعب المراس والهائج. ووفق اعتقاد الأطباء النفسيين وأقوالهم، فإن عدم الطاعة مظهر مبكر لغريزة السيطرة...

لقد كان نابوليون ولداً ضعيفاً بائساً. فعند ولادته اعتقد الجميع أنه لن يعيش. ولكي يتحاشوا تكاليف تنصير رآه الجميع غير ضروري، اكتفى والداه بتنصير بلا رتبة. وبما أنه كان قد مضى على ولادته عامان، فقد عمد في ٢١ تموز ١٧٧١، في كاتدرائية أجاكسيو[١] (Ajaccio)، في الوقت نفسه الذي عُمِّدت فيه شقيقته ماري ـ آنّ. وجسده، ذو المظهر السقيم، نحيف يكاد لا يستطيع احتمال رأسه غير المتناسق. وهو لم يعانِ أمراضاً خطيرة، ولكنه تعرض لاضطرابات في الهضم، فكانت سحنته زيتونية وجلده جافاً. وما يهيمن في الذكريات التي رويت عن سنواته الأولى هو سرعة الغضب التي برهن على وجودها دائماً. وكانت طباعه من أصعب الطباع. ولم يدرِ أحد كيف يلاطفه، فهو يتذمر عندما لا يصرخ بأعلى صوته. ولأنه ميّال إلى نوبات غضب مفاجئة، يبدو عصبياً وعنيفاً عن قصد. وكبرياؤه الصبيانية مفرطة. فيضرب الأرض بقدميه ويبدي استياءه عندما يروق له الأمر.

ويضاف إلى هذا أنه يبدو من المشكوك فيه أن يكون الطفل مرغوباً فيه من قبل أمه. فقد كانت هذه الأخيرة حاملاً به زمن تمرد الكورسيكيين على

---

(١) عاصمة كورسيكا.

الفرنسيين. ورافقت السيدة ليتيسيا زوجها خلال هذه الغزوة التي قام بها أنصار باولي[1] (Paoli) الوطني الكورسيكي، ويقال إنها توصلت إلى إطلاق العيارات النارية في كمين. ودائماً عندما يولد الطفل، تجد الأم نفسها في وضع من أكثر الأوضاع تزعزعاً. فقد كتب نابوليون لباولي بعد ١٨ سنة: «لقد ولدت عندما كان الوطن على شفير الهلاك». إذ في ٩آذار١٧٦٩ سُحِق الكورسيكيون الذين كانوا يقاومون الفرنسيين في بونتي نويوفو (Ponte - Nuovo) وأرغم الديكتاتور الكورسيكي باولي على مغادرة جزيرته، وتعيّن عليه أن يلتجيء إلى انكلترا. وبعد ثلاثة أشهر من هذه الأحداث، عندما كان السكان جميعاً لا يزالون تحت تأثير الكارثة، ولد نابوليون، وكانت والدته، بعد بونتي - نويوفو بين الفارين، باحثة عن النجاة في الجبل، متعثرة على حجارة الطرق والدروب غير المطروقة في المنطقة، نائمة في الأدغال والمغاور. وكاد يقضي عليها ماء سيل كانت تحاول اجتيازه. وروى لويس مادلين في كتابه شباب بونابرت أنها كانت منهوكة، وقد فشلت للتو، مع رفاقها على مونتي روتوندو (Monte - Rotondo) حيث رضيت بالمقاومة أيضاً، ووقعت هناك مريضة. وكان الطفل الحاملة به وزناً ثقيلاً. وكانت تقول إنها، خلال هذا الانسحاب المؤلم والبطولي، شعرت به يتحرك بشكل عنيف. ثم وصف مادلان في ما بعد والدة نابوليون على الشكل التالي:

«كانت كورسيكية من جميع جوانب طباعها: فاضلة من غير احتشام، شريفة دون جهد، مستقيمة الرأي والضمير، ذهنها فطن، وحكمها صارم ورشدها رهيف. متدينة بشكل عميق من غير تعظيم؛ لكنها على جانب كافٍ من الجهل، فظة وقاسية مع أولادها الذين ربَّتهم بقسوة، ومحتفظة على ما يبدو بتساهلها للزوج الغريب الذي لا تشاطره الميول ولا المشاعر، لكنه الزوج ومن هو مثله، حر في أفعاله وبعيد عن كل نقد...

---

(١) هو باسكال باولي (١٧٢٥ - ١٨٠٧) الوطني الكورسيكي الذي ثار على الفرنسيين لكنه دحر عام ١٧٦٨.

يدها سريعة الضرب وقاسية، فأصلحت أولادها على طريقة الأمهات القديمات. وسيحتفظ نابوليون بذكرى جارحة من تأديباتها. مقتصدة إلى جانب زوج مبذر، وتعيّن عليها، من جراء ذلك، المبالغة في ميلها إلى التوفير الذي تغلّب عليها في نهاية المطاف، وحملها على هذا البخل الذي كان يجب أن يفرح يوماً العالم الأمبراطوري، فكانت تحسب وتتفنن، وتحرم نفسها وتسد الثقوب، وإذا لم تدّخر، فذلك لأنه لكي تدخر بتدبير ينبغي أن تكون اثنين لتقوم بذلك. ومع ذلك يصل حب النظام إلى حد القسوة، ولم تكن تغضّ طرفها إلا عن فوضى زوجها. ويمكن أن نتصور، مع ذلك، أنها كانت تتألم من ذلك، لكن أحداً لا يعلم هذا الأمر.

بماذا نستطيع الاحتفاظ من هذه الأوصاف لتكوين فكرة عن نزعات الطفولة الأولى لنابوليون؟ ما هي نقاط الاستدلال لتشخيص ظلمات النفس، التي تكلمنا عليها والتي يتوجب على الولد اتقان السيطرة عليها؟ وماذا نستطيع أن نستنتج بالنسبة الى ما يتعلق بتكوين ذاته الخارقة العائلية؟

من الأكيد أن نابوليون الصغير، كان ضعيفاً وسقيماً إلى حد تردد معه أهله بدفع تكاليف تنصيره، وتحتمّ عليه مواجهة صدمات متعددة سببت ردات فعل قد تكون مماثلة لردات الفعل التي لاحظناها لدى أولاد هؤلاء الأمهات العُصابيات أو الفاقدات الشهية اللواتي تكلمنا عليهن في الفصل المخصص للحياة الجنسية الأنثوية. وليس من شك في أن الظروف، ومنذ البداية، بدت معاكسة للطفل، فقد كان الجو العائلي مضاداً له، إذ كانت لحظة ولادته سيئة الاختيار. فقد ولد في وقت غير مناسب وبالتالي كانت أمه بلا شك عدائية نحوه. وأوصاف شخصية هذه الأم، التي قدَّمها إلينا مختلف الكتّاب، تصورها لنا كامرأة رئيسة، قاسية مع أولادها، مقتصدة حتى البخل، فخورة، مستقيمة في مسلكها، ولاحقاً، لم يجرفها قط، بالفعل، حماسة الجماهير لابنها. ولم تحضر حفلة التكريس الأمبراطوري. وكانت تقول: «بشرط أن يدوم هذا»، فهي متشككة، ويذكرها الجميع كامرأة مهيبة، لا تنحني أمام أيٍ إنسان. وقد قال لها الأمبراطور: أمي، اسهري على صحتك، فإذا متّ لن يمتلك أي

شخص سلطة علي. وقال عنها في جزيرة القديسة هيلانة: سيدتي الوالدة كانت مقترة جداً: وهذا مضحك، فقد ذهبت إلى حد أن أقدّم إليها مبالغ كبيرة كل شهر إذا قبلت صرفها وإنفاقها، وقد رغبتْ بكل تأكيد في أخذها ولكن بشرط أن تكون حرة في الاحتفاظ بها.

والسيدة ليتيسيا، عندما كان عليها أن ترسل الى ولدها، المريض في جزيرة القديسة هيلانة طبيباً قادراً على العناية به، أرسلت إليه، لكي لا تضطر إلى دفع تكاليف باهظة، شاباً عالماً بالتشريح ، هو الدكتور أنتو ماركي (Antommarchi) الذي لم يكن يمتلك أية خبرة حقيقية، والذي توجب عليه أن يبدو خاصة مساعداً جيداً لهدسون لو[1] في تعذيب الأسير الذي عهد إليه، بشهور، بمصيره.

ويخبرنا كابانيس عنه فيقول: أنتوماركي يبدو في الواقع متحلياً بالكفاءة ومعجباً بنفسه. وقد نجح على حد قوله ومنذ الثامنة عشرة من عمره كدكتور في الفلسفة وفي الطب في جامعة بيز[2]، ولاحقاً كطبيب في الجراحة في الجامعة الأمبراطورية!. ولكن لم تكن قط هذه الكفاءات هي التي حملت فيش[3] (Fesch) والسيدة الوالدة على اختياره، إذ يبدو على الأرجح أنه اختير بسبب جنسيته الكورسيكية، ومطالبه الأكثر من متواضعة: ألم يرضَ بالذهاب إلى جزيرة القديسة هيلانة براتب سنوي قدره ٩ آلاف فرنك في حين أن فورو (Foureau) طالب بـ ١٥ ألفاً، أوميرا قبل لقاء ذلك العمل بـ ١٢ ألف فرنك؟ وبما أننا نعرف بخل والدة نابوليون الكريه، فإن المسألة محلولة. ونود أن نضيف إلى كل هذا أن النساء الجليلات، المستقيمات والمتشددات في النظام هن عادة مسترجلات جداً، وعفتهن لا تترك، بحسب خبرتنا، إلاّ القليل من

(١) حاكم الجزيرة المعادي لنابوليون.

(٢) مدينة إيطالية، فيها البرج المائل المشهور والمعروف ببرج بيزا.

(٣) جوزيف فيش (١٧٦٣ ـ ١٨٣٩) خال نابوليون، كاردينال وأسقف ليون.

المساحة للإحساس الأنثوي والأمومي، مهما كان عدد الأولاد الذين يمكن أن يعتبرن أن من واجبهن إنجابهم. وعند دراسة هذه الطبائع عن قرب، نجد وراء الظاهر الرخامي كائناً مختلفاً تماماً عن ذاك الذي ننتظر اكتشافه، وكما رأينا سابقاً، المرأة المتسلطة هي عادة عدوة الرجل الفحل، تفضّل من جراء هذا الخصاء المعنوي لابنها، وبدقة أكثر تقول إنها تريد ذلك بقدر ما تمنحها عفتها وبرودتها سلطة أكيدة وفعالة. فالسيدة الوالدة، الأم العتيقة، كما كان يدعوها نابوليون، لا يبدو أنها قد أفلتت من هذه القاعدة. فحبها الشديد للواجب كان يتيح لها الامتناع وحرمان النفس من أي استسلام فرح، وتستطيع أن تسهم على الوجه الأكمل في أن تخلق لدى ابنها هذا الامتناع عن التمتع بحياته التي كانت مميّزة جداً بسلوكه. وإلى جانب هذا، من الممكن أن تكون السيدة الوالدة قد شجعت دائماً عدائية العائلة، تجاه نابوليون. فعندما وجد هذا الأخير نفسه وحيداً، بعد التنحّي عن العرش، مهجوراً من الجميع في فونتنبلو، كانت والدته تمر في المنطقة ذاهبة إلى ايطاليا، ولم تتوقف لرؤية الأمبراطور المخلوع الذي كان، في هذه اللحظة أكثر من أي لحظة أخرى، ينبغي أن يعود صغيرها «الرابوليون» السابق، ابنها التعس الذي يحتاج إلى التعزية والتشجيع لكي يستطيع مقاومة الانتحار الذي يراوده.

وفي جزيرة إلبا، حيث ذهبت لرؤيته، أعترف له بمشروعه، ليلة الإبحار إلى فرنسا، مغامرة ستنتهي حتماً في واترلو وجزيرة القديسة هيلانة. وهي، الأم التي لم تؤمن قط بجلال العهد الأمبراطوري والتي تنبأت دائماً بنهايته، ومع ذلك لم تثنه عن عزمه. وبالإضافة الى ذلك، بدلاً من نصحه بالاعتدال والتعقل قالت له: دعني أنسى أنني أمك... اذهب واتبع قدرك. وذهب نابوليون، وتبع قدره في التضحية. ألم يكتسب نابوليون، من خلال علاقته بهذه الأم، هذا الميل المشؤوم الذي يرتكز على الرغبة في التصالح مع من هو معادٍ له، وفي التحالف مع من هو ضده؟ أليست عائلته هي التي دفعته إلى الوقوف ضد نفسه، بخلقها لديه ذاتاً خارقة خاصة، من جراء أخذه على عاتقه سلوك عائلته تجاهه؟ والعائلة التي أخذ على نفسه لاحقاً أنه فضّلها على نفسه، والتي

أسهمت بالتسبب بخسارته بمساعدتها أعداءه، هذه العائلة التي برهن عن الكثير من الضعف تجاهها، أليست هي التي سعى إلى كسبها، إلى إنقاذها بكل ما لديه من قوة وقدرة كعسكري، كمخلص فادٍ» لماذا هذا الاهتمام الدائم بإسعاد هؤلاء وأولئك، بتأمين مركز لهم بالقرب منه، بإغداق نعمه عليهم، بجعلهم أمراء وملوكاً وملكات؟

وفي الحقيقة، إن ذاته الخارقة الوطنية الكورسيكية هي التي دفعته، على الأرجح، في هذا الاتجاه الإلزامي، إذ لا يكون المرء كورسيكياً دون أن ينتمي إلى عائلة. على حد قول المفوضين الفرنسيين في مذكراتهم إلى الجمعية التأسيسية[1]. إذ ذكروا ما يأتي: «يسود في هذه الجزيرة تعصُّب عائلي يربط إلى حد بعيد أعضاء العائلة بعضها ببعض، بحيث إن عواطف فرد واحد وأعماله تصبح متكافلة ومشتركة للجميع، وينجم عن هذا أن رجلاً ما، ما إن يصبح في مركز مرموق، حتى يحاول كل شيء، ويسمح لنفسه بكل شيء لتوظيف أقربائه كلهم فوراً». وأضاف الألماني غرغوروفيوس إلى هذا فقال: «لدى الكورسيكيين، كما كان قديماً لدى الهيلينيين، الحب الأخوي هو الشكل الأكثر سمواً ونقاوة من الحب، ففي نظرهم العلاقات بين الإخوة والأخوات مقدسة واسم الأخ والأخت يعبر عن النعمة الأسمى للروح، غناها الأكثر نبلاً أو خسارتها الأكثر إيلاماً. إن هذه الذات الخارقة، إجمالاً، ذات خارقة مستمدة من الأسلاف، إنها ذات القبيلة، وقد تعود إلى منشإ الحضارة في كورسيكا، وهي إذ رسَّخت فيها خلال قرون طويلة، استعبدت الكورسيكيين بشكل استبدادي تقريباً. ولكن من الصحيح أن الذات الخارقة نفسها، التي ينبغي أن تكون ذات والد نابوليون وإخوته، بدت عند أولئك أقل حدة للغاية.

---

(١) جمعية ثورية خلفت المجلس التشريعي في العام ١٧٩٢، وأعلنت الجمهورية وأعدمت لويس السادس عشر، تفرّقت في العام ١٧٩٥ لتفسح في المكان لحكومة المديرين (الديركتوار).

لقد ذكر برايس أن نابوليون كان مزدرياً في ميدان قيمة إخـوته. فمخيلتـه الودية كانت تعزو إليهم كفاءات لم يكونـوا يمتلكونهـا. وهم، إذ حصلوا على مقامات لا يستحقونها، كـانوا جنـرالات يرثى لهم، ودائمـاً مستعدين للعـرض والتبختر، وغير مستعدين أبداً للقتال. وسواء أكانوا دبلوماسيين أم وزراء، فهم لا يهتمون إلا بالأرباح الفاضحة المشينة. لقد كانوا في الحقيقة متشدقين دون أفكار، سياسيين مفسدين، مؤلفين فاشلين أغنياء بالأفكار المبتذلة؛ باختصار، عاجزين عديمي الأهلية. فجعل منهم ملوكاً.

إن هذا الرأي، السريع والأحادي الجانب إلى حدّ ما، يبدو أنه صـار في نهـاية المـطاف، رأي نابـوليون. إذ قـال يـومـاً لبـوريين[1] (Bourrienne): في الحقيقة، إذ أستمع اليهم، أنني قد أكلت ميراث أبي. وقـال في ما بعـد في جزيرة القديسة هيلانة: لقد أحرجوني لأنهم قلّدوني. وفي العام ١٨١٣، أسرّ لـرودرر (Roederer) بقولـه: إن أحـد أخـطائي هـو أنني اعتقـدت أن إخـوتي ضروريون لتثبيت سلالتي الحاكمة. وأكّد ستندال بفظاظة: لقد كان من الأكثر إسعاداً لنابوليون أن لا تكون له عائلة.

ولخّص بـرايس نزاعـات نابـوليون مـع عائلتـه على الشكـل التـالي: من ميـزات هذه العـائلة الإسراف. فحـاجاتهم تتجـاوز شراهتهم، وليس لهـذه الشراهة حدود. فبعد أن بددوا مالية دولهم استغلوا طيبة نابوليون، ولم يعترفوا بأي فضل لكرمه، فمن الواجب عليه إعطاؤهم كل شيء. وبالمقابل لم يمنحوه إلا الهموم. فناوأوا سياسته برعونتهم أو بعجزهم. وقد كدّروا حياته بفضائحهم أو بخلافاتهم. فتحتّم عليه تأنيبهم بخشونة أو السخرية منهم بشكل قاسٍ؛ لكن هذه السخرية لم تستطع إخفاء عاطفته العميقة. وعندما استمروا في معاندته، وجد نفسه مضطراً إلى معاملتهم كمتمردين. فكان يمضي من خيبة إلى خيبة.

---

(١) لويس دو بوريين (١٧٦٩ ـ ١٨٣٤) ضابط فرنسي، كان سكرتير نابوليون بونابرت.

وفي العام ١٨١٠، في أوج قوّته، كان نابوليون يخوض نضالاً علنياً مع إخوته؛ لكنهم دعموه كي لا يخطر ببال أوروبا، عند رصدها، سوء تفاهمهم.

ماذا نستنتج من هذا؟ من المؤكد أن وضع نابوليون تجاه إخوته وأخوانه فيه شيء ما خاصّ تماماً. فكان يدّعي حقوقاً وهالات من الاحترام، إذ يعتقد أنه سيد العائلة المطلق. فكان يضطهدهم، وخاصة لوسيان. فبدلاً من أن يدعه ينظم حياته كما يشاء، ألح، وبأي ثمن، على ضمه إلى مجده الذي يقود إلى الكارثة. وقد هدد، بخصوص زوجة لوسيان التي لم يرد سماع كلمة عنها: «إذا لم يترك لوسيان هذه المرأة، يتعيّن عليه الذهاب إلى أميركا. وإلّا فليتوقع أن يتم توقيفه وأن يموت في السجن. قد يقال إن هذا عمل استبدادي، طغياني، فليقل كلُّ ما يشاء. لكن لي على هذه العائلة حقوق الحياة والموت. وسأمارس هذا الحق عندما تتطلبه سياستي. . » ولوسيان هو نفسه الذي أنقذ نابوليون في ١٩ بروميير، وجد نفسه مضطراً إلى مغادرة فرنسا للهرب من انتقام الأمبراطور الذي لم يستطع القبول بأن أحد إخوته يضحي بالسياسة النابوليونية في سبيل حياة عائلية من أجل امرأة. فلماذا هذا الطغيان، لماذا هذا الادعاء، هذه الحاجة إلى ربط كل إخوته إلى العربة نفسها ومنعهم من امتطاء حصانهم الخاص ومحاولة النجاح بعيداً عنه؟ أهكذا يكون تعلقه بإخوته، وهذا التعلق نفسه أليس تعلقاً ناجماً عن تعلق بالأب؟

في الحقيقة، نجد أنفسنا هنا أمام سمة من الطبع المَرَضي المشترك بين نابوليون وبين الذُهانيين. ونحن نعرف أن الذُهانيين تراودهم ادعاءات ومطالبات بنظام خاص، يجعل منهم مضطهَدين ـ مضطهِدين. ولكن من هي الضحية التي استبسل ضدها نابوليون، والتي سعى إلى إسقاط كل أخطائه عليها؟ لقد رأينا في ما سبق من الصفحات كم كانت سياسته تجاه انكلترا تبدو غير مفهومة، وغير منطقية، كما يفهم من ملاحظات برايس عن هذه المسألة. ولنتذكر أنه لم يتردد في التأكيد بأن هذه السياسة تُظهر «الآثار المتعاقبة لنضال بين عقله وتيار روحه السري. فحكمته تحثه على الاستسلام والخضوع وصوت اللاشعور الطاغي يمنعه من ذلك. . .». فهل بمقتضى هذا الادعاء الذُهاني اتهم نابوليون

انكلترا بأنها الجلاد الذي يرفض السلام معه، في حين أنه كان قادراً على إحلال ذلك السلام وكانت انكلترا تطلبه؟ أبهذا الشكل تفسّر السياسة المشؤومة للحصار وللتحالفات مع النمسا وروسيا ضد انكلترا؟ ألهذا السبب لم يتبقَّ لنابوليون، بعد أن حرم من جيشه، مخرج آخر غير الموت ـ الموت من أجل قلب الأدوار حتى النهاية والظهور كمضطهدٍ، في حين أن موته الشخصي، ربما كان الوسيلة الأخيرة التي استخدمها اضطهاده لبلوغ «انكلترا المخادعة»؟

لقد سعى إلى هذا الموت. فبعد تجربته في جزيرة إلبا، ماذا تستطيع انكلترا أن تقدم، انكلترا المجرّحة بوحشية من جراء عشر سنوات من الحروب المتلاحقة، إلى سجين بلليروفون[1] (Bellérophon)؟ لقد سوّلت لها نفسها ضربه لكنها لم تجد الشجاعة الكافية لقتله. فكيف يتصرف ليتهم انكلترا بأنها قد قتلته؟

لقد لاحظ نابوليون تطورات وضعه السيّىء في جزيرة القديسة هيلانة. وتنبأ بموته بوضوح مذهل، في حين أن جميع الأطباء، وطبيبه من بينهم، تكلموا على مرض خيالي، لقد شعر باقتراب الموت منه لأنه يحتاج إليه. فبأي فرح يحسن استخدام اللحظات الأخيرة من حياته ليملي وصيته على مونتولون[2] وعلى مارشان وهو الذي كان في السابق يوهن عزمه دون الرغبة في العمل «ضخماً وسميناً مثل راهب» بحسب تعبير طبيب انكليزي! ولكن كان ينبغي عليه أن يكسب معركته الكبرى الأخيرة ضد العدو.

---

(١) بطل أسطوري قضى على الوحش المدعو الخيمايرا ثم انتصر على الأمازونات. وفي النهاية ظن بلليروفون أنه آله فركب حصانه المجنح وصعّد في السماء فأرسل رب الأرباب زيوس ذبابة من ذباب الخيل ضايقت حصانه فسقط عنه وفقد بصره وهام على وجهه في الحقول.

(٢) هو شارل تريستان مونتولون (١٧٨٣ ـ ١٨٥٣) جنرال فرنسي، صحب نابوليون إلى منفاه في جزيرة القديسة هيلانة.

وهكذا استطاع إملاء هذه الكلمات: «إنني أموت قبل الأوان قتيلاً على يد الأوليغاركية الإنكليزية» في حين أن كل من يحيط به لم يكن يفهم بعد شيئاً من مرضه وأن جميع الأطباء قاموا بتشخيصات ممتازة. وعندما اقترب منه هذا الموت الذي لمحه غالباً في ساحات المعارك لكنه احتقره دائماً، عندما اقترب منه أخيراً، لم يُخضِعْه. بل خضع هذا الموت نفسه لإرادة جبارة نجحت، بفضل هذا الموت، في إسقاط ثقل الاغتيال على الخصم وإصابته بشكل مميت. وبعد سنة من وفاة الأمبراطور، انتحر اللورد كاستلراي (Castlereagh)، رئيس الحكومة الانكليزية المسؤول عن سياسة جزيرة القديسة هيلانة، بقطع حنجرته بموسى. فهل انتصر نابوليون في النهاية بوساطة موته؟ وهل كانت ذكراه على جانب كافٍ من القوة لمتابعة ضرب بريطانيا؟ إن النهاية المحزنة لهدسون لو، حاكم الجزيرة، معروفة. وسنشدد على نضاله مع شبح الأسير، هذا الشبح الذي أتقن ببراعة كبيرة إنجاز أهداف سيده ومتابعة نضالاته، ليس في ساحات المعارك، بل في نفوس الناجين من المأساة.

وادعاء نابوليون هذا، هذه السمة لطبع الذُهاني، ما هو سببها، وأصلها؟ إننا نجد هنا إحدى المسائل الغامضة لطب الأمراض النفسية. ولنحاول مع ذلك اختبار تفسير ما.

كما عرضنا سابقاً ووضّحنا، إن اضطرابات التغذية والفطام في حياة الرضيع بإمكانها المشاركة في تكوين الطبع الذُهاني. فالأم لم تستطع تغذية طفلها، لكنها ألحت على القيام بذلك رغم مصاعبها. وقد ردّ الطفل على هذا الحرمان من التغذية باضطرابات خطيرة. فقد تألم ولم ينمُ. وفي النهاية، أخذ على عاتقه، بشكل ذات خارقة، سلوك أمه العاجزة عن تغذيته كما ينبغي. وردّ على جوعه بمشاعر بالذنب عنيفة، كأنه كان محرَّماً. وأصبحت شهيته متقلّبة وفي الحالات الخطيرة اختفت كلية. إذ أصبح الأكل حينئذ بالنسبة إلى الذات الخارقة للطفل المعادل لعدوانية مذنبة، لجريمة ينتحر من جرّائها بعض الكئيبين السوداويين، في حين أن الذُهاني ينجح بفضل ضحيته في النجاة، مع الاستمرار تماماً في معاناة نزاع مرعب مع ذاته الخارقة، وتميل هذه الذات

الخارقة إلى منعه من التمتع بحياته وتود الحكم عليه بالموت، ويطالب «الهو» لديه بحقه في الحياة ويحتج ضد الحرمانات التي فرضها عليه محيطه وظروفه من جهة، ومن جهة أخرى فرضتها الذات الخارقة التي وجد نفسه في حرب معها. ونعتقد أننا لن نمتلك الفرصة للتآلف مع بؤس وعظمة الطبع الذُهاني بمجرد فهم هذا النزاع البدئي.

ولنتذكر ما قلناه بهذا الخصوص في الفصل الخامس من هذا الكتاب: «إن الفرد، بفعل تهديد ذاته الخارقة، هو في الآن نفسه وبشكل دائم مرعوب ومتمرد... ولكن لأنه ذكي وموهوب، يتعلم كيف يصطنع لنفسه أسلحة ضد القلق والذنب. وسيطوّر ذكاء خاصاً استثنائياً موجهاً خاصة نحو هدف وحيد: تهدئة إحساس مصدوم ومشوش بشكل عميق، والدفاع عن النفس في وجه اضطرابات وجدان مقيّد بمرحلة بدائية كلية من تاريخه. ونضيف أن هذا الذكاء الفريد قد يظهر بوساطة ما ندعوه عبقرية، عندما يظهر لدى فنان بوساطة موهبة الإدهاش ولدى قائد مثل نابليون بوساطة موهبة القيادة.

فأية مقابلات يمكننا الآن القيام بها بين النزاعات التي وصفناها للتو وبين نزاعات نابوليون؟ وماذا نعرف عن طفولته لتفسير وجود سمات الطباع الذهانية لديه؟

من المرجّح أن نابوليون كان طفلاً وُلد قبل أوانه وتعرّض للعديد من الصدمات، وربما مذ كان في أحشاء أمه. ونحن نعرف في أية ظروف حملت به أمه. أوَليس من العجب أيضاً أن السيدة ليتيسيا لم تتوقع ولادته عندما ذهبت لحضور القدّاس في كاتدرائية أجاكسيو، التي تعيّن عليها العودة منها بسرعة، لتصل في الوقت المناسب تماماً للوضع والتوليد. ولم تستطع الأم إرضاع طفلها. ونحن لا نعرف المآسي الصغيرة التي قد يكون خلقها هذا الواقع الأكيد، مع العلم أن الطفل المولود قبل أوانه بشكل خاص، من الصعب إرضاعه، ويحتاج الى الكثير من العناية. وقد عدل أهله عن تعميده للتوفير، لأن الجميع اعتقدوا أن المولود الجديد لن يعيش، فاكتُفِيَ بتعميده دون رتبة،

ونعتقد أن هذا الأمر يعطينا بشكل جيد فكرة عن الظرف والجو اللذين أحاطا بمولد الطفل. لقد وجدوا له مرضعة، لكن هذه المرضعة لم تتغلب بسهولة على اضطرابات الهضم التي ظهرت لدى الطفل. ففي أية ظروف نما وترعرع؟ لا يعرف ذلك بدقة أي شخص. لقد كَبُرَ ولكنه ظلَّ «سقيماً ورقيقاً وسريع الغضب». وقد حمته المرضعة من قساوة أمه وجدّته. وكانت هاتان الأخيرتان غير مفهومتين بالنسبة إليه؟ فطوال حياة نابوليون، أظهر هذا الأخير عرفاناً كبيراً بالجميل تجاه مرضعته الطيبة. أليس بالقرب منها تعلم كيف يكون سعيداً في وسط بسيط؟ وهل في مواجهة أمه المتسلطة والصارمة نما هذا الحقد الأصم الخفي الذي يظهر على شكل ادعاءات وعداوة تجاه النساء، وبشكل خاص النساء المتسلطات، مثل مدام ستال[1] (Staël)؟ فهل هذا الادعاء، الذي نقله لاحقاً ضد بريطانيا، سيدة البحار، هو الذي قاده بوساطة الحصار البري القاري الى الرغبة في جعل أوروبا مستقلة عن الوصاية البريطانية؟ من الممكن التساؤل عن ذلك.

ما يبدو لنا مؤكداً هو أن تجارب طفولته الأولى قد حدّدت اتجاه شخصيته وعبقريته. إن مصائب طفولته هي التي خلقت لديه قوة الايحاء الفريدة هذه التي تميّز فكره، وقررت التغلب على كل أنواع الضعف البشري، واختلقت هذه الإرادة الفولاذية التي كان يستمد منها شعوره بالقدرة الكلية، هذه الإرادة الفولاذية الضرورية لعدم الغرق في نزاع مميت. وبهذا الشكل نما هذا الذكاء الخارق لدى الرجل الذي اعتاد منذ مطلع شبابه على ملامسة الخطر والموت، وابتعد عن دروب النمو المعهودة ليحطّم أطر الامتثالية[2] ويتوجه نحو مسالك جديدة، غنية بالتجارب والمعارف.

---

(١) اسمها الحقيقي جرمين نكير (Germaine necker) أديبة فرنسية ألّفت عدة روايات ومارست تأثيراً في الرومانطيقية الفرنسية.

(٢) الامتثالية نزعة للتقيد بالأعراف المقررة.

الخطر، الموت، لقد أنكرهما بالارتماء الى الأمام، كما فعل على جسر أركولي، والموت المذعور ترك هذا الجنرال الشاب يسير أمامه كي لا يقترب منه إلا مدجَّناً في جزيرة القديسة هيلانة. وهكذا انبنت هذه الشخصية الفريدة، التي كانت إرادتها قادرة على الهجوم، بلا انقطاع، دونها ضعف ودونها خوف، على كل المشاكل وكل الصعوبات، مهما كانت درجة تعقيدها أو مظهرها المرعب، للسيطرة عليها بوساطة نضال ضارٍ، بمجابهة متواصلة ليلاً ونهاراً.

وهكذا وُلد هذا الفكر المدهش الذي يميز العسكري ورجل الدولة والفنان والعالم وعالِم النفس الفذ نابوليون، وهكذا أيضاً تكوّن هذا الإدراك الثاقب الذي لم يكن يكتفي، للتغلب على العدو، بمزايا الرجل والمقاتل بل استفاد من الأسلحة الرهيبة للإهواء الأنثوي الذي سمح له بأن يصبح الأكثر فتنة، والأكثر مكراً، والأشد سحراً من بين الخصوم، والأكثر جاذبية بين القادة، بالنسبة الى جنوده. ولنتذكر بهذا الخصوص وصف بونابرت على جسر أركولي الذي قام به مرجكوفسكي الذي شبّهه بفتاة شابة.

إن دراسة روسو وروبسبيير ونابوليون والتمعن في طباعهم وأعراضهم المَرَضية قد أدخلانا في ميدان يجهله العديد من الناس. وقد رأينا عمل القوى الخفية التي تقود العالم والتي ليس كل الأشخاص، حتى الأكثر قدرة والأكثر إرادة، إلا أدوات لها. وقد تبيّنا لدى نابوليون وجود أوالية إلغاء ترغمه، لأسباب باطنية، على تغيير كل انطباعاته، وعلى مخالفة حركته الأولى، وعلى استنكار عمله ما إن يتم هذا العمل وينجز. كان بشكل منتظم، عندما يعبّر عن رأي في أحد مقرّبيه، يناقض نفسه على الأثر، ويتراجع عن حكمه الذي لا يمتلك القوة للدفاع عنه حتى النهاية.

إننا نعرف ما هو رأيه في جوزفين. ولكن هذا الرأي لم يمنعه من القول أيضاً عنها إنها كانت على وجه الإجمال تمنح لزوجها السعادة وكانت على الدوام تبدو حبيبته الأكثر رقة وحناناً، مجاهرة في كل لحظة وكل مناسبة بالطاعة والإخلاص والمجاملة الأكثر مثالية. وقد قال هذا الكلام بعد أن تحقق من

سلبيتها وفوضاها في الإنفاق ونفاقها وأنانيتها. وتصرّف على الشكل عينه بالنسبة الى أمه. فبعد أن انتقد كثيراً وبحق بخل السيدة ليتيسيا. أضاف قائلاً: ومع ذلك، إن هذه المرأة التي كان من الصعب جداً انتزاع فرنك واحد منها، قد قدّمت الكثير لإعداد عودتي من جزيرة إلبا، وبعد معركة واترلو أعطتني كل ما كانت تملكه. ونعرف اليوم أنه كان مخطئاً في العدول عن طريقته الأولى في التفكير، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأمه التي، بدلاً من تقديم فرنكها الأخير لإنقاذ ابنها، أرسلت اليه، من جراء رغبتها في التوفير، كطبيب الى جزيرة القديسة سانت هيلانة، شاباً عالماً بالتشريح قادراً تماماً على القيام بشكل مناسب بتشريح جثته.

لقد تكوَّن بهذا الشكل العبقري الذي التقته فرنسا الديركتوار (حكومة المديرين) في طريقها، وفرنسا هذه المترنمة تحت ثقل الذنب الذي خلفه تدمير النظام القديم، كانت قد أصبحت عاجزة عن إقامة نظام جديد. فرنسا هذه الغارقة في البلبلة، المتشاجرة مع جيرانها، مع تقاليدها ودينها، أمسكها بيده؛ هذا البلد المحطم روحياً، الممزق، وربما الذي هو على وشك الانهيار على نحو محزن، فأمّن له وحدة القيادة والحكومة والسياسة ليعيد اليه شخصية جديدة، وكل هذه الأمور تمت بالوسائل نفسها، وبالأسلحة نفسها التي سمحت له بمنع غرق شخصيته الخاصة في نزاعات تولّد، لدى الفرد، الجنون. مخلّص فادٍ، لقد دفع، من أجل فرنسا التي أحبها جداً، الثمن الذي استوجبه انبعاثها الوطني. وأخذ على عاتقه نقل كره أعداء وطنه، وحرره بالتكفير عنه، واشترى له في العام ١٨١٥ السلام الذي ترك فرنسا سليمة، بعد أن تم اجتياح أراضيها على جميع الأصعدة. لقد أتاح فشل نابوليون، لفرنسا، النجاة في حين أنها كانت محكومة بالفشل في كل ما صنع إشراقها منذ الثورة الفرنسية.

لقد سعى نابوليون الى هزيمته من تلقاء نفسه، وفي ما يلي نعرض محطات هامة من تاريخه تؤكد ذلك:

لقد ذكر الطبيب الجنرال ر. برايس في كتابه **سر نابليون** أن معاهدة أميان[1] كرست التنازل عن مصر ومالطة[2] والجزر الأيونية[3]، لكنها اعترفت بضم الفلاندر[4] والمقاطعات الرينانية[5]. وكان ذلك الأمر نجاحاً مشرّفاً جداً للديبلوماسية الفرنسية. وكان نابوليون يحتاج الى هذا النجاح لتمتين وضعه السياسي. فاستمد منه المنفعة التي ينتظرها. وحكومة القناصل، التي مددت أولاً عشر سنوات بوساطة مجلس الشيوخ بحجة التعويض الوطني، قد حُوِّلت بعد استفتاء عام إجماعي تقريباً إلى حكومة قناصل لمدى الحياة في الرابع من آب ١٨٠٢.

وما إن أمَّن نابوليون الدوام والاستمرار، حتى لم يعد يعتبر صلح أميان إلا هدنة. إذ كان قد قرر استئناف الأعمال الحربية، ولكنه، لكي يؤمن لنفسه الرأي العام في فرنسا وفي أوروبا، حرص على تحميل انكلترا مسؤولية القطيعة والتصدع في العلاقات. وقد سعى عبثاً إلى تفسير سلوكه، إذ كان هذا السلوك متناقضاً ظاهرياً إلى درجة أن بعض الكتّاب الانكليز اتهموا حكومتهم الخاصة...

ففي الواقع كان نابوليون المسؤول الوحيد عن تصدع العلاقات. ولكي يتوصل إلى ذلك أثقل الجنرال أندريوسّي (Andréossy)، سفير فرنسا في لندن،

---

(١) مدينة فرنسية في مقاطعة بيكاردي أُبرمت فيها معاهدة سلام في العام ١٨٠٢ بين فرنسا وانكلترا واسبانيا وهولندا.

(٢) مالطا جزيرة في البحر الأبيض المتوسط بين جزيرة صقلية وقارة إفريقيا، وهي دولة من دول الكومنولث.

(٣) الجزر الأيونية مجموعة من الجزر اليونانية في البحر الأيوني من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأيوني يمتد بين ايطاليا الجنوبية واليونان.

(٤) الفلاندر من البلاد المنخفضة، تقع بين بحر الشمال وأسكو السفلى وأرتوا. كانت مسرحاً لمعارك عنيفة خلال الحرب العالمية الأولى.

(٥) نسبة إلى رينانيا وهي مقاطعة في غربي ألمانيا.

بشكواه، وكان يستغل أي شيء للشكوى: مقالات النقد البذيئة الموجهة ضده ـ مثل بوناي (Boney) المشاغب الكورسيكي القصير، مسلح بسيف كبير ـ ووجود المهاجرين، وتجمعاتهم واجتماعاتهم، وحتى حمل أوسمة النظام القديم كان يعتبرها إهانة لحكومته. وكلّف أندريوسي الاحتجاج رسمياً على الاحتفاظ بحامية انكليزية في مالطا بالرغم من شروط المعاهدة، مع العلم أنه سمح لنفسه بعدم الجلاء عن هولندا، وألحق للتو بييمونتي[1]، واحتل سويسرا بوساطة جنود ناي[2]. وأصدر تعليماته، في الآن نفسه، الى وزير بحريته بدراسة نقاط النزول المحتملة على الشاطىء الانكليزي.

وفي الثامن عشر من شباط ۱۸۰۳، استدعى بونابرت سفير بريطانيا لورد ويتوورث (Whitworth). وفي هذه المقابلة عاب بشدة غدر وزارة سانت ـ جيمس[3] (Saint - James) وأطلق تهديدات بعبارات فاحشة كانت تبدو وكأنها خرجت من فم حوذي. وفي الغد أمر تاليران أندريوسي بتقديم ملاحظات القنصل الأول الى الملك جورج الثالث بشكل إنذار أخير. فكان من المستحيل على انكلترا أن تتقبل مثل هذه العجرفة. وبعد عرض للمشاكل التي نشأت للتو، استخلصت الرسالة الملكية في ۸ آذار إلى البرلمان أن من الضروري اتخاذ بعض الاحتياطات. وبعد ثلاثة أيام، وخلال اجتماع للسلك الديبلوماسي في التويلري[4]، لم يوجه نابوليون التحية الى أحد بل تقدّم فجأة

---

(۱) مقاطعة في شمالي ايطاليا.

(۲) هو ميشال ناي (۱۷٦۹ ـ ۱۸۱٥) مارشال فرنسا، حارب في ألمانيا وروسيا ولقبه نابوليون بأبشع الشجعان. انضم إلى نابوليون بعد عودته من جزيرة إلبا، ثم اتهم فيما بعد بالخيانة وأعدم بالرصاص.

(۳) المقر الملكي القديم الذي أسسه هنري الثامن في لندن.

(٤) مقر حكام فرنسا في باريس. وقد بني القصر في العام ١٥٦٤ وأُحْرق سنة ۱۸۷۱ أثناء كومونة باريس، واستخدم المقر لعاهلي فرنسا من ۱۷۸۹ إلى ۱۷۹۲ ومن ۱۸۰۰ إلى ۱۸۷۰؛ وقد أصبحت حديقة القصر حديقة عامة.

من لورد ويتويرث واستجوبه بأعلى صوته. فاتهم انكلترا بأنها قد عزمت على إعلان الحرب عليه. وصرخ وهو يرتجف من الغضب الشديد: إذا كان الانكليز أول من يسلّ السيف فسأكون آخر من يغمده. ينبغي احترام المعاهدات، وتعساً لمن يخرقها وينتهكها. فاكتفى السفير بالاعتراض دون أن يفقد هدوءه.

ومع ذلك، استمر الجنرال أندريوسي يُحظى باستقبال لطيف ومهذب في قصر الملك جورج الثالث. وتلقى هناك التأكيد القاطع بأن «انكلترا تريد السلام». فكتب إلى تاليران يخبره بذلك. وكرر هذا التأكيد في رسالة سرية إلى القنصل الأول فقال: «إن أماني ورغبات وحاجات هذا البلد تقف إلى جانب السلام». ثم طلب لورد هوكسبري (HawKesburry)، رئيس مكتب الشؤون الخارجية، بإشعارٍ كُتب بلهجة رقيقة سمحة، طمأنته على نيات الحكومة الفرنسية. فنقل أندريوسي ذلك الإشعار مرفقاً بالتعليقات الأكثر إيجابية. فلم يكلّف نابوليون نفسه مهمة الرد عليه باللهجة نفسها. لقد كان يريد الحرب، لكنه أراد إرغام الإنكليز على تحمُّل مسؤوليتهم. إن تبادل الرسائل الديبلوماسية التي تصادمت فيها امتيازاتهما بتصلّب وعناد، قد تواصل حتى ١٢ أيار. وتوجَّب على لورد ويتوورث طلب مغادرة البلاد. وهكذا وصل نابوليون إلى مبتغاه.

وقال الطبيب الجنرال برايس في كتابه أيضاً: «لقد أجهد نابوليون نفسه لإكمال الحصار، وأصرّ على إبقائه والمحافظة عليه لأنه لم يكن يمتلك أية وسيلة أخرى للهجوم. لكنه لم يكن يجهل سطحية هذا التدبير، فقد تأوّه قائلاً: إنني لا أملك وسائل لإيقاف السفن الانكليزية وهنا تكمن كل المشكلة. وعلى كل حال، لم يرضَ قط بالتفاوض على قدم المساواة مع انكلترا. ويقال إنه لم يكن يستطع القبول، بعد نشوته بانتصاراته، بأنه هو الذي يمتلك قارة تطيع أوامره يتوجب عليه التحالف مع تلك التي لا تمتلك إلا مجرى البحار».

ولكن أليس أكثر عقلانية مواجهة المسألة من زاوية أخرى غير زاوية الكبرياء والعجرفة؟

إن الأخذ بالثأر لا يمكن تدبيره بوساطة تسوية، كنزاع تجاري بسيط. في حين أن بإمكان الصراع المرور بمراحل من الخداع والمكائد. ومن المشروع في الحرب الدخول في مفاوضات مع العدو لإخماد حذره واحتراسه ثم ضربه بأمان أكبر. فالمراسيم التي أقامت الحصار والتدابير المتخذة لتحقيقه اختلطت زمنياً بمفاوضات من أجل السلام. وإذا كانت هذه المفاوضات لم تجرِ بناء على طلب نابوليون فإنها على الأقل قد نالت موافقته المبدئية.

وفي آذار ١٨٠٦. جاءت المقدمات من انكلترا فالوزير فوكس، أخطر نابوليون أن المدعو غيبه دو لا جفريليير (Guillet de la Gevrillière)، أو المنتحل هذا الاسم، ينوي السفر إلى فرنسا لاغتيال «رئيس الفرنسيين» لأن هذا هو التعبير (الذي اعتذر عنه كذلك) الذي وجد نفسه مضطراً لاستعماله، لأن بلاط سان ـ جيمس لم يعرف الأمبراطورية. وقام تاليران في طيات رسالة شكره بالتأكيد للوزير الانكليزي أن تدابير نابوليون سلمية. ولم يكن فوكس يحتاج إلى أكثر من ذلك ليقترح القيام بمفاوضات. وعُيِّن مفاوضون مطلقو الصلاحية من الجانبين، ولكن نابوليون، في الوقت الذي ادعى فيه الرغبة في السلام، دبَّر كل شيء لإفشال هذا السلام.

أما انكلترا، فالبرغم من التلاعب بها وخداعها، فإنها لم تقطع المفاوضات. وفي الثاني من آب ١٨٠٦، أرسلت لورد لودرديل (Lauderdale) إلى باريس كممثل رسمي. وعيّن الجنرال كلارك (Clarke) لمتابعة مواقف نابوليون. وتثبت التعليمات التي أعطاها الوزير فوكس لمفاوضة رغبته الصادقة في الوصول إلى اتفاق. ولتوضيح هذه المسألة ينبغي مراجعة المشروع الذي قدمه لورد لودرديل إلى وزارة الخارجية...

لكن نابوليون، بدلاً من أن يسارع إلى القبول بمشروع يرضيه كل الرضى، رفض مناقشة الأسس التي وضعها هو نفسه. ثم نتيجة غضبه من القيصر الذي لم يوافق على الاتفاق الذي وقّعه ممثله أوبريل (Oubril)، أعلم، في الثالث من أيلول، لورد لودرديل أنه كان من المستحيل التوصل إلى الصلح مع مفاوض

تدل كل طلباته على الرغبة في الإهانة وتحمل كل مساعيه سمات العدوان، ثم طلب إليه مغادرة البلاد . . .

. . . ومع ذلك، وبُعَيْد معركة أيلو (Eylau) غير الحاسمة، شعر نابـوليون بالميل نحو أفكار سلمية. والكونت ستاديون (Stadion) رئيس الوزراء النمساوي كان يحتاج من جهته، لإعادة تصحيح وضع مـالية بلده، إلى سـلام أوروبي. فعرض على تاليران التدخل كوسيط بين فـرنسا وانكلتـرا وروسيا. وقـد أجاب نابوليون في الرابع عشر من نيسان ١٨٠٧ بأنه يهتم بالاقتراح النمساوي. ولكنه، في الثاني والعشرين من الشهـر نفسه، أعـطى، جريـاً على عادتـه، تعليمات تسويفية. وقد كتب قائلاً: ينبغي النقاش طويلاً بخصوص جميع المواضيع. أما الحكـومة الانكليـزية فقـد بدت أكثـر صراحـة، لقد قبلت الـوساطـة وتعهدت بالمشاركة في المحادثات ما أن تقبل بها القوى المتصارعة.

وتبعاً لرغبة نابوليون، قام تاليـران بمط المشاورات إلى أن سمـح احتلال دانتزيغ[1] (Dantzig) والنصر الساحق في فـريدلانـد[2] (Frèdland) بعقد الصلح مباشرة مع روسيا وبروسيا. .

لقـد كان الملك جـورج يرغب صـراحة في إنهـاء نزاعـه مع نـابوليـون. «المفاوضات معلقة وتنتظر لندن من فرنسا أن تزيد فعلاً تـوضيح الأسس التي تعتبـرها جـديرة بـالإفضاء إلى السـلام». هـذا مـا تم ذكـره في المـراسـلات الديبلوماسية.

ولم يُدخل أحد في حساباته الانقلابات المفاجئة في مزاج نابوليون. ففي اليـوم نفسـه الـذي تلقى فيـه كـانّينـغ (Canning) عـروض ستـاهـرنبـرغ[3]

---

(١) دانتزيـغ، أو غدانسك اليوم، مدينة في بولونيا.

(٢) فريدلاند مدينة في الاتحاد السوفياتي حقق فيها نابوليون انتصاراً حاسماً سنة ١٨٠٧ على الروس.

(٣) عاصمة البرتغال وهي مرفأ على المحيط الأطلسي.

(Stahrenberg) للمفاوضات، أرسل من ميلانـو المرسـوم الذي يشدّد الحصار القاري. وكان قد أصدر للتـو الأمر بـإحراق الـرسائـل الآتية من انكلتـرا، بعد قراءتها. وفي هذه المرحلة احتـل لشبونـة بوساطة جونـو[1](Junot) واستحث جوزيف[2] على الإسراع في احتلال صقلية، ولويس[3] لينظّم في هولندا أعمال القرصنة ضد التجارة البـريطانيـة. وبالـرغم من هذه الأعمـال العدوانيـة، فقد اشتـرط أن تبدي بـريطانيـا نحوه بعض المقـدمات، وتـرسل مفـوضين مطلقي الصلاحية إلى باريس. فأجابت الحكومة البريطانية بوساطة ستـاهرنبـرغ بأنهـا ترغب في التفاوض مع فرنسا، ولكنها لا ترضى بالاذلال أمامها. وفي السـابع من كانون الثاني ١٨٠٨، نشرت صحيفة «لو مونيتور» (Le Moniteur) وهي لسان حال الأمبراطورية مقالة ملأى بالشتائم والإهانات، ومنها أن سوء نية انكلترا أمر ثابت ودائم، والانكليز لا يبرمون معاهدات إلا لانتهـاكها. . . انكلتـرا إذاً أمة ضعيفـة جداً وبـائسة إلى حـد كبير. ووزراؤهـا بحاجـة إلى عمليات قـرصنة. ويحسبون نتائج الحرب وفق النسبة المئوية للربح منها. إنهم لا يفكرون إلا في كسب المال.

وفي تشرين الأول ١٨٠٩، وبعد توقيع معاهدة فيينا الشاقة، أسمع نابوليون الآخرين أنه يرغب في رؤية انتهاء النزاع مع انكلترا. وخال فوشيه نفسه حاذقاً إذ تفاوض دون إخطار الأمبراطور بذلك. فـاستخدم مبعـوثين زوّدته بهمـا وظيفته كوزير للشرطة: الأول مهاجر قديم اسمه فاغان (Fagan) عاش طويلاً في لندن وله فيها أصدقاء. وبوساطة هؤلاء الأصـدقاء، نجـح في الالتقاء بلورد ولسلي (Wellesley) وزير الخارجية. وتلقى منه التأكيد بأن الحكومة الانكليزية مستعدة دائماً لتسلّم أي عرض للصلح لا يستبعـد حلفاءهـا ومن ضمنهم إسبانيـا. أما

---

(١) هو أندوش جونو (١٧٧١ ـ ١٨١٣) جنرال فرنسي، اشتهـر في إيطاليـا ومصر، واحتـل لشبونة في العام ١٨٠٧.

(٢) هو جوزيف بونابرت شقيق نابوليون.

(٣) هو لويس بونابرت شقيق نابوليون، وصار ملكاً على هولندا.

المبعوث الثاني فكان رجل المصارف الهولندي لابوشيـر (Labouchère) صهر السير فرنسيس بيرنغ (Sir Francis Baring)، أحد مديري شركة الهند. وقد ذهب إلى انكلترا بصفة مكلف بمهمة من قبل حكومة بلده. وتعيّن عليه أن يمارس ضرباً من الابتزاز على الحكومة البريطانية، معلناً الضم القريب لهولندا إلى فرنسا ومدعياً أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه الكارثة هي التماس الصلح. فاكتفى لورد ولسلي القليل التأثر بهذا التهديد والتخويف بلفت انتباهه إلى أن هذه الخطوة ليس لها أية أهمية.

وعلم نابوليون في الرابع والعشرين من شباط ١٨١٠ بفشل مهمة لابوشير. وفي اليوم نفسه فرض ضم هولندا. ولم يعد نابوليون، الغارق كلياً بالتحضيرات لزواجه من ماري ـ لويز، يهتم بمفاوضات الصلح. كأنه يعتقد أنه بات أكثر قدرة من أي وقت مضى، وكأنه واثق من قدرته على سحق عدوه. فأرسل الماريشال ماسينا إلى إسبانيا لطرد جنود ولينغتون. فعزز الحصار البري. وكانت الرحلة الرسمية الأولى بصحبة الأمبراطورة الجديدة بمثابة تحدّ. إن الملكين يزوران مرفأ أنفير[1] (Anvers) الحصين. وفي هذه الآونة بالذات، قدّر فوشيه، ولا ندري لماذا، أن الوقت ملائم للقيام بمحاولة سرية كالمحاولة السابقة. وكلّف المصرفي أوفرار (Ouvrard) بالعمل مع زميله لابوشير. وإثر هذه الوساطة، نقل السير فرنسيس بيرنغ إلى لورد ولسلي مجموعة من العروض الواقعية، أعدّها فوشيه نفسه في نيسان ١٨١٠، ونتردد في التصديق بأن من الممكن أن تصدر مثل هذه العروض من العقل الأكثر دهاء في الأمبراطورية لفرط ما هي غريبة وغير معقولة. فتخلي بريطانيا عن اسبانيا يجب أن تعوض عنه المساعدة الفرنسية على غزو الولايات المتحدة. فالأمبراطور، على حد تأكيد فوشيه، سيسعده تدمير المأثرة الوحيدة التي يمكن أن يفتخر بها عهد لويس السادس عشر. وقد ناقشت الحكومة الانكليزية هذه المقترحات دون أن تشك لحظة واحدة في أنها ضحية مكيدة. ولكن نابوليون علم مصادفة بدسائس وزير

(١) مدينة ومرفأ في بلجيكا.

شرطته. فسجن أوفرار وطرد فوشيه الذي اتهمه بـالخيانـة والغدر. وبلغ غيـظه الذروة: هذه مخالفة غريبة لواجبه، أن يسمح لنفسه بمفـاوضة العـدو من غير علم ملكه، في ظروف يجهلها وعلى الأرجح لن يعلم عنها شيئاً قط. فأقسمت الحكومة البريطانية الغارقة في السخرية بأن لا تسمح أبداً باستغفالها بمثل هذه المناورات. وأمام عدم قدرته على قهر انكلترا، اكتفى نابوليون بإذلالها. إلا أنه لم يقبل بأي مساومة ديبلوماسية. وكانت نكبة فوشيه الساطعة الدليل على ذلك. ومع ذلك يجب الانتباه إلى أن مراوغات نابوليون لم تكن خـدّاعة كلهـا. إنها تـظهر تعـاقبات صـراع بين عقله وتيار روحـه السري. إن الحكمـة تحثه على الاستسلام، وصوت اللاشعور الطاغي يمنعه من ذلك مادامت الإهانة لم يكفر عنها.

وذكر ديمتري مرجكوفسكي في كتابه **نابوليـون الرجـل** أن وضع الجنـرال بونابرت قائد جيش إيطاليا، كان ميؤوساً منه تقريباً، في تشرين الثاني ١٧٩٦. إذ كان جيشه الصغير قد أنهك من جراء معارك غير عادلة: عشرون ألف رجل، منهكون يقاومون ستين ألف جندي مرتاحين وجديـدي العهد بالمعـارك. ومن جهة ثانية، لم تكن النجدات المتوقعة من فـرنسا تصـل إليهم. وعادت نخبة الجيش من ضبـاط وجنود إلى الحيـاة المدنيـة. وكانت المستشفيـات غـاصـة بالجرحى والمرضى المصابين بالحمّى في مستنقعات مانتوى[١].

وكان بونابرت نفسه مريضـاً أيضاً. لكن أسـوأ ما في الأمـر أن الجيش قد ثبطت همته من جراء فشل الهجـوم على مرتفعـات كالـديرو (Caldiero) حيث احتـل الماريشـال النمساوي ألفينـزي (Alvinzi) موقعـاً منيعـاً وهـدد فيـرونـا[٢] (Vérone)، فتراجع بونابرت لأول مرة في حيـاته، وتعيّن عليـه أن يتراجـع في ظروف مذلة تقريباً. وقد كتب في ذلك الحين إلى أولي الأمر في باريس قائلاً:

---

(١) مانتوى مدينة إيطالية.

(٢) مدينة بإيطاليا.

«مواطني المديرون، ربما نكون على وشك خسارة إيطاليا. إذ لم تصل أية نجدة متوقعة، إنني أقوم بواجبي، والجيش يقوم بواجبه. روحي ممزقة لكن ضميري مرتاح. النجدات! أرسلوا النجدات!».

وكان نابوليون يعلم أنهم لن يرسلوا أحداً: فاليعاقبة والملكيون وحتى المديرون لم يكونوا ينتظرون إلا فرصة للقضاء عليه. ونراه يكتب الى جوزفين قائلاً: «كل شيء ضاع... ولم يبقَ إلا شجاعتي». وقال ستندال الذي شارك في الحملة: أي جنرال آخر، في مكانه، ما كان ليفكر إلا بالعودة إلى منتشيو(1) (Mincio) وكانت إيطاليا ضاعت في تلك الحال.

لكن بونابرت لم يتراجع، وقام بمناورة جريئة إلى حد الجنون: الوصول إلى الخطوط الخلفية للنمساويين، من جهة مستنقعات الأديج(2) (Adige)، وهي متعذرة العبور تقريباً، ومفاجأة العدو وإرغامه على القتال في ثلاثة مجالات ضيقة، ليس للتفوق العددي فيها أهمية. بل إن بسالة الجنود الشخصية تقرر كل شيء، ولتنفيذ هذه المناورة كان ينبغي الاستيلاء، بهجوم عسكري مفاجىء، على جسر خشبي صغير، في آخر أحد السدود، على النهر الصغير الموحل في ألبوني (Alpone) والقريب من قرية أركولي ـ وهو وسيلة الاتصال الوحيدة لمؤخرة العدو بالمستنقعات.

وفي الليل، وسط صمت عميق، خرج الجيش الفرنسي من فيرونا، وكانت مناورة بونابرت الجسورة رائعة ولذيذة إلى درجة أن الجرحى انضموا إلى الجيش. وهكذا انسلّت في العتمة عبر مستنقعات الأديج طوابير طليعة الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال أوجيرو (Augereau) واقترب قبل بزوغ الفجر من جسر أركولي. ولكن على العكس من توقعات بونابرت كان الجسر محمياً جيداً: فهناك كتيبتان من الكرواتيين، وبحوزتهما مدفعية وهما قادرتان على تغطيته بنار

---

(1) نهر في ايطاليا.

(2) نهر في ايطاليا يصبّ في البحر الأدرياتيكي من البحر المتوسط.

جانبية قاتلة. ولكن كان وقت التراجع قد مضى. ومن جهة أخرى كان طريق الانسحاب قد قُطع. لقد وقع في فخ. ولم يعد هناك إلا الهلاك.

هجم الطابور الأول، ولكن النار الغزيرة أبادته كلياً تقريباً، وحدث الأمر نفسه للطوابير الثاني والثالث والرابع. فما إن يظهر الرجال على الجسر حتى تبيدهم الطلقات. ومات أولئك البواسل بلا جدوى. وكانوا جميعاً صبياناً في مقتبل العمر لم تنبت لحاهم بعد، من اللامسترولين[1] (Sans-culottes) الذين كانوا، في نهجهم، هم أيضاً، من «رجال بلوتارك»[2]. ولكن حتى هؤلاء البواسل كانوا مشمئزين من الموت عبثاً. ولم يعد بالمستطاع أخذ الجسر إلا بتسلُّق السماء. وكل القادة تقريباً قُتلوا أو جُرحوا، ورفض الرجال المسير إلى النار. وحينئذ اندفع أوجيرو إلى الأمام والراية في يده، وصرخ بغضب واندفاع آملاً جر جنوده معه: «جبناء، أتخافون إذن إلى هذا الحد من الموت؟» لكن أحداً لم يتبعه.

وهرع بونابرت إلى ساحة المعركة، وأدرك من النظرة الأولى أن الجسر إذا لم يؤخذ، فإن كل شيء سيضيع. ولم يعد هو الذي سيفاجىء ألفينزي بل العكس هو الصحيح: فالنمساويون إذ سمعوا ضجيج المعركة، قاموا بفتح النار من أعلى تلال كالديرو، وسحقوا الجيش الفرنسي بكامله وأغرقوه في المستنقع. ولكن في اللحظة نفسها أدرك بونابرت ما ينبغي القيام به. فترجل عن جواده، وأمسك براية رماة القنابل، ولم يفهم الرجال أو لم يجرؤوا على فهم ما ينبغي القيام به، فنظروا إليه دون حراك، وبصمت مطبق.

كان نابوليون يرتدي معطفاً قصيراً أزرق اللون بسيطاً جداً، وبلا توشية تقريباً، ويضع حزاماً عريضاً من الحرير المثلث الألوان ويرتدي سروالاً من

---

(١) اللامسترولون، لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣.

(٢) بلوتارك (Plutarque) (نحو ٥٠ ـ ١٢٥ م) مؤرخ وأخلاقي يوناني. مؤلف كتاب حياة الرجال المشهورين في اليونان وروما.

الشاموا الأبيض، وينتعل جذمة قصيرة ذات قفا من جلد الماعز. لقد كان نحيلاً، هزيلاً، رغم سنواته السبع والعشرين، ويبدو كفتاة شابة في السادسة عشرة، وتتساقط على وجنتيه الهزيلتين خصلتان من الشعر ملساءتان .وفي وجهه هدوء غريب، ومسحة من التأمل العميق، ولكن في عينيه الواسعتين لمعان معدني لا يحتمل. لقد كان وجه «الولد المريض» هذا هو الذي أكسبه محبة جنوده وشفقتهم.

لم يكن هؤلاء الجنود يفهمون أبداً ما سيقوم به. فلوّح، بيد، بخرقة الراية المقدسة، واستل بالأخرى سيفه، واستدار صارخاً: «أيها الجنود، ألم تعودوا، أين المنتصرين في لودي[1]؟» واندفع إلى الجسر. فاندفع الجميع خلفه وفي رأسهم فكرة واحدة: الموت أفضل من رؤية «الولد المريض» يسقط صريعاً. وأحاط به القادة وغطوه بأجسادهم. وحماه الجنرال لأن، الذي سبق أن جرح مرتين من إطلاق النار الأول وسقط جريحاً للمرة الثالثة، وحماه الكولونيل مويرون (Muiron) من إطلاق النار الثاني وقتل على صدر بونابرت الذي تلطخ وجهه بدمه. وحصد إعصار القذائف والشظايا الجنود، وبالرغم من ذلك كانوا يتقدمون ونجحوا في الوصول الى نهاية الجسر تقريباً. ولكن عند وصولهم إلى هناك لم يستطيعوا تحمُّل النار المطلقة عن كثب، فقاموا بالاستدارة والهرب. ولاحقهم الكرواتيون مُجهزين بضربات الحراب على أولئك الذين نجوا من القذائف.

كان نابوليون متماسكاً أبداً على الجسر. فاختطفه الرماة الفارون وأرادوا سحبه خارج مرمى النار، ولكنهم أوقعوه خلال تلك المعمعة، دون أن يدركوا ذلك. فسقط في المستنقع، وغرق في الوحل حتى حزامه، فتخبط فيه محاولاً الخروج، لكنه غرق أكثر فأكثر. لقد كان جميلاً الوقوف على الجسر كبطل، ولكن من الرداءة البقاء في المستنقع كضفدع . ولعله لم يكن يسمع، رغم

---

(١) لودي (Lodi) مدينة إيطالية، انتصر فيها نابوليون على النمساويين في العام ١٧٩٦ .

ضجيج المعركة، إلا الهينمة العذبة للقصب فوق رأسه، ولا يرى إلا السماء الهادئة والرمادية، وكان هو أيضاً هادئاً، ينتظر نهايته: هل سيبتلعه الوحل أم ستقتله ضربة سيف أم سيأسره النمساويون؟ أم أنه كان يعرف جيداً، كما كان يذكر، أنه سينجو؟

تجاوزه النمساويون بأربعين خطوة تقريباً، لكنهم لم يروه أو أنهم لم يعرفوه، بوجهه المغطى بالوحل والدم. وهكذا حمته السماء الهادئة، فقد كان سيهلك على الجسر حتماً، في حين أنه نجا في المستنقع، وكلما غاص فيه، صار بمأمن بشكل أفضل. ولم يتمالك الرماة أنفسهم إلا عندما عادوا مرة أخرى إلى الضفة. فتبينوا أن بونابرت قد اختفى، فصرخوا مرتاعين: أين هو؟ أين بونابرت؟ لنعد لإنقاذه؟. واندفعوا مجدداً إلى الجسر، وأبادوا الكرواتيين باندفاعة غاضبة، فرأوا بونابرت غائصاً في المستنقع حتى كتفيه تقريباً، ونجحوا في الوصول إليه بصعوبة كبيرة، فانتشلوه ورفعوه وحملوه إلى الضفة، وأركبوه على جواده. وهكذا أنقذ نابوليون بونابرت. وذكر لويس مادلين في كتابه (من بروميير[1] إلى مارنغو[2]) أن بونابرت، في هذه الظروف، كان بكل تأكيد من الأكثر حذراً من جانبه التمسك بعناد بفكرته الأولى: انتظار ميلاس[3] (Mélas) بضعة أيام أخرى، عند مضيق ستردال (Stradelle). إذ إن رمي مشاته وفرسانه في السهل سيرغمه على نشرهم، وفي حال هجوم النمساوي، تحت نيران مئتين أو ثلاث مئة قطعة مدفعية يستطيع هذا الأخير استخدامها، ولا تستطيع الثمانون قطعة التعيسة التي يمتلكها نابوليون مقاومتها بفعالية، في ذلك الصباح من اليوم الرابع عشر من بروميير. ومن المدهش والمذهل أن هذا المدفعي الكبير الذي يعلّق عادة على سلاحه الأهمية التي يعرفها، عرّض نفسه عمداً

---

(١) بروميير هو شهر الضباب أو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية.

(٢) مارنغو (Marengo) مدينة إيطالية، شهدت انتصار نابوليون بونابرت على النمساويين في سنة ١٨٠٠.

(٣) ميشال ميلاس (١٧٢٩ ـ ١٨٠٦ م) جنرال نمساوي، هزم في مارنغو.

لخسارة معركة لعدم توافر المدافع ـ فهذا ما كان سيحصل فعلاً في الرابع عشر. لكنه كان الآن عرضة لنوع من القلق، ينتابه عندما تراوده فكرة أنه لم يعد يرى بوضوح في لعبة الخصم ولا يدرك حقيقة نواياه، ولأن هذا العدو لا يكشف عن نفسه، كان يشعر برغبة لا تقاوم في الذهاب إلى حيث هو لرؤيته، حتى لو توجب عليه الذهاب إليه في الاسكندرية[1] نفسها.

وهذا القلق المحموم نفسه حثه على صعيد آخر وعرّضه، للحظة، للهزيمة! إذ تخيل أن العدو لن يجرؤ على محاولة إحداث ثغرة في الجسم الفرنسي الضخم، وسيحاول بلا شك الانزلاق إلى اليمين أو إلى اليسار. فتصور أنه قد يتدارك هذه المحاولة. بفصله من هذا الجسم بعض الفيالق. وهكذا فرّق جيشه البالغ ستين ألف جندي ووزّعه، فلم يبقَ معه إلا خمسة وعشرون ألفاً، ومع ذلك قام من جديد بفصل بضعة آلاف لاستكشاف ميمنته وميسرته في الميدان الذي كان من الممكن أن يحاول ميلاس المغامرة فيه. وكان دو سيز في نظره أحد العسكريين الأكثر مهارة، والأكثر تضحية في الآن نفسه. فعهد إليه على الفور بجيش مؤلف من فرقتين من أفضل فرقه، فرقتي مونييه (Mounier) وبوديه (Boudeh)، ولأنه كان يخشى في اليوم السابق (١٣) أن يحاول ميلاس، أثناء عبوره منطقة أكّي (Acqui) الواقعة الى الجنوب من مدينة الاسكندرية الايطالية، التسلل إلى يسار الفرنسيين، أوكل لدو سيز مهمة المضي إلى أكي على رأس جيشه الجديد، فإذا ما اصطدم بالجيش النمساوي أثناء تحركه، فعليه أن يسد عليه الطريق مهما كلف ذلك من ثمن إلى حين وصول الجيش. والحال أنه بعد إمعان التفكير لم يترك له إلا فرقة من الفرقتين هي فرقة بوديه المكلفة لحسن الحظ بحراسة فرقة مونييه بالقرب منه. ولكن، بما أن ميلاس هذا قد يحاول أيضاً الانسلال عبر فالانزا (Valenza) إلى نوفار[2]،

---

(١) مدينة في ايطاليا.

(٢) مدينة إيطالية.

على يمين الجيش الفرنسي، فصل القنصل الأول أيضاً، فرقة لابويب وأرسلها باتجاه فالانزا.

لقد أدى هذان التدبيران الاحتياطان إلى فصل عشرين ألفاً من الرجال عن الجيش، ومع ذلك اندفع نابوليون في السهل. . .

والحال أن ميلاس، في تلك الصبيحة من الثالث عشر، وجد نفسه مرغماً على اتخاذ القرارات العنيفة، فعزم على الانقضاض على عدوه مباشرة. وبعد أن كان نابوليون قد فاجأه قبل أسبوعين انطلق هذه المرة ليفاجئه هو، في الظروف الأكثر إجحافاً بخصمه، الذي ما يزال محروماً، من القسم الأكبر من مدفعيته، وفضلاً عن ذلك لقد تناقصت قوته إلى حد أنه لن يستطيع أن يحشد إلا خمسة وعشرين ألف رجل في مواجهة جيشه (جيش ميلاس) البالغ سبعة وثلاثين ألف رجل، تدعمهم طاقة اليأس والعزم على المرور، بأي ثمن، على جثث الفرنسين. .

والحقيقة أننا نستطيع الافتراض أن القنصل الأول كان قلقاً بشدة. صحيح أنه لم يظهر أمام جيشه إلا كقائد شديد الاطمئنان، لكن كوانييه (Coignet) سيكتب في ما بعد أنه قد رآه، لفترة ما، يقذف بسوطه الحصى في الهواء. وقد فوجئت هذه السورة العصبية المباغتة بالجندي المشار إليه، وهي سورة مفهومة، إذ لا شك في أنه كان واثقاً من تحاشي كارثة ما، ومن إنقاذ جيشه، والثأر عما قريب، ولكنه مع ذلك قد يكون، ولعدة أيام، «المهزوم في مارنغو» فأية نتائج يمكن أن يترتب عليها هذا الحدث في أوروبا حيث يحاول التكتل استعادة القيصر واسترداد بروسيا، وفي فرنسا حيث يعمل الحزب الملكي غرباً وفي الوسط وفي باريس التي تحاك فيها أكثر من دسيسة! وفي المقابل، إذا كسب المعركة مجدداً، فكل شيء سيصبح سهلاً، وسيتجنب جميع النتائج المشؤومة. ولكن المعركة لن تكسب إلا إذا وصل دو سيز، فبونابرت لم يكن بوسعه التوهم بخصوص هذه النقطة. وفي ما كان يتابع بمنظاره الفرق

المتحركة، رأى لانّ(1) نفسه يضطرب تحت ضغط العدو، والطليعة الخاصة بالقنصل الأول، التي كانت حتى الآن صلبة جداً، تتراجع أمام هجمات فرسان الجنرال النمساوي فريمونت (Frimont) وكارّا سان ـ سير (Carra Saint - Cyr) خسر كاستل تشريولو(Castel Ceriolo) نفسه. وكان لانّ قد أصيب في رأسه أثناء انسحابه. وتابعت مدفعية العدو المهاجمة بعنف. وقد وصف كوانييه ذلك فقال: كنّا نقاتل بنظام أثناء انسحابنا، لكن الكتائب كانت تتساقط بسرعة كبيرة وهي على أتم الاستعداد للهرب، لو لم تكن تلك هي رباطة جأش القادة. وعندما يمر الجنود المتراجعون أمام بونابرت، يصرخ بهم: بعض الشجاعة أيها الجنود! الفرق الاحتياطية ستصل. ظلوا أقوياء راسخين! الفرق الاحتياطية. لم يعد هناك منهم إلا دو سيز ولابويب (Lapoype) . ودو سيز بشكل خاص! دو سيز! إنه لا يفكّر إلا بهذا البطل الذي، إن وصل مع رجاله الثلاثة آلاف، فهو يعادل عشرة آلاف! فينبغي أن يتزايد قلقه ويبلغ الذروة. ويحدثنا أحد الشهود بعد عشرين عاماً ونيف، عندما بدأ الأمبراطور يهذي، طوال ثلاثة أيام أثناء احتضاره، أن رفاقه سمعوه يتمتم فجأة: دو سيز! دو سيز! آه! لقد قرّر النصر. أفكان من المحتم أن تكون تلك الساعة من الرابع عشر من حزيران سنة ١٨٠٠، الساعة الثالثة بعد الظهر. المميزة في حياته، مملوءة أيضاً مع ذلك بالتقلبات والمحن، لكي يعيش اللحظة مجدداً عند عتبة الموت، أو على ظهر حصانه، وسط الفرق المبادة، ومرة أخرى، وهو ينتظر خائر القوى دو سيز. وصرخ مجدداً «الفرق الاحتياطية ستصل» لنفسه أكثر مما للجنود. والفرق الاحتياطية كانت دو سيز!

عند الساعة الثالثة، كان الضباط القلقون يُحدقون بالرجل. ماذا قرر؟ ألم تدق ساعة الانسحاب؟ وإذا تأخروا كثيراً، فهل سيستطيعون أيضاً القيام مع بعض الحظ بالتراجع إلى الخلف؟ والجنود، إذا تُرِك النمساويون يتعقبونهم،

---

(1) جان لانّ (١٧٦٩ ـ ١٨٠٩) ماريشال فرنسا، أحد ضباط نابوليون. أصيب بجرح مميت في معركة إسلنغ (Essling).

فهلَ يعودون بنظام إلى سكريفيـا (Scrivia)؟ النمساويـون الآن أسياد الـطريق، ويتقدمون نحـو سان جيـوليانـو (San Giuliano)، مقتنعين تمامـاً بأن النصـر تم واكتمل إلى درجة أن بعض الفيالق، على ما يقال، تخلى عن أوامر المعـركة وتسلّم الأمر بالسير في طوابير متراصة. وميلاس الأكثر اطمئناناً أيضاً من جنوده، غادر ميدان المعركة وعاد إلى الاسكندرية، مقتنعاً بأن جنوده المترعين بحماسة النصـر، سيكملون في الغد فتـح طـريق بليـزانس[1] (Plaisance) أمـامـه. ومن الاسكندرية، أرسل برقيات مظفرة: «بونابرت ـ الذي لا يُقهر ـ قد هُزم!».

(١) بليزانس مدينة بإيطاليا.

نظرات موجزة وعميقة في السعادة

إن دراسة السعادة البشرية تثير الحيرة وخيبة الأمل إذ ترغمنا على التخلي عن الأفكار الجاهزة سلفاً عن الحب والسعادة، وما إن نتعمق في المسألة حتى نمضي من خيبة إلى خيبة، ويزول غرورنا، على شرط أن نتبين أن النجاح المادي كما العاطفي، بالنسبة الى كثير من الأشخاص، هو كارثة. فالبعض لا يكونون سعداء إلا في التعاسة والشقاء، يمزقهم العذاب الذي يكفر عن الذنوب، والبعض الآخر يعتبرون السعادة البشرية عدواً يحرمهم لذة القيام بدورهم المسرحي كمنقذين. إنهم يحتاجون إلى الكارثة كحليف. «عديدون هم المجرمون الذين يقترفون جرائمهم ليؤمنوا لأنفسهم سعادة السجن، وعديدون كذلك المحكومون بالإعدام الذين يعتبرون اللحظات الأخيرة بداية الخلود. فتعساً لذاك الذي يفتح أبواب السجون ليعيد الى هؤلاء المساجين حرية تستعبدهم أو لينقذ المحكومين من إعدام ينتظرون فيه السعادة الأبدية.

إن دعاة السعادة، الذين يعتقدون أنهم يجعلون الناس سعداء إذ يؤمِّنون لهم الحرية والرفاهية والمال، يبدون لنا جاهلين جداً وساذجين. فالمفكرون الأحرار الذين يريدون الدفاع عن كرامة الأفراد بتدمير المعتقدات الدينية التي حكموا عليها بأنها مشينة للعقل والمصير البشري وغير لائقة بهما، يخاطرون بأن يصبحوا معروفين كأشخاص ضيّقي التفكير، وسجناء تصوف أصولي.

وماذا يقال عن الحب؟ إن الكره في العديد من الحالات هو الحارس الأفضل للأمانة الزوجية، فهو يكبل الأشخاص بعضهم ببعض بشراسة أكثر من

الحب. فلا شيء أكثر تأثيراً من المجابهة المتقدة بين عدوين حميمين. إنهما لا يفترقان أبداً خشية إفلات فريستهما. ومن الخطر الدفاع عنهما، الواحد تجاه الآخر، لأن كلا الاثنين يجربان حينئذ التحالف لمقاتلة ذاك الذي يرى مساعدتهما. فهؤلاء أمهات أصبح حنانهن سلاحاً لتدمير أولادهن، وهؤلاء آباء يغمرون أبناءهم بحبهم إلى حد أنهم يحرمونهم من قوتهم ورجولتهم. وها هي خاصة شعوب تحب نير الرعب والديكتاتورية أكثر من الحرية. فماذا نستنتج من ذلك؟ أيتوجب علينا عدم الاهتمام بالبحث عن السعادة البشرية بعد أن تبيّنّا أنها في العديد من الحالات مصدر للشقاء؟

أنحن في الحقيقة أيضاً مجرّدون من السلاح كما نبدو، فلا نستطيع مقاومة الآلام المتعددة التي تبدو لنا مناقضة للمصير الإنساني؟ ألا يبقى لنا إلا الخضوع والاستسلام وترك الحرية لكل واحد لكي يسعى إلى سعادته حيث يشاء، ومهما كانت النتائج على السلالة والجماعات؟ أيتوجب علينا اعتبار بعض النظريات الاشتراكية في السعادة أوهاماً خطرة، بحجة أنها إذا طُبِّقت بشكل سيّىء تؤدي في أغلب الأحيان إلى بلبلة الأفراد، وإلى فساد النظام الاجتماعي؟ إن العديد من علماء الاقتصاد والاجتماع قد هاجموا مسألة السعادة البشرية بعقلية تعود إلى ما قبل المنطق، فاعتقد علماء أنهم يدافعون عن عافية الانسان بتدميرالدين، وتصرفوا بتأثير اعتقاد لبس له أية صلة بالعلم.

إن علم السعادة البشرية لا يزال كلياً ينتظر أن يوضع. وسنربح كل شيء عندما نتعلم معرفة حدود قوانا وابتذال جهودنا الغرَّارة. ويجب ألا نسمح للواقع كما يتجلى لنا بتثبيط همتنا، بل ندرس الحالات الخاصة، والظروف الفارقة للحمل وتفتح الأشخاص. ولنتعلم كيفية استخدام كل الأسلحة التي تتيح لنا النجاح. ولنتعلم بشكل خاص اختيار اللحظة الملائمة لتدخُّلنا، مع مراعاة مراحل النمو الطبيعي، لكي لا نتحرك إلا عندما ينضج الوضع وتمنحنا الطبيعة فرصاً للنجاح. إذ تقدم لنا دراسة الذات الخارقة طرق عمل ثمينة. ويرغمنا وعي ضعفنا على التنكر لأوهام قدرتنا الكلية لكي نسلك سبلاً أقل عقماً. ويفيدنا التحليل النفسي أن الذات الخارقة الأكثر شراسة يمكن، في العديد من

الحالات، جرها إلى الخضوع وإلى التعاون مع الفرد الذي كان فريستها المجردة من المقاومة. ويصبح الأمر نفسه مع الذات الخارقة العائلية والجماعية.

إن الصعوبة الكبرى التي ينبغي أن نتغلب عليها تتمثل في الأفكار المسبقة التي نمتلكها جميعاً، إلى هذا الحد أو ذاك، بخصوص هذه المسائل. ونحتج بأن سوءاً ما يبدو لنا واضحاً، فنعتقد أننا مخولون مقاومته، دون أن نتمعن عن قرب في ما إذا لم يكن هذا السوء في الحقيقة أمراً جيداً في بعض الظروف. إن بعض الاعتقادات الدينية متهمة بأنها مخالفة للعقل، في حين أنها يمكن أن تكون في الحقيقة أكثر جودة من العلم الذي يدينها.

فما العمل لتنظيم تصوراتنا وإيجاد طريقنا؟ ألا نمتلك الرغبة في التوصل إلى توفير العديد من الآلام من أجل الأفراد ومن أجل الجماعات؟ فما هي التجارب الضرورية وما هي التجارب غير الضرورية؟ وكيف نقود الأفراد إلى التخلي عن الآلام التي يتمرد وعيهم ضدها ولكن يستدعيها إحساسهم وتأثرهم؟ وأذكر أن عالماً نفسياً تحدّث يوماً مع امرأة حائزة على دبلومين، الدكتوراه في العلوم والدكتوراه في الطب. ولم تكن دراساتها وأبحاثها وقناعاتها المناوئة لرجال الدين، تمنعها أبداً من الالتجاء إلى قارئة كف مريبة جداً، وتتبع توجيهاتها في القرارات الهامة في حياتها. ورغم اشمئزازها القوي من ممارسات كانت تراها سخيفة ومضحكة، كانت مدفوعة، بتحريض من بلبلة يتعذر وصفها إلى الاستنجاد بالعرّافة، إذ تجد نفسها لديها، من جهة أخرى، أمام صاحبة كاملة. وقد أرشدتها إليها صديقات مجازات. وهناك رجال سياسيون وجامعيون، بالرغم من ثقافتهم واحتقارهم «الخرافات» وتنكرهم للدين، يشكلون مثالاً على هذه التوجهات. وهكذا وجد هؤلاء المتحررون، هؤلاء الممثلون للعلم الحديث، أنفسهم مرغمين على استبدال الإيمان سراً بالحانوت الخلفي لمخزن صغير في ضاحية باريسية حيث تستغلهم قارئة الكفّ. فنرى كم أن الإرادة والعقل وحدهما عاجزان تجاه العدو المتوجب مكافحته.

إن الشعور بالتحرر من أي اعتقاد ديني غير كافٍ لعدم السقوط في أسر العديد من الاعتقادات الخرافية. إذ انكشف أن الثقافة العلمية عاجزة عن الحلول بفعالية محل الإيمان الديني الذي سيكون دعمه ضرورياً للعديد من الملحدين. ومن الخطإ الاعتقاد بأن العلم يستطيع أن يجعل مجدداً غير ذات جدوى معتقدات كانت مبادئها تبدو مخالفة للعقل الخالص. ألم يطلب من العلم أكثر مما يستطيع تقديمه حالياً إلى غالبية الأفراد؟ ألم يستخدم لتجاهل المسائل التي يمتنع على العقل قبولها لأنه ليس مؤهلاً لفهمها؟ وينبغي في اعتقادنا ضبط مسألة معرفة ما يمثله بدقة العلم والدين في بنيتنا النفسية: فهذا العلم الذي باسمه توصَّل الأفراد إلى التنكر للعديد من الحقائق الأخلاقية، وهذا الدين الذي جعلهم على حد زعمهم خاطئين تجاه حقائق ملموسة.

إن العلم، في نظرنا، تصور خاص للواقع، ووحدهم الأشخاص الذين وصلوا إلى طور ما من نموهم العاطفي يستطيعون اكتسابه. ولنتذكر أن الذات تتسلح بمعرفة تتيح لها النضال ضد الهموم الشديدة والقلق الأولي اللذين توحي بهما للأشخاص أخطار الحياة المتعددة، فالعلم يفيدنا كأوالية دفاع في مواجهة ما يصيبنا. إنه يتيح للشخص، كما رأينا في الفصل الثالث، أن يدافع عن نفسه بوساطة المعرفة العقلية بالخطر. بينما الدين، يتيح لهذا الشخص أن يقاوم الأخطار، الحقيقية أو الخيالية، التي لا يمتلك معرفة بها. والتي تلاحقه بشكل أنواع غامضة من القلق. إن العلم، كالدين، ليس، إذاً، غير وسيلة لمقاومة ما يبدو لنا مخالفاً وخطِراً.

إذاً، في هذه الخطوط العريضة، ما هي فعالية العلم في مواجهة المسائل التي ترهق البشرية؟ إن مردوده، بشكل عام، قد بولغ في تقديره، فعديدة هي الميادين التي تفلت من يده وتفوته، وعديدون هم الرجال والجماعات الذين يبقى العلم متعذر الإدراك تقريباً بالنسبة إليهم. وهذه هي حال علم النفس وعلم نفس اللاشعور الفردي والجماعي.

ويعلّمنا هذا العلم أن الاعتقاد بأن العقل يقود الأشخاص غير كافٍ لكي

يكون الأمر كذلك بل على العكس فهذا العقل، في نظر العلم مرتبط بتأثر الأشخاص وإدراكهم. ففي ميدان الأفعال، مثلاً، تظهر المفاهيم المتداوَلة ناقصة. فالمعرفة التي يدّعي الأفراد امتلاكها تجاه الواقع وبه ليست في أغلب الأحيان إلا اعتقاداً بالقدرة الكلية للعقل وللإرادة التي، فضلاً عن ذلك، تمنع، ببنود إيمانها، الإنسان من أن يحسب حساب إفلاس العقل تجاه الأحداث ومن أن يفهم ذلك. فحيثما يتخلى العلم عن الإنسان في مواجهة أخطار الحياة، لا يتبقى له، كوسيلة للاحتماء من ألم القلق وعذابه، إلا الدين أو السحر، وبقدر ما بولغ في تقدير إمكانات العلم في عصرنا، بولغ في التقليل من أهمية إمكانات الدين. ومع ذلك ظل الدين الوسيلة الأساسية للدفاع النفسي في وجه القلق بالنسبة إلى الأفراد والجماعات. فالعلم نفسه ليس قضية عقل محض، إنه نتيجة تطور عاطفي ما يجعل التصورات العلمية ممكنة ومفهومة، في حين أنها، في مراحل أخرى من هذا التطور، بدائية أو صعبة الإدراك.

إن مفهوم الذات الخارقة واحد من المفاهيم الرئيسة التي أدخلها التحليل النفسي في العلم، وهناك مفهوم آخر، مهمّ كذلك، هو مفهوم المراحل المختلفة لنمو الحسابية التي تؤدي، وفق المرحلة التي تم بلوغها، إلى أشكال مختلفة من الحساسية والذكاء. والأديان وحدها، قد طرحت على طريقتها، مسألة الذات الخارقة. إذ تمثلت الذات الخارقة بالألوهية، والنقاش الداخلي للأشخاص مع القوة المسيطرة عليهم قد أسقط على الخارج، واتخذ شكل علاقة مع الإيمان أو مع الشيطان.

إن إلغاء الدين أو «رفضه» لم يتضمن قتل الذات الخارقة. ففي العديد من الحالات، حُرِم الفرد ببساطة من وسائل الدفاع التي يستطيع الدين وضعها بتصرفه لكي يتصالح مع ذاته الخارقة ويحمي نفسه من نفسه ومن ضروب القلق التي كان يتسبب بها. إن الإلحاد لم يحسِن دائماً وضع وسائل دفاع بتصرفه مساوية لتلك الوسائل أو متفوقة عليها. ويفسد هذا الأمر البلبلة الكبيرة والخطيرة التي يعاني منها العديد من الأشخاص والجماعات التي عند حرمانها من الإيمان وضعت نفسها في طريق البحث عن معتقدات جديدة. وهكذا أصبح عدد من اليهود

المتحررين من ربهم المضطهدِ رُسُلَ اشتراكية ضيقة الأفق، تميل إلى استبدال الآلهة المطرودة بعقيدة اجتماعية تتدخل في كل تفاصيل الحياة الخاصة للأفراد، مثل يهوه في عقيدة الجماعات الإسرائيلية تماماً. وقد وجد بعضهم طريقه لاستبدال ربهم بصكوك إيرادات تتمتع بامتيازات شبه دينية تمتص خدمتها كلياً أو جزئياً نشاطهم الأخلاقي. وهناك أيضاً أشخاص يؤمنون بقواعد النحو واللغة، فالفاصلة ونصب الفعل آلهتهم.

ونجد بالنسبة إلى الآخرين أن طقوس العمل تساوي الطقوس الدينية. فيعتقدون أن يوماً يعملون فيه ٨ ساعات يعطيهم حقاً اجتماعياً بالمباركة الأرضية تماماً مثلما تعطي الصلاة الحق بالمباركة الأبدية. وفي هذه الحالات تتم الاستعاضة بالاعتقاد الجديد عن الاعتقاد القديم دون الكثير من الاضطرابات الظاهرة وحتى قد تتلاءم مع حسنات ذات طابع اجتماعي بالنسبة الى جماعات. وتُسْتَبْدَل الآلهة المطرودة أحياناً بوسواس، بمخدرات، بمرض؛ ويستبدل الدين بالإصلاحية أو السجن أو الماخور.

ولنتمعن عن قرب في مسألة المرض الذي يستعاض به عن الإيمان، لقد أوضحنا في الفصل الأول كيف تتولد الأمراض العضوية وكيف تقوى. فالسل الرئوي مثلاً قد يحل محل الإيمان ويسيطر على الفرد تماماً مثل إيمان ما بشروطه وتبعياته. فهناك مؤمنو السل كما هناك مؤمنو المخدرات والقرحة المعَدِية أو السفلس. إن علاقة هؤلاء المؤمنين بأمراضهم يميّزها نوع من الطقوس الدينية. وهكذا نكون على صلة بطقوس المعالجة التي تتطلبها هذه الأمراض: تقرّب من الأدوية، طقوس إزالة التسمم، والتطهير المستعاض به عن الطهارة. إن العديد من الأشخاص قد كرسوا حياتهم لهذه الأشكال من الممارسات الدينية اللاشعورية التي أعقبت الدين المألوف وحلّت محله. وقد تنشأ علاقة مماثلة كذلك بين شخص ما يمتلك اضطرابات في المعدة والأمعاء ويرعاها وبين الأقراص التي يتناولها. فهذه الاضطرابات تتحول أحياناً إلى سرطان يهلك الإنسان من جرائه.

إن بعض العقائد هي بالنسبة إلى النظام الاجتماعي لجماعة ما، مثل المرض بالنسبة الى فرد ما. فهل من المصادفة أن يكون روبسبيير قد أراد استبدال «الطاغية» المطرود بطغيان كائنه الأسمى؟. لقد رأينا كم كان من المستحيل عليه العيش خارج العبوديات الكبرى لذاته الخارقة، وكم كان هذا الثوريّ عاجزاً عن الدفاع عن الحرية التي تلاحقه. ولكي يخلف الملكية المطلقة احتار بين صعوبات نظام اجتماعي ذي ميول شيوعية واستبدادية الكائن الأسمى. وليست بعض العقائد محرِّرة ومنقِذة إلا بوساطة العبودية الدينية التي تلزم هذه العقائد بها الأفراد الساعين إلى إيمان ما. فليس الفكر الديني لدى الأفراد وفي المجتمعات الإنسانية، إذاً، مسألة استدلال واستقراء. وقد استخف فرويد نفسه في كتابه مستقبل وهم بهذا الفعل الأساسي. فما هي، إذاً، طرق النشاط التي يستطيع الأفراد الاعتماد عليها لحماية ذاتهم من ذات خارقة فردية أو جماعية تقضي عليهم بالبنات أو بالإجهاض؟ وما العمل كي لا نبقى من دون حدود ممكنة لنمونا الخاص؟ كيف نمتنع عن أن نكون عدوّنا بمساعدة موت الفرد والبشر؟

إن طرق النشاط تتنوع وفق الجماعة التي ينتسب إليها الفرد. فأسلحتنا متعددة، وتبدأ من السحر وعبادة القدرة الكلية، إلى الدين والعلم اللذين يستعيدان علاجات أخرى غير السحر. ونخطىء إذ آمنّا بعلاج عالمي، بتدبير مقدس قادر وحده على التجاوب مع مستلزمات مصير الإنسان. إذ يتوافق مع كل عقلية تدبير خاص. ولكل طبقة ديناميتها الخاصة، بحسب توازن أو لا توازن الأشخاص الذين يؤلفونها وبحسب مرحلة تطورهم.

إن الذات الخارقة الجماعية الأكثر شراسة هي على ما يبدو الذات الخارقة للجماعات التي ما تزال في مرحلة التصور السحري للواقع. ويستخدم علم الأفراد فيها، كما رأينا سابقاً، ليس في سبيل الوصول إلى السبب الحقيقي لخطر ما يفلت من إدراكهم، بل لإزالة القلق الذي خلقه هذا الخطر ووعيه الممكن. ولن يكون هدف الطقوس الجماعية حماية الجماعة من سوء ما، بل منحها الشعور بأنها محمية، حتى لو استمر السوء لاحقاً بها. وتشتمل هذه

الطقوس، غالباً، حتى على تفاقمه، في جميع الحالات، وعلى سبيل المثال عندما يحتم الخوف من خطر ما، كردة فعل، الهرب في الخطر. وفي هذه المرحلة بالذات تكون الذات الجماعية وخاصة الذات الفردية الذاتين الأكثر ضعفاً. ولا تجابه الذات الفردية إلا نادراً النظم الجماعية التي تتكشف بوجه عام عاجزة عن القبول بوجود ذات فردية تمتلك قدرات بيّنة على المبادرة. فالجماعة، مثل الذات الخارقة الشرسة تنظم حياة الأشخاص كلها، وطريقتهم في الحب، والتغذي والتمتع. وإلى هذه المرحلة من التطور بالذات ينتمي على ما يبدو التنظيم الشيوعي البدائي للمجتمع البشري، فتصبح النزعة الجماعية قادرة بشكل كلي ولا تحسب تقريباً حساب مستلزمات الحياة الفردية. فدراسة المجتمعات البدائية التي وصفها لفي - بروهيل (Levy - Bruhl) في أعماله التي تناولت الفكر البدائي، يمكن أن تعطينا فكرة عما تمثله حياة الأشخاص في هذه المرحلة من التطور. إن عدد الوفيات هائل ومخيف، والآلام التي تخلقها الحياة الجماعية تتجاوز حدود ما يمكن تحمُّله، إذا لم يكن الأشخاص متكيفين مع معاناتهم بفضل حساسية تتفاعل بطريقة مختلفة عن طريقتنا. فليس لحساسيتهم أي شيء مشترك مع ما تمثله هذه الكلمة بالنسبة إلينا. إن دراسة المجانين والمفصومين بشكل خاص، تزودنا بنقاط تشابه لفهم مظاهر هذا الفكر البدائي في هذه المرحلة من نموه فضلاً عن شكل التدبير الفردي والجماعي الذي يسببه. فالشيوعية، في مجتمعاتنا المتمدنة، في الوقت الذي تميل فيه ربما إلى الرجوع الى هذه المرحلة في مواجهة الحضارة الحالية، لا تمتلك أي قاسم مشترك مع النزعة الجماعية البدائية التي نحن بصددها.

ويذهب علماء النفس الى أن العناصر الأولى للمعتقدات الدينية قد تشكلت من خلال ردة الفعل في وجه هذه الذات الخارقة الإحيائية والضعف الخطر، الفردي والجماعي، الذي تشتمل عليه، وهي تتشكل في سيرورة بطيئة لتمايز الذات، ومن الصعب أن نتصور تماماً وبدقة ماهية هذا التطور وبأي مراحل انتقالية قد مرّ. وقد عادوا بأبحاثهم إلى المراحل الأولى لليهودية المسيحية فوصلوا مع موسى إلى المعتقدات المصرية كما تشكلت خلال آلاف

السنين في وادي النيل. وتذهب القصة إلى أن موسى قد وجدته ابنة الفرعون في سرير من القصب عائم فوق مياه النيل. وتروي أيضاً كيف أن موسى الذي تربّى وفق التقاليد المصرية أصبح رئيس اليهود الذين منحهم دينهم بعد الخروج من مصر. فتساءلوا عن هذا الدين؟ وعن أصله؟ لا شك في أنه سيكون من المغري والمرغوب فيه أن ندرس بتمعن التاريخ المصري قبل عهد موسى لنحاول أن نفهم التقاليد التي نشأ فيها موسى وفق الرواية الدينية. ونحن نعرف أن التنظيم الاجتماعي المصري كان في بداياته متميّزاً بشيوعية كلّيانية شمولية، تجمع سلطة الدولة كلها بين يدي الفرعون. ويبدو أن هذا التنظيم الاجتماعي قد توافق مع ذات خارقة صارمة، وجدت تعبيرها الرمزي الأكثر كمالاً في كتل الأهرام المخصصة لعبادة الأموات، وهي العبادة التي أعقبت على الأرجح إحيائية العصر البدائي. وهذه العبادة، بتقاليدها القاسية وتبعياتها المنهكة أرخت ثقلها، كقدر محتوم، على الأحياء الذين حافظوا عليها طوال ما يقرب من خمسة آلاف سنة. ولكن يجب ألا نعتقد أن هذا الأمر قد مرّ دون العديد من ردّات الفعل من قبل الأفراد ودون ثورات جدّية، طرحت للمناقشة وجود هذه التقاليد نفسها.

ومن بين هذه الثورات، أو ردّات الفعل هذه في وجه هذه الذات الخارقة السلفية للمصريين، هناك واحدة منها تستحق انتباهنا بشكل خاص. إذ قبل عهد موسى بقليل، نجح فرعون اسمه أخناتون آتون في إلغاء عبادة الأجداد وإبطالها لاستبدالها بعبادة جديدة: إنها عبادة رع أتون. وتختلف هذه العبادة كلياً عن عبادة رَعْ آمون، وأوزيريس والأرباب الأخرى التي حل رَعْ آتون محلها. ويبدو رَعْ آتون هذا كإله وحيد، موّجه للحياة وباعث لها. لقد ملأ الأرض بالحسن والجمال، وتخصب أشعته حقول وادي النيل. فَرَعْ آتون هو الشمس التي تنشط الكائنات وتصبح الأرض من دونها ميتة. إن عبادة الشمس الخصبة، التي تولد من جديد وتبعث، قد حلت، إذاً، على ما يبدو، محل عبادة الأموات التي سحقت الأحياء. ومن المرجح أن أخناتون آتون هو أول من أتى بالتوحيد في تاريخ حضارتنا، دون أن تستعمل تلك الكلمة في ذلك

الوقت. وقدحدث هذا في العام ١٣٨٠ تقريباً قبل الميلاد. ومن الصحيح أن عبادة اخناتون آتون لم تنجح في التأصل في مصر. فقد اختفى هذا الفرعون واختفت معه كل معابد رَعْ آتون، وكل الأعمال الفنية التي خصصت له.

ويرى علماء النفس أن هذه العبادة تقبع في أصول الموسوية ويتساءلون قائلين: أليست هي التي نُقِلت إلينا بعناصرها الأساسية، بالرغم من تحريفها فيما بعد وتكييفها مع مستلزمات الشعب اليهودي؟ هذا هو ما لنا الحق في التساؤل عنه. ويذهب علماء النفس إلى أن موسى مصري. وقد أصبح رَعْ آتون، رب أخناتون آتون، أدوناي، رب اليهود، وستقدم عبادته العناصر الأولى للموسوية التي أفسحت في المجال لولادة المسيحية. كأن الموسوية تركت المؤمنين بها تحت نير الذنب العالمي للخطيئة الأصلية. ومنعت تصوير صورة الرب. وقد تمردت المسيحية وثارت على الخطيئة الأصلية وعلى تحريم النظر إلى ربها مواجهة. وذهبت إلى حدّ تبنّي فكرة قتل الرب تضحية للسيد المسيح، التي قبل بها الرب الذي أرسل ابنه إلى الأرض ليكفّر بموته عن الخطيئة الأصلية، وبهذا الشكل يحرر الإنسانية. ومن الآن فصاعداً، سيحل هذا الإله المصلوب والبائس في المعابد محل الرب المجرّد وغير المرئي الذي مثلّه يهوه الذي ليس لأي إنسان الحق في التمعن فيه.

فماذا يعني هذا التطور في المعتقدات الدينية من الزاوية التي تهم علماء النفس هنا؟ يتوجب علينا لفهمه بشكل جيد أن نتذكر ما نعرفه عن التكوّن الطبيعي للذات لدى الفرد في وسط محدد. فخلال الطفولة الأولى تكون الذات رقيقة، وما إن تتكون ذات خارقة أبوية حتى تهيمن عليها كلياً. ولكن بقدر ما تترقى طبيعياً، تقاوم ذاتها الخارقة وتتحرر من السلطة الأبوية ومن سلطة وسطها الاجتماعي. وبدءاً من لحظة معينة، ترد الذات بالكره على قيود ذات خارقة طفولية صارمة، وهو ما يظهر في الأحلام، كما رأينا في الفصل السادس على شكل نضال بين الذات وتأثيرات الذات الخارقة وعندما تتوصل الذات إلى الانتصار في هذا النضال، يذهب الحلم إلى حد تصوير موت الأشخاص الذين يمثلون الذات الخارقة. ولا تتطور ذات الفرد نحو النضج إلا بعد هذا النضال

وهذه التصفية لردات فعل القلق والذنب الذي تسببه.

ونواجه سيرورة مشابهة في سبيل تكوين ذاتنا الجماعية التي تنعكس في تطور المعتقدات الدينية، بدءاً من الإحيائية لدى المصريين الأوائل وحتى المسيحية؟ وفي نظر علماء النفس تشكل الموسوية نقطة وسطى في هذا التطور الذي تتحول خلاله القوى السحرية للإحيائية إلى آلهة لا تزال مرعبة في أصولها. فالمسيحية، بإلهها المصلوب، تتوافق مع مرحلة الذات الفردية التي تلغيها هذه الأخيرة بالموت؟

ومهما يكن، ليس أقل صحة أن المعتقدات الدينية قد سمحت على ما يبدو للأفراد بأن يتصالحوا مع القوى الخفية كالذات الخارقة الكلية القدرة، التي تحدد مصيرهم. وبفضل هذا الميثاق أصبح تصور هذه القوى ممكناً. وابتكرت أول طريقة لعقلنتها وتقريبها. وقد سمحت هذه الطريقة، بفضل الاحتفالات الدينية والأضحيات المعقدة، باكتساب سلطة على الآلهة وتصفية الرعب الذي توحي به، من جراء الاقتراب منها. أفليست هذه الممارسات الدينية سلاحاً ثميناً في نضال الذات الفردية والجماعية ضد الذات الخارقة البدائية الفردية والجماعية؟ وكل فرد في حضارتنا مرغم على مواجهة هذا النضال خلال حياته. لذلك ألا يمثل كون الفرد محروماً من الدين إعاقة لتفتح ذاته الطفولية؟ ألا تكون نتيجة ذلك انكفاء العديد من الأشخاص الى المرحلة البدائية للذات، وهو انكفاء سيحتم اللجوء إلى وسائل دفاع مثل وسائل الخرافات البدائية والتنظيمات الاجتماعية الملائمة؟ إن المسألة تطرح نفسها والسؤال مشروع ومبرر.

وينتج من ذلك أنه لا يكفي، لتحرير ذات الأشخاص، التأثير فيهم بوساطة براهين تجريدية، بل بوساطة وسائل جديرة بتأمين نموه العاطفي. وليس هذا النمو قضية تثقيف عقلي بقدر ما هو قضية نضج عاطفي يمكن أن يتم بوساطة تدخّل الدين من جهة وبوساطة معرفة خاصة: معرفة علم القوانين التي تتحكم بالنمو العاطفي للإنسان، أي التحليل النفسي. وما زال هذا العلم غير مستخدم

لتكوين أفراد جماعاتنا، وهو ليس بعد في متناول المربين وعلماء الاجتماع ورؤساء الدول. ولعلنا بحاجة إلى عدة أجيال كي نتوصل إلى إدخال تربية التحليل النفسي في عاداتنا وآدابنا. ولكن من الأكيد أن هذه التربية وحدها ستتيح لنا بلوغ الهدف الذي يسعى إليه مشرّعونا وحكوماتنا في أيامنا الحاضرة. وستُفهِمنا أن النجاح المادي والمعنوي يتطلب أن يكون معدّاً ومحضّراً لكي يكون محتملاً. وهذا التحضير يستلزم بعض الاختبارات وبعض المعاناة والتضحية التي يفر منها الأشخاص عادة لأنها مصدر للشقاء. ومع ذلك هي ضرورية لتأمين السعادة البشرية المتميّزة بالتوازن النفسي والهيمنة على الذات. وتكيّف جيد مع ضرورات الواقع وصحة الأفراد والبشرية.

إن هذه الاختبارات والمحن والمعاناة والتضحيات، ما إن تعتبر محتمة وتشكل جزءاً من التفتح الطبيعي للفرد حتى تفقد مرارتها وتصبح محمولة. فالفرد الذي يفهم ضرورة الخضوع لها يقبلها بشجاعة ويستقبلها بفلسفة. وهكذا يمكن أن يولد شكل جديد من التعاون مع قوى الطبيعة، ويمكن لسعادة البشرية اتخاذ طابع أكثر واقعية مما لو كانت مستحقةً ومكتسبةً بوساطة وسائل تسمح للأشخاص بالحصول على متعة الأعطيات التي يمتلكونها.

إننا نعتقد أن هده المعرفة وهذا التعاون سيوفران العديد من الآلام الفردية والجماعية التي سيشعر الفرد تجاهها حينئذ أنه مسلح بشكل فعّال. إن السعادة المفروضة مصدرٌ أكيد للشقاء والفشل المتعدد، مادامت الشروط العاطفية الضرورية لقبولها لم تنفذ. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة إلى سعادة الأفراد المادية والمعنوية وإلى سعادة الجماعات. وسيتوجب على الاشتراكيين أن يعيدوا النظر في أساليبهم إذ كانو يرغبون حقاً في خدمة قضيتهم. وسيتحرك بالشكل عينه رجال الدولة، والحكومات لتوفير صحة الجماعات التي يقودونها وقوّتها وازدهارها. وسيفهمون بأي آلام يدافع عن بعض الحسنات المقدسة، وإلى أي حد يمكن لبعض الحسنات الظاهرة أن تكون في الحقيقة أخطاراً وسيتبينون المشكلة في عصرنا الحاضر، وربما في أكثر من أي عصر مضى، لا تقوم في صعوبة الحصول على ما لا نمتلكه، بل في صعوبة استخدام الموارد التي سبق

الحصول عليها والتي أصيبت بالعقم من جراء كون الوعي البشري ما يزال غير مسلح بشكل كافٍ لتنميتها. ويجري الأمر نفسه مع بعض وسائل القتال، فالانتصارات الأكثر عظمة لا تتحقق فقط في ميادين المعارك، بل في أعماق الضمائر والوعي.

إن هذه المعارف لسوء الحظ يمكن نقلها بوساطة مفاهيم واردة في الكتب. ففي هذا الميدان بشكل خاص لا يفهم جيداً إلا ما يتم تصوره. فيتوجب علينا، إذاً، المشاركة في خلق جو أو حالات نفسية تتيح للأشخاص أخيراً إدراك حقائق لا تظهر لهم إلا عندما يتعلمون إدراكها. لقد اعتدنا طويلاً، وطويلاً جداً على أن نجعل من المنطق المعيار الوحيد للحقيقة. أما اليوم فنحن نعلم أن هناك حقائق تفلت من المنطق، ولكن ليس من الحساسية والإدراك. وهذه الحقائق هي الحقائق التي نريد كشفها للجماعات التي تجازف بتعريض حياتها نفسها للخطر من جراء كونها تجهلها.

فهرس المحتويات

الفشل

الفشل هزيمة مرّة تتربص بالإنسان في ميادين الحياة كافة: العاطفية والاجتماعية والمهنية والفكرية، فيسقط الإنسان هناك حيث النجاح ممكن ومتوقع وتتلاشى الآمال والأحلام على صخرة الواقع الصلبة، ويتحول المرء صرخة في هوة لا ترحم، ويحاول كثير من الناس تفهّم أو تعليل فشلهم أو فشل قريبهم أو صديقهم أو أحد معارفهم، فيردّون هذا الفشل إلى عوامل خارجية كالظروف المهنية أو الاجتماعية أو السياسية، أو إلى نقص في المؤهلات أو عدم مرونة تجاه العوائق والمعطيات. والواقع أن الفشل حالة تختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يمر به فيصبح أكثر قوة، ومنهم من يتعرض له فيحطم الفشل أجنحته، ومنهم من لا يستطيع تحمّل مراراته فيهلك فيها؛ ومنهم، وهذا هو الأخطر، من يسير مباشرة إلى الفشل بقدميه، فيسعى إليه سعياً نتيجة رواسب قديمة وظروف نفسية وعائلية صعبة مرّ بها في طفولته، وهو ما يتوقف عنده هذا الكتاب بشكل عميق.

ولعل من أكثر الأمور إمتاعاً أن هذا الكتاب لا يقتصر على الأبحاث النظرية في دراسة الفشل كعارض من أعراض الأمراض النفسية، بل نراه يركز على الأمثلة المقتطفة من حياة الأشخاص العاديين.

هذه المواقف، بجذورها النفسية، هي التي يهتم بها هذا الكتاب الرائع متوسلاً التحليل النفسي. ولعلنا نكون بترجمته قد سددنا ثغرة في مكتبتنا العربية والنفسية والعائلية.

١٩,٢٥٠

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت